



پول بورچیه



الأشقاء

أو أندريه كورنيليس

رواية
عصرية
أخلاقية

ترجمة: أحمد رأفت



أقلام عربية
للنشر والتوزيع

الأنقام

أو

أندريه كورنيليس



بورجيه، پول

الانتقام، أو، أندريه كورنيليس/ تأليف پول بورجيه، ترجمة أحمد رأفت. - القاهرة.
أقلام عربية للنشر والتوزيع، ٢٠١٧، ٢٦٨ ص ٢١.٥×١٤.٥ سم.

١- القصص الفرنسية

أ- رأفت، أحمد (مترجم)

ب- العنوان ٨٤٣

رئيس التحرير: طارق هاشم

المؤلف

المترجم: أحمد رأفت

طبعة أقلام عربية الأولى ٢٠١٧ / ٢٠١٨

رقم الإيداع: ٢٠١٧ / ١٩٨٩٦

العنوان: I كريم الدولة - أمام جروبي - طلعت حرب

تلفناكس: +20225740228 موبايل: +201011745806



info@daraqlam.com



Aqlam Arabia Bookstore

www.daraqlam.com

© جميع الحقوق محفوظة لدى دار أقلام عربية للنشر والتوزيع

الانتقام أو أندريه كورنيليس

تأليف
بول بورجيه

ترجمة
أحمد رأفت


أقلام عربية
للنشر والتوزيع

المقدمة

ولد بول بورجيه في عام 1852 وهو من كبار الكتاب الفرنسيين ومن أعضاء المجمع العلمي الفرنسي. شغف في مباحثه منذ شبوئته الحارة بدراسة النفس وتحليل عواطفها خفيها وظاهرها فأصبح من بين الروائيين أقدرهم على تصوير النفس ومشاعرها في مختلف تطوراتها ومتباين صورها لا يستند في ما يكتب إلى وهم أو خيال بل يستقي آراءه وأفكاره من تحليل وتكييف مما يجري في عالم الحقيقة معتقداً أن دراسة الهيئة الاجتماعية من الوجهتين النفسية والفلسفية ليست وفقاً على الفلاسفة وعلماء النفس وأن للروائيين أن يلتمسوا دراستها بل هو يعتقد أيضاً أن هذه الدراسة أيسر للروائي الذي لا تحول بينه وبينها مناهج البحث العلمي ونظرياته، وإذن فليس بول بورجيه بكاتب روائي فحسب وإنما هو فوق ذلك فيلسوف وعالم نفسي كبير.

ولقد بدأ حياته في عالم الأدب بأن وضع مجموعات صغيرة شعرية مؤثرة ثم وضع مؤلفاً في الفلسفة وعلم النفس أوردفه بروايات قيمة عديدة أولها "اللغز القاسي" ومنها "جريمة حب" و"أكاذيب" و"قلب امرأة" وكثير غيرها.

وفي عام 1887 وضع رواية "أندريه كورنيليس" التي أفدّم ترجمتها اليوم
لحضرات القراء وهي من أدق رواياته وأبدعها ومدارها تحليل شائق لنفسية
شاب تدفعه مشاعره_وهو لا يستطيع التغلب عليها_ إلى الانتقام لأبيه الذي
قتل غيلة.

المترجم

أحمد رأفت

(1)

كنت وأنا صغير أؤدي فريضة الاعتراف!

كم وددت لو أعود إلى ذلك العهد فأصبح ذلك الصبي الذي كان يزور كنيسة المدرسة حوالي الساعة الخامسة مساءً، تلك الكنيسة الخاوية الموحشة المغشاة حوائطها بالجير والتي لا تحوي سوى مقاعها المنضدة بأرقامها المتتابعة وذلك الأرغن البسيط الصغير وصورة العائلة المقدسة في ثوبها الناصع، تلك الكنيسة ذلت القبة الملونة باللون الأزرق المنقوشة بها الكواكب منتثرة، فلقد كان أحد أساتذتنا يدخلنا تلك الكنيسة عشرة ف عشرة وعندما يحين دوري للجثو في أحد الكوخين المعدين للمعترفين التائبين، ذينك الكوخين القائمين إلى جانبي كوخ القسيس، كان قلبي يكاد ينقطع لشدة اضطرابه. وكنت أسمع صوت الكاهن دون أن أميز ما يقول عند شروعه في توجيه أسئلته للزميل الذي سيأتي اعترافه اعترافي، فكان ذلك الهمس مع سكون الكنيسة ووحشتها يدخل في نفسي روعة وتأثيرًا عميقين كروعة الفجر وتأثيره عند اليقظة من النوم.

كانت هذه التأثيرات مضافاً إليها خجلي مما سأفضي به من غلطاتي تؤلمني شديد الألم بحيث تزعجني حركة نافذة كوخ الكاهن

عند فتحها، تلك النافذة التي كنت ألمح من ثنايا قضبانها نظر الكاهن مسلطاً
حاداً وإن كان وجهه بديئاً محتقناً بالدم.

ما أشد ما كان ينتابني من القلق والغم المميتين في تلك اللحظة ولكن ما
كان أنعم بالي وأهدأ نفسي بعدها، بل ما أعظم غبطتي وارتياحي بعد الإفضاء
بتلك الغلطات وما أعظم جذلي وانتعاش نفسي من تحرري من ربقتها والخروج
من إصرها! فما أنا بعد تأدية فريضة الاعتراف إلا ذلك الذي يمنح صحيفة بيضاء
نقية لتملأها روحه الفرحة المتحمسة بالحسنات!

إني لغريب الآن عن ذلك الإيمان الذي كنت عليه في سني حياتي الأولى حتى
وأؤمن بأن هناك نظاماً خارقاً يوقن به القلب وتخضع له المشاعر!

إني لموقن على كل حال بأن مبدأ الاعتراف، ذلك المبدأ الذي ينجو به الضمير
من آلامه ووخزاته، والذي كان ينعش نفسي ويعيد إليها هدوءها وطمأنينتها كان
أساسه في الحقيقة إفضائي بجميع ما اقترفت من الهنات والغلطات وأن أُلقي
بذلك بعيداً عن جوانحي عبء توبيخ الضمير، ذلك العبء الذي يكاد يقتلنا
جميعاً. وما فعل الاعتراف في تخليص الضمير مما يثقله إلا كفعل ضربة المشرط
تنقي الدمامل مما فيه من السموم والأدران!

وأسفاه! ليس لي الآن ملاذ اعترافٍ أجثو فيه ولم تبقَ في فؤادي صلاة أهتم
بها كما إني لم أعد عامر القلب بالإيمان بإله أتخذة غوثي ومعقد رجائي!

لكن لا بد لي من التخلص من إصر هذه الذكريات المرهقة! فإن هذه الفاجعة الخاصة التي احتملتها تنقل ذاكرتي ولا صديق لي أبثه نجواي بل ولا صدى أبدد فيه شكواي. فإن من الجُمَل ما لا يستطيع النطق به لأن تلك الجمل لا يصح أن تُعلن فتُسمع.

لذلك، ولكي أخدع ما بي من ألم، ساورتني فكرة الاعتراف هنا على هذه الصفحات البيضاء لنفسي لا لغيري كما كنت قد أفعل لدى الكاهن. سألقي فيها بجميع تفصيلات هذه الحادثة الفظيعة المشؤومة نتفة نتفة كما تملئها عليّ ذاكرتها والذكرى وحينما أنتهي من هذا الاعتراف سأثق أن ما بي من قلق قد تلاشى أو تناقص على الأقل.. نعم، فليضمحل هذا القلق على الأقل! ولأستطيعن الرواح والمجيء، ولأستطيعن أن أنعم بقسطي من الشبوية والحياة!

قد تألمت كثيراً بل عشت في هذا الألم طويلاً ولكني لا زلت أحبها، تلك الحياة، أحبها وإني بها لشغوف بالرغم من آلامها. وإن كأساً من ذلك الدواء الأسود، ذلك المخدر الذي عندي منه قنينة وقد أعددته لتلك الليالي الطويلة التي لا يزور عيني فيها لذيد الكرى، إن كأساً من هذا الدواء قد يكفي ليمحو دفعة واحدة ما أنا فيه من عذاب طويل بطيء مبعثه ما أنا واقع تحت إصره من وخزات الضمير!

لكني لا أستطيع بل ولا أريد! فالغريزة الحيوانية، غريزة حب البقاء، تتحرك في نفسي بأقوى من جميع الأسباب الأدبية التي توسوس إليّ بالخلاص من تلك الوخزات!

عش إذن أيها الشقي بما أن الطبيعة تجعلك ترتعد فرقًا من شبح الموت.
الطبيعة؟ نعم، لأنني لذلك لا أريد أن أذهب هناك، في تلك الدنيا المظلمة
التي قد يسترد المرء نفسه فيها. لكن ما لي وهذا الفرع الذي ألقى بنفسي في
بيدائه وقد آليت على نفسي أن أعود فأمتلك مشاعري فلماذا إذن أضل؟ فلنعد
وهاك إذن ما اعتزمت: أن أثبت على هذه الصفحات صورة ذلك القدر الذي
أصابني، تلك الصورة التي لا أنظر إليها في مرآة ذاكرتي الضعيفة إلا باضطراب
ووجل. وسأحرق هذه الصفحات حينما تغشاها كتابتي السيئة، لكن هذا التاريخ
سيكون قد كمل واستقام أمامي كائنًا كاملاً.

نعم، سأضع قبسًا من النور يضيء ظلمات تلك الذكريات القاتلة التي
تفزعني وتطير رشادي وسأعلم من تسطير هذه الحوادث المشؤومة أين أنا كما
أعلم مقدار ما بقي لي من القوى، فإني هنا، في هذا المنزل الذي اعتزمت فيه إنفاذ
هذا العزم الوطيد أستطيع بسهولة أن أستجمع شوارد ذكرياتي.
هيا! هيا إذن إلى العمل! وإني أعد نفسي وعد الشرف أن أدون هنا كل
شاردة وواردة.

أيها القلب التاعس، دعني أحصي ما انتابك من ضربات الدهر وكوارث الأيام.

(2)

أتذكر؟ أشعر أني خلال عدة سنين تسلقت جبلاً من الآلام! ولكن كيف
خطوت أول خطوة في هذه الطريق المملخة كلها ببقع الدم؟
بأية ذكرى أبدأ تسطير تاريخ هذا العذاب الطويل الذي عانيته ولا زلت
أعاني منه حتى الآن هزات القلق الأخيرة؟

لم أعد أستطيع، فإن المشاعر التي تجيش في فؤادي لشبيهة بتلك البلاد التي
تجتاح البحار شواطئها فيعز على المرء أن يدرك أو على الأقل يتخيل من أين يبدأ
البحر وأين ينتهي فلا يرى إلا بلاداً غامضة المساحة ورمالاً مبللة بالمياه وحدوداً
دائمة التقلب غير صادقة، في حركة دائمة من الاعتدال إلى الاعوجاج ومن
الاعوجاج إلى الاعتدال، وكما يستطاع مع ذلك رسم هذه البقاع على الخريطة
تستطيع مشاعرنا أن ترسمها وتحللها بعد ذلك بحسب ما يمليه عليه التصور.
ولكن ما أشد ثوران الحقيقة، تلك التي تستعصي على من يحاول إثاقها
واهماً أنه بذلك يخفيها!

وإن من أشد الألغاز غموضاً لتلك اللحظة التي تنفجر بها قرحة بين حنايا
القلب، بل إحدى تلك القرحة التي لم تندمل بعد في قلبي!

فيتعين إذًا تمهيدًا لتحقيق هذا الغرض وتسهيله ولكيلا نضل في هذا الخدر المؤلم، خدر التخيل الذي يسيطر عليّ سيطرة المخدر يجب أن أسير في تسطير هذا التاريخ مهتديًا بهدي الحوادث نفسها. ولنذكر على الأقل الحادثة الثابتة التي كانت العامل الأول القاطع: تلك الحادثة هي وفاة أبي، تلك الوفاة المفجعة الغامضة.

ولأحاول أن أتذكر نوع ذلك التأثير الذي أوقعني تحت إصر الذعر من ذلك العهد دون أن أدخل فيه ما فهمته وما شعرت به بعد ذلك..
كنت قد ناهزت التاسعة من العمر في عام 1864.

وفي عصر يوم شديد القیظ من أيام شهر يونية كنت أشتغل كعادي في حجرتي بعد أن عدت من مدرستي، مدرسة بونابارت وكانت مصاريع النوافذ مقفلة.

كنا نقطن بشارع ترونشيت بالقرب من كنيسة المدلين بالمنزل السابع على يسار الآتي من الكنيسة. وكانت حجرتي هذه صغيرة مفروشة برشيق الأثاث مدهونة حوائطها باللون الأزرق، وهي الحجرة التي قضيت فيها آخر الأيام السعيدة وكان يدخل لها بثلاث درجات _وإني لأذكر الظروف بدقائقها_ وكنت مرتديًا رداءً أسود حفيظًا طويلًا كما كنت وأنا جالس إلى منضدتي أعيد تصريف فعل لاتيني على ورقة سطرها سلفًا جملة سطور وقسمتها إلى خانات..

فسمعت فجأة صرخة هائلة تلتها أصوات تنم على الفرع العظيم وحركات خطوات سريعة في الدهليز الذي تشرف عليه حجرتي.

فاندفعت بحكم الغريزة نحو هذا الباب فاصطدمت في الممشى مع الخادم الذي كان يجري كالمجنون من شدة الهلع حاملاً في يده نضدًا من الأقمشة البيضاء أدركت بعد ذلك ما استعملت فيه.

فارتج عليّ لدهشتي فلم أسأل هذا الرجل شيئاً لكنه لم يكذب يراني حتى صاح بالرغم منه قائلاً: "يا لها من مصيبة فظيعة يا سيد أندريه!"، ثم عراه الذعر مما نطق به فعاد فتغلب على نفسه وقال لي:

– ادخل، ادخل في حجرتك عاجلاً...

وقبل أن أستطيع أن أجيبه احتضني بين ذراعيه وقذف بي تقريباً في حجرتي وأقفل الباب بالمفتاح. فقذفت بنفسي نحو الباب صائحاً: "كلا! ولتقل لي كل شيء، أريد أن أعلم كل شيء...". فلم أسمع جواباً بالرغم من صرخاتي التي تبددت هباءً. فانقضت على القفل أعالج فتحه وعلى الباب أقرعه بيدي بأقصى ما استطعت ثم حاولت أن أفتحه بكتفي!

غضبٌ وسخطٌ وزمجرة ولم يجدني كل ذلك فتيتاً!

فجلست مرهفًا أذني، أكاد أجن من شدة القلق أسمع حركات ذهاب الخدم وجيئتهم، أولئك الذين كانوا يعلمون بتلك المصيبة الفظيعة.

ولكن ماذا كانوا يعلمون؟

بالرغم من طفولتي كنت أدرك معنى الصيحة الهائلة التي صاح بها الخادم في تلك الظروف.

كان أبي قد خرج بعد تناول الفطور منذ يومين من ذلك الحين كعادته قاصدًا مكتب أعماله الذي كان منذ أربع سنوات في شارع "النصر" وكانت تعلو وجهه عوامل القلق والتفكير طول مدة تناوله الطعام. بل قد تغير طبعه منذ شهر فأصبح كثيرًا بعد أن كان باسم الثغر دائم الجذل.

وفي لحظة خروجه كنا جالسين إلى المائدة أُمي وأنا وأحد المعتادين زيارتنا، السيد جاك ترموند الذي كان أبي قد عرفه منذ كنا طالبين في مدرسة الحقوق.

وقف أبي بعد الانتهاء من تناول الطعام وبعد أن ألقى نظرة على ساعة الحائط واستفهم عن الساعة بالضبط فقال له ترموند:

– نعم فأني على موعد مع عميل مريض الآن ولا بد لي من المرور بنزله لأخذ منه أوراقًا هامة... إنه لرجل غريب الأطوار، رجل لا أكره أن أراه عن كثب. قمت من أجله ببعض المساعي ولكن نفسي تكاد تسول لي أن أسف عليها... ثم لم يصلنا أي خبر عن أبي بعد ذلك.

وفي مساء ذلك اليوم وقد أحضرت المائدة بعد أن أجلت مرارًا

دون أن يعود أبي مع ما عرف به من الدقة في المواعيد بدأت أمني تبدي قلقًا ما لبث أن تزايد حتى تعذر عليها أن تخفي عني أن الجمل الأخيرة التي فاه بها ذلك الغائب كانت لا تزال أصداؤها تتردد في آذانها. وكانت محقة في قلقها لأنه كان من النادر أن يتحدث إليها عن مشاغله وأعماله. ثم مضى الليل كله وهزيع من الصباح ثم النهار طوله حتى أرحى الليل ستاره دون أن يعود. فوجدنا أنفسنا، أمني وأنا، جالسين إلى المنضدة المربعة التي كان غطاؤها المبسوط أمام مقعده الخالي يمثل شبح فزعنا. وإذا بالسيد جاك ترموند، وكانت قد أبلغته بخطاب، قد حضر بعد انتهائنا من تناول الطعام. فأبعدت في الحال ولكن ليس بدون أن أجد الوقت الكافي لألحظ لمعًا غير عادي في عيني هذا الرجل الغريب، تينك العينين الزرقاوين اللتين كانتا تلمعان عادة ببرود في هذا الوجه الخبيث الذي تحيط به شعور شقراء ولحية باهت لونها تقريبًا.

ولا عجب في ملاحظتي فمخيلة الأطفال تلتقط تفصيلات دقيقة تنمحي في الحال ولكنها لا تلبث أن تعود آجلًا في معتك الحياة كنقط الحبر التي لا تظهر لأول وهلة ولكنها تبدو على الأوراق عند وضعها تحت أشعة نور قوي واضح.

فإني بينما كنت ألحف في البقاء كنت ألاحظ بغير تعمد ولكن باضطراب يديه الجميلتين وكان قد ضمهما إلى بعضهما وراء ظهره تقلبان عصًا من الخيزران هي موضع إعجابي وشغفي القلبيين، ولولا

أني كنت كثير الإعجاب بهذه العصا وما نقش على مقبضها الفضي من صور عراك
النسانيس لفاتنتي ملاحظة اضطرابه البالغ، وكيف لا يضطرب السيد ترموند
لاختفاء أخلص أصدقائه؟

ومع ذلك فقد كان صوته هادئاً مطمئناً، ذلك الصوت العذب الذي كان من
طبيعته تجميل كل جملة ينطق بها. فقد كان هذا الرجل يقول لوالدي:

– إذا لم يعد كورنيليس اليوم فسأقوم بجميع صنوف البحث عنه غداً... لكنه
لا بد سيعود... وبعد ذلك ينكشف سبب غيبته... وستعلمين أنه سافر للمهمة
التي كان يكلمك من أجلها وأنه قد عهد إلى رسول بخطاب وأن هذا الرسول قصر
في إيصاله إليك... فأجابته والدي:

– "صدقت"! و"لكن أتظن هذا ممكناً"؟

كم أثرت هذه المحادثة خلال ساعات الشؤم التي مرت بي وكم تخيلت
الحجرة التي نُطقت فيها، وهي عبارة عن بهو صغير كانت تحبه أُمي وتؤثره على
غيره وكانت فُرشه من الأقمشة الموشاة بسطور من الحرير بين حمراء وبيضاء
وصفراء وسوداء كان والدي قد أحضرها معه من مراكش في إحدى سياحاته.

وإني لا زلت أرى والدي، هي أيضاً بشعورها السوداء وعينيها الجميلتين
وفهما المضطرب فزعاً. فلقد كانت لشدة ما انتابها من الهلع بيضاء بياض ثوبها
الصيفي الذي كانت مرتدية إياه في تلك الليلة.

وكان السيد ترموند مرتدياً ثياباً رسمية محكمة التفصيل بديعة الهمدام.
كم أبتسم لهذه الذكرى كلما تحدث الناس عن المشاعر!
انصرفت مطمئناً حينما سمعت ما قال. بل كنت أعجب به بطفولة، خصوصاً
ولم أكن آنس منه إذ ذاك ملاطفة.

ولذلك تلقيت بالمدرسة دروس ذلك اليوم وقلبي على الأقل أكثر ارتياحاً وإن
كنت ما زلت على شيء من بلبلة الخاطر...

لكني ما كدت أقف عند عودتي من المدرسة على درجات السلم الصغير
الموصل لحجري، حتى عادت جميع صنوف القلق والاضطراب تساورني فكنت
أدق من لحظة لأخرى على الباب منادياً دون أن يجيبني أحد حتى دخلت غرفتي
الخدم التي ربتني فصحت بها عندما رأيتها:

– أبي؟ أبي؟ أين أبي؟

فاحتضنتني العجوز قائلة وقد ارتسم الأسى على جبينها:

– مسكين! مسكين!

كان قد عهد إليها إبلاغي النبأ المفجع ولكنها خارت قواها فتخلصت من بين
ذراعيها وركضت في الدهليز فألقيت نظرة في حجرتين فوجدتهما خاويتين ثم ما
زلت أسرع حتى دخلت حجرة أبي قبل أن يستطيع أحد أن يحول دوني.

آه! رأيت على السرير ذلك الجسم الذي كان يستر القماش بيوسته وعلى الوسادة ذلك الوجه الناصع البياض لكثرة ما نرف من دمه، رأيت ذلك الجسم لا حراك به، ورأيت عينيه مفتوحتين إلى أقصى سعتهما كأنهما عينا رجل لم تغلق حدقاته كما وقع نظري على تلك العصاة البيضاء التي لفت بها ذقنه وتلك المنشفة التي أحيط بها جبينه. ورأيت عند رجليه امرأة جاثية سحقته الآلام كانت ما تزال مرتدية ملابسها الزاهية.

ذلك الرجل أبي وتلك المرأة أمي! فألقيت بنفسي عليها كالمجنون فصرخت وهي تحتضني بكل ما في أعماق قلبها من الشفقة والحنان: "ولدي، ولدي أندريه!" فأنست في تلك الصرخة أماً عميقاً وحناناً بالغاً كما كنت أشعر وهي تحتضني أن قلبها مفعم بصنوف الحزن والأسى. في تلك اللحظة التي لا تزال نارها تتأجج في فؤادي كلما مرت ذكرها بمخيلتي.

ثم حملتني في الحال خارج الحجرة لكيلا أعود فأرى هذا المنظر المفزع ثم أخذت تصيح وقد زادها الحزن والاضطراب والسخط قوة قائلة عدة مرات: "ليعاقبني الله، ليعاقبني الله!" دون أن تحسب حساباً لوقوع هذه الكلمات التي كانت تنطق بها بغير احتياط. وكثيراً ما مرت به لحظات عديدة كانت فيها من التقوى بحيث تبلغ حد التصوف. كما كانت تغطي وجهي ورقبتي وشعري بقبلاها ودموعها!

أيتها الأم الرؤوم، ليغفر لك الله جميع ما انتابنا، أبي وأنا، من آلام مبرحة
تلقاء ما ذرفت من دموع غزيرة سخينة صادقة في تلك اللحظة!
إن شبح الميت الذي كان يذكرني على الأقل بألامك قد كان لسان دفاعه عنك
أكثر نفاذاً وفصاحة من أئينه!

لقد أتيح لي الإيمان بإخلاصك يا أمي بالرغم من كل شيء لما حبوتني من
القبلات في تلك اللحظة!

حقاً إن تلك الدموع وتلك القبلات لبريئة طاهرة وقلبك الشفيق قد هاج
حقاً هياج السخط من هذا الحادث المرير الذي حرمني أبي، وإني لأقسم على
ذلك بنحبينا المتواصل أنت وأنا في تلك اللحظة كما أقسم بهذا النحيب المشترك
أنه ليس لك أقل قسط في تلك المؤامرة الدنيئة.

وصفحاً إذا كنت في حاجة اليوم أيضاً للاقتناع بهذه الحقيقة التي لا مرأى
فيها والتي لا تحتاج إلى دليل. فليتك تعلمين مبلغ ظمأ المرء أحياناً إلى ذلك اليقين
ظمأ يبلغ به حالة النزاع.

(3)

لمأ كنت أسائل والدي في تلك الآونة عن حديث هذا الحادث المروع الشنيع
كانت تجيبني بأن والدي أصيب بضربة أثناء كان في عربة ولأنه لم يكن يحمل
أوراقاً تدل على شخصيته بقي يومين دون أن يعرف.

بهذا كانت تجيبني والكبار يظنون أن من السهل خدع الأطفال!

لكني كنت من أولئك الذين يدأبون على التفكير الطويل فيما يلقي عليهم
من الأحاديث والأقوال فلم أكن أصدق ما أسمع إلا بعد التمحيص. لذلك وصلت
سريعاً بعد أن استعرضت الحوادث في مخيلتي وقارنت بين الظروف إلى الحكم
بأن الحقيقة ليست ما عرفت. لأنه إذا كان والدي قد مات بالصفة التي أخبرت
بها فلماذا سألني الخادم عندما كان يحضرنى إلى المنزل عمًا بلغني متعلقًا بذلك
الحادث؟ ثم لماذا عكف هذا الرجل على السكوت المطلق بعد ذلك ومن فطرته
الثرثرة؟ ثم لماذا ألاحظ هذا السكوت مرفقًا حوي على جميع الأفواه مستكنًا في
جميع الأنظار؟ وأخيرًا لماذا يغيرون وجهة الحديث معي أو أمامي كلما كدت
ألمس الحقيقة؟

لقد لاحظت ذلك من أدلة دقيقة عديدة! وإلا فلماذا أيضًا بذلوا جهودهم في عدم إيصال أية صفحة إلى أو تحت أنظاري في حين أن الجرائد الثلاث التي كنا مشتركين فيها كانت توجد دائماً في حياة أبي فوق منضدة البهو؟ ولماذا على الأخص كانت نظرات رفاقي والمدرسين، في الأيام الأولى لدخولي المدرسة بعد أربعة أشهر من هذا المصاب، تسلط عليّ بحالة أشتمَّ منها شغفهم بالاستطلاع؟

إن هذه النظرات وفيها ذلك الشغف لهي التي كشفت أمامي عظم مدى هذه الكارثة.

لم يكن قد مرَّ علينا أسبوعان حتى بدأت الدراسة فوجدت نفسي صباح ذات يوم ألعب مع تلميذين حديثين بالمدرسة لا زلت أذكر اسميهما وهما راستوي وسيرفوان، كذلك لا زلت أرى وجهيهما. فالأول سمين الوجه والثاني نحيفه وكان ذلك خلال الفسحة التي كنا مُنحها بين درسي اللاتيني والإنجليزي ومداهما ربع ساعة. كنا نلعب الكرة معاً ولما انتهى اللعب اقتربا مني متشجعين بما أنساه من نظراتي وسألاني دون احتياط:

– "أحقاً قبض على قاتل أبيك؟"

– "وأنه سيعدم؟"

إني بالرغم من مضي ستة عشر عاماً لا أستطيع أن أتذكر بغير اشمزاز وفزع خفقان قلبي الشديد الذي كاد يقضي عليّ عند

توجيه هذين السؤالين إليّ. فإنهما ما كادا يوجهانهما إليّ حتى علا وجهي شحوب مريع لأن هذين الطائشين اللذين صوبا إليّ هذه الضربة بخفة لا تصدر إلا ممن كان في سنهما_ في سننا_ بقيا مضطربين قلقين في انتظار الإجابة. فتولاني غيظ شديد أعمى دفعني إلى أن أمرتهما بالسكوت مهددًا إياهما بقبضتي يدي مرفوعتين إذا تماديا.

لكني لم ألبث أن ساورني شغف جنوني بمعرفة أسباب سؤال زميليّ وما إذا كان للسكوت الميم حولي علاقة بذلك، وعراي خوف هو خوف المرء مما يجهل. وصعد فيضان الدم في وجهي بينما كنت أتمتم مجيبًا: لا أدري. ثم فصلنا دق الناقوس وقد أذن بدخول الفصول.

ما أشأمها صبيحة قضيتها على أثر ذلك ضالًا لشدة قلقي أقلب وأحلل ذينك السؤالين اللذين سببا لي عظيم الاضطراب.

وكان من الطبيعي أن ألبث إلى والدتي لألتمس منها الإجابة لكني شعرت بأني غير مستطيع تكرار ما وجه إليّ ذانك الجلادان الطائشان. إنه لأمر مدهش! فإني أشعر من ذلك الحين أن لهذه المرأة التي كنت أحبها من صميم القلب تأثيرًا عظيمًا يشل كل حاسة في نفسي.

كانت على غاية من الجمال في شحوبها، وكان لها جمال الملكات

وأنفتهن!

كلا، لن أجرؤ على مكاشفتها بالشك الغشوم الذي يساورني في حديثها، ذلك الشك الذي أثاره في نفسي سؤالاً تلميذين طائشين مدفوعين إليهما بحكم الغريزة. لكني وقد كاد يخنقني السكوت اعتزمت أن أتقدم إلى جوليا، الخادم التي ربتني فأستدر منها جواب ذينك السؤالين.

وهي آنسة عجوز ناهزت الخمسين ضئيلة الجسم ذات وجه نحيف ثوت به التجاعيد كتفاحة زادت عن حد النضوج.

كم تقرأ من الطيبة في عينيها السوداوين وفي ذلك الوجه جميعه وإن كانت شفتها الغائرتان بعض الشيء لسقوط أسنانها الأمامية قد جعلتا من فمها فم ساحرة!

قد بكت أبي لأنها خدمته فيما مضى قبل أن يتزوج. وقد احتفظ بها في المنزل خصيصاً لخدمتي ولتؤدي في الوقت نفسه بعض أعمال بسيطة مساعدة للطاهية والخادمين الآخرين. فكانت هي التي تُعنى بنومي وترتيب سريرتي كما كانت تفرئني بضع صلوات وتكلفني أن أفضي إليها بآلامي ومتاعبي الصغيرة فلما أفضيت إليها مكنون قلبي مكرراً تلك الجمل التي أثرت في فؤادي، أجابتنني ببساطة:

— آه! ما أفضح هذين السؤالين! ثم استتبعت قائلة: ولكن ماذا؟ ليس في الاستطاعة أن يخفى عليك الأمر طويلاً...

وهي التي أبلغتني الحقيقة بصوت منخفض في حجرتي الصغيرة بينما كنت أنتحب في سريري الضيق. وكانت تشاطرنى آلامي وأحزاني وكنت أشعر بيدها التي أضع نضرتها كُرّ السنين والعُكوف على التطريز رحيمة في مداعبتها لشعري.

هذه الكارثة المفجعة التي ناءت بغموضها الحالِك على جميع سني شوبيتي ووجدتها مكتوبة بجرائد تلك الحقبة ولكن ليس بأكثر وضوحًا مما سمعته من ذلك الفم الذابل، فم خادمتي العجوز. وها هي في جذب تفصيلاتها كما قلبتها أيامًا طويلة متواصلة دون أن أفوز بشعاع من الأمل في كشف سرها الغامض:

كان والدي، ذلك المحامي المبجل قد ترك منذ بضعة سنين المحكمة الاستئنافية واشترى مكتب أعمال هائمًا قاصدًا بذلك إلى سرعة نوال أعظم ثروة. وقد مكنته من الحصول على مكانة ممتازة بضعة من علاقاته الرسمية واستقامته التي بلغ فيها منتهى الدقة وما كان عليه من دربة وبعد نظر في حل أعوص المسائل وقدرة خارقة على احتمال مشاق العمل.

كان في خدمته خمسة من كاهي الأسرار فلم يكن مبلغ المليون ونصف الذي وراثناه عنه أنا ووالدي إلا مفتاح ثروة هائلة كان لا يابها إلا قليلاً بالنسبة لشخصه ولكن كان قصارى همه أن يعدها إلى ولده وعلى الأخص إلى زوجته التي كان بها هائمًا إلى درجة الجنون.

ثبت من المذكرات والخطابات التي عُثِرَ عليها بين أوراقه في الفترة التي مات فيها أنه كان في مخابرة منذ شهر مع شخص يدعى وليم هنري روشدال أو يزعم أنه بهذا الاسم وأنه مكلف من قبل محل كرافورد في سان فرانسيسكو بالحصول من الحكومة الفرنسية على امتياز بإيجاد سكة حديدية في الكوشنشين وهو الامتياز الذي حصل عليه ذلك المحل إذ ذاك.

فلما أن تركنا والدي بعد أن تناول طعام الإفطار مع والدتي والسيد ترموند وكنت أنا معهم، كان ذلك لأنه على موعد مع هذا المدعو روشدال. وهذه النقطة لم يجد التحقيق الذي عمل بعد الكارثة أقل عناء في إظهارها.

وكان موعد المقابلة في النزل الملكي وهو بناء ضخم ذو واجهة طويلة كائنة بشارع "ريفولي" ليس على بعد كبير من وزارة البحرية وكان هناك عدة منازل أحرقتها نيران الجمعية الثورية.

كم من مرة في طفولتي طلبت إلى خادمتي أن تمر بي هناك حيث أرى وأنا مفعم القلب بعظيم التأثر ذلك الفناء الموشى بالخضرة وذلك السلم وبساطه الذي يغطيه، وتلك اللوحة الرخامية السوداء المرصعة بالحروف الذهبية ومدخل هذا النزل المشؤوم الذي كان ينحدر إليه ذلك الوالد التاعس بينما كانت والدتي تتحدث إلى السيد ترموند وأنا ألعب عن كُتُبٍ منهما.

كان والدي قد تركنا في الساعة الثانية عشرة إلا ربعًا وقد اضطر إلى الذهاب سائرًا على قدميه ربع ساعة لأن خادماً النزل بعد أن رأى الجثة عرفه وتذكر أنه كان قد سأله عن رقم الحجرة التي يشغلها "روشال" حوالي الساعة الثانية عشر والنصف.

هذا الرجل الغريب المدعو "روشال" كان قد وصل بالأمس وبعد شيء من التردد اختار مكانًا في الطابق الثاني مكونًا من حجرة للنوم وبهو تفصلهما عن الدهليز حجرة صغيرة.

ولمَّا أن نوى ذلك الغريب في ذلك المكان لم يخرج منه منذ لحظة دخوله فيه حتى لقد تناول فيه طعام العشاء يوم وصوله والإفطار في اليوم الثاني.

كذلك قد تذكر البواب أن هذا المدعو "روشال" كان قد نزل وحيدًا حوالي الساعة الثانية بعد الظهر ولكن هذا البواب وقد اعتاد أن يرى كثرة ذهاب اللاجئين إلى هذا النزل ومجيئهم لم تساوره فكرة ملاحظة إن كان زائر الساعة الثانية عشرة والنصف قد بارح المكان أو ما يزال ثاويًا فيه.

لكن "روشال" كان قد ترك مفتاح المحل أمرًا أنه إذا سأل عنه سائل فليرج في انتظاره فيه حتى يعود وخرج بعد ذلك بقدم ثابتة يحمل تحت ذراعه محفظته مذكيا سيجارًا ولم يعد يرى بعد ذلك.

انقضى النهار ولمّا أسدل الليل ستاره دخلت الخادمآت مخدع الغريب ليرتبٓن سريره ومررن بالبهو فلم يلاحظن فيه شيئاً غير عادي: فأمتعةٓة النزيل وهي صندوق كبير أٓق عليه القدم وحقيبهٓة صغيرة جديدة قد وجدٓا في مكانهما كما وجدت أدوات الزينة مرتبة فوق الخزانة.

وحوالي ظهر اليوم التالي عادت تلك الخادمآت فدخلن ولما أن لاحظن أن النزيل لم ينم في مكانه لم يكلفن أنفسهن إلا مشقة إعادة تغطية السرير دون أن يشغلن فكرهن بأمر البهو. وقد تكرر هذا الأمر مساءً.

ولم ينكشف المستور إلا بعد غد ذلك اليوم إذ دخلت إحدى تلك الخادمآت في المحل صباحاً ولمّا أن وجدت كذلك أن شيئاً لم يمس تولها الدهش فأمعنت في البحث قليلاً فاكتشفت تحت الأريكة جسمًا ممدودًا مغطى رأسه بمناشف.

فصرخت صرخة فزع داوية جاء على أثرها خدم آخرون راكضين وأخرجت جثة أبي_لأنه ويا للأسف كان هو!_ من المخبأ الذي وضعها القاتل فيه ولم تتعذر على المحققين معرفة أسباب الوفاة ولا كيفيتها:

فإن ثقبًا في ففا المجنبي عليه دل على ن المسكين قد قتل من الخلف عن كٓتب بغير شك حينما كان جالسًا إلى المائدة يفحص أوراقًا. أما عدم سماع الطلقة فراجع إلى إطلاقها عن كٓتب وإلى شدة

ضوضاء الشارع الذي كان يشرف عليه المكان فضلاً عن أن هذا المكان قصي منعزل خلف الدهليز.

على أن الاحتياطات التي اتخذها القاتل تدعو إلى الظن بأنه كان متسلحاً سلاح من النوع الذي عني بأن تكون طلقته ضعيفة الصوت. وقد وجد أن المقذوف قد مس الخلايا النخاعية وأن الوفاة كانت صاعقة. كما أن القاتل كان قد أعد المناشف جديدة دون أن تكون عليها أرقام، فلف بها في الحال وجه فريسته وعنقها ليتفادى بذلك ظهور كل أثر للدماء. وأنه نشف يديه بمنشفة مشابهة له واستعمل لذلك ماء من إناء سكبته بعد ذلك في قبنتي سفر وجدتا مخبأتين تحت الغطاء المسدل على المدفأة.

فهل كان الدافع لهذه الجناية السرقة أو مجرد التظاهر بها تضليلاً للمحققين؟

لم يوجد مع والدي لا ساعته ولا محفظة أوراقه ولا ورقة تثبت شخصيته، تلك الشخصية التي عرفت في الحال بالرغم من ذلك بحادث عرضي، فقد كان يحمل داخل جيب رداثة قطعة صغيرة من القماش وضعها له التريزي مع رقم الفاتورة وعنوان المحل الذي يستورد منه القماش فانتقل المحققون إلى حانوت ذلك التريزي بعد ظهر اليوم الذي تلا اكتشاف الجثة وبعد إجراء التحقيقات عرفت شخصية الجثة ونقلت إلى منزلنا. والقاتل؟ إن الدلائل الوحيدة التي

بدأت للعدالة قد فحصت في الحال فحصًا دقيقًا فقد فتح الصندوق الذي تركه المجهول "روشال" وهذا بالتحقيق لم يكن اسمه، فوجد مملوءًا بأشياء اشترت صدفة كما اشترى الصندوق نفسه من محل الأشياء القديمة الذي قد اهدى إليه وأدلى صاحبه ببيان يختلف جد الاختلاف عن ذلك الذي أدلى به بواب النزل الملكي لأنه وصف المزعوم "روشال" برجل أشقر حليق الذقن بينما وصفه البواب رجلاً شديد السمرة كُتَّ اللحية. وقد وجدت أيضًا العربة التي حمل عليها الصندوق حينما اشترى وشهد الحوذي بما يطابق تمام المطابقة أقوال بائع الأشياء القديمة. وبعد شراء الصندوق دخل القاتل حانوت أدوات السفر حيث اشترى منه حقيبة ثم حانوت الأقمشة البيضاء حيث اشترى المناشف وذهب بجميع ذلك إلى محطة "ليون" حيث سلم هذه الأشياء بها.

وقد وجدت العربة الأخرى، تلك التي أوصلته بعد ذلك بثلاثة أسابيع من المحطة إلى النزل الملكي وقد وجد البيان الذي أدلى به الحوذي الثاني مطابقًا لشهادة البواب.

فاستنتج مما تقدم أن القاتل خلال هذه الأسابيع الثلاثة كان متنكرًا لأن جميع الشهادات اتفقت على مشيته ونغمة صوته على حركاته وعرض أكتافه. وأيد هذا الافتراض حلاق يسمى "جوليان" مثل أمام المحققين من تلقاء نفسه وأدلى بهذه التفصيلات الغريبة

قائلًا: شخص واضح البشرة أشقر الشعر أمرد كبير الجسم عريض الأكتاف، وهو ما وصف القاتل المزعوم "روشدال" به تاجر الأواني المزخرفة، قد حضر إلى حانوته في الشهر الماضي وطلب إليه شعرًا مستعارًا ولحية مرتبة بإتقان لكيلا تستطاع معرفته وقال إن السبب في ذلك أنه سيحضر ليلة راقصة يكون جميع من فيها متنكرين وقد أخذ هذا المجهول فعلاً شعرًا ولحية أسودين كما حصل على جميع العناصر الضرورية ليكون متنكرًا في زي واحد من أبناء أمريكا الجنوبية وكذلك اشترى صباغًا ليسود به جفنيه وخليطًا من طينة "سبين" والعنبر ليلوّن به بشرته. وقد نجح نجاحًا كبيرًا في تنكره باستعماله هذه الأدوات حتى استطاع أن يعود عنه جوليان دون أن يعرفه هذا الأخير. فدهش الحلاق غاية الدهش من هذا الاتقان في التنكر ومن إقامة حفلة راقصة متنكرة في الصيف... حتى اتجه فكره للحادثة عند قراءته للفصول التي نشرتها الصحف عن "حادثة النزول الملكي الخفية" وهو ما سميت به هذه الحادثة في الحال.

لكن هذا التصريح الذي أدلى به الحلاق زاد في صعوبة مهمة القضاة بما أظهر من الاحتياطات العديدة التي اتخذها المجهول. وقد اكتشف عند والدي خطابان موقع عليهما بإمضاء "روشدال" مكتوب بأعلاهما أنهما صادران من لندن ولكنهما بغير مظروفيهما وكلاهما مكتوبان بأحرف مائلة منكسة قرر الخبراء أنها مصطنعة.

ولا بد أن والدي كان قد كتب عنهما مذكرة إيضاحية وأودعها في محفظته بصفته محامياً، تلك المحفظة التي أخذها القاتل بعد أن اقترب جريمته.

كان محل كرافورد موجوداً حقيقة في سان فرانسيسكو ولكنه لم يبحث قط في مشروع عمل سكة حديدية في الكوشنشين.

فوجد القضاة أنفسهم أمام تلك المسائل الجنائية الغامضة التي تُعجز المخيلة، إذ أنه من المحتمل ألا يكون القاتل بما بذل من المهارة وتعدد ما اتخذ من الاحتياطات الماكرة يريد السرقة فإن السارق لا يوقع رجل الأعمال في شرك وهو متخفٌ بمثل هذا الإتيان ليستلبه ساعة ذهبية وبضعة آلاف من الفرنكات.

فهل كان هذا بدافع الانتقام؟

قد بحثوا بحثاً دقيقاً في حياة أبي الخاصة فاكتشفوا أنه كان ينفق أحياناً إلى شيء من تلك الأهواء الضعيفة الشائعة لدى الشبان الذين هم من زمنه ومرتبته. فقد كان فيما مضى على صلة بامرأة متزوجة ولكن هذه الصلة قد انقطعت من زمن بعيد فلو أن شكاً ساور الزوج إذ ذاك من جهته فلماذا انتظر حتى الآن لينتقم بعد أن انقطع العهد بهذه الصلة من مدة طويلة؟ ومع هذا فإن ذلك الزوج وكان في ذلك الحين يناهز الخامسة والخمسين كان قائماً بأعمال ومشاريع صناعية ولم يكن على خلق

يدفعه إلى الإجرام. كذلك كان وصفه كباريسي ضعيف ضئيل الجسم لا يتفق في شيء مع ذلك المتنكر تحت اسم "روشداال" المزيف.

فهل كان من المقبول أن زوجه قد تكون أرادت الانتقام، هي نفسها لهجر قديم بأداة خاصة؟

إني لكثرة مباحثي الأولى التي أملتها عليّ حمى الهذيان قد وصلت بهواجسي وتخيلائي إلى التفكير في هذا فأصررت على التعرف بها حتى رأيتها. فألفيتها بيضاء الشعر ولها ابن هو أكبر مني سنًا، ربما كان أخي، من يدري؟

يا له من شعور أحسست به في نفسي حين فكرت في أن أبي كان قد أحب هذه المرأة التي كانت تنظر إليّ بعينين لا تشعر نظراتهما بأنها أدركت أني كنت أبحث فيهما عن دليل على اضطرابها.

حقًا، فإني لم أقرأ في هاتين العينين الزرقاوين الجميلتين اللتين بقيتا من آثار شباب ذلك المحيا المسن إلا حنانًا عميقًا، رقة حزينة وشفقة يخالطها كثير من جميل الذكريات فخلجت من وساوسي بل عددها خيانة. فهل كان يخامر العدالة وهي لا يؤثر عليها ما أثار عليّ من الحياء، ذلك الشك كما خامرني أو ذلك الشك مضافة إليه شكوك أخرى؟

إذا كانت قد خامرها شيء من ذلك فلا بد أن مخيلة رجالها قد اصطدمت بالنقطة الغامضة وهي البحث في حقيقة "روشداال" الذي لا يمكن تكذيب

كينونته ولا وجوده في النزول الملكي منذ الساعة السابعة من الليلة السابقة على الحادثة حتى الساعة الثانية من بعد ظهر اليوم التالي، ذلك الأثيم الذي اختفى اختفاء كأنما كان شبحًا دون أن يترك وراءه أثرًا يرشد إليه.

فلا نزاع في أن هذا الرجل قد حضر فكلمه أناس وعرف أين أمضى الليلة وصبيحة النهار قبل اقترافه الجريمة ثم اجترم جريمته... ولم يُعلم شيء بعد ذلك! وقد شغفت باريس بتتبع أدوار هذه القضية وبعد ذلك، أي لما أن أردت أن أبحث عن مجموعة الجرائد التي أدرجت فيها وجدت أن أخبارها ظلت تزداع على صفحات تلك الصحف خلال أكثر من ستة أسابيع في كل صباح ثم اختفى عنوان هذا اللغز المشنوم من أعمدتها كما انمحت ذكراه من ذاكرة القراء بل تلاشت من رءوس رجال الشرطة والجواسيس العناية باستتباع المباحث. ثم سارت الحياة طاوية حطام هذه الكارثة في أواجهها التي تبتلع كل شيء!

نعم طوي سجل هذه الحادثة ولكن هل نسيها أنا وأنا ابن القتيل؟

أتى لي أن أنسى رواية خادمتي العجوز التي روعت جو حجرتي الصغيرة

بحديث هذه الكارثة المفجعة؟

أتى لي أن أستطيع ألا أمثل كل يوم، بل ما دمت قيد الحياة، وجه القتيل

الشاحب وعينيه المفتوحتين وفمه المقفل بذلك اللثام وتلك العصابة التي كانت

حول جبينه؟

وأني لي ألا أقول: "سأنتقم لك أيها المبيت المسكين، أيها المبيت الناعس...؟".
لمّا أن قرأت "هملت" تأليف "شكسبير" لأول مرة بذلك الشغف الشديد
الذي توحى به المشابهة بين الحالة العقلية التي قد درست في كتاب قوامه الفن
وشيء واقعي من أزمات حياتنا الخاصة، كنت إذ ذاك أستبشع ذلك الشاب
وأخافه.

فهل لو أتاني شبح أبي يقص عليّ، عليّ أنا، بشفتيه اللتين فارقهما ريح الحياة
حديث ذلك الكمين الذي نصب له واغتيل فيه، أكنت أتردد لحظة في التشبه
بهملت؟

"كلا!" لكنني عرفت بعد ذلك كل شيء فترددت كما تردد "هملت" في القيام
بالعمل الهائل. صه! صه! ولنعد إلى تسطير الحوادث.

(4)

...الحوادث التي أعقبت ذلك؟ إني لأستعرضها أمام مخيلتي بمشقة، تلك الحوادث التي وقعت خلال عامين بين تلك الكارثة المفجعة وما استولى عليّ بعدها من الكآبة والحزن.

ففي عام 1864 مات أبي وفي عام 1866 تزوجت والدتي بالسيد "جاك ترموند"، وبين هذين التاريخين حقبة لم تنمح من ذاكرتي لأنها الوحيدة التي فيها عانيت والدتي بأمرى عناية متواصلة. فقبل التاريخ المشؤوم كان والدي هو المهتم بشؤوني وبعد السنتين المذكورتين لم يعد أحد يهتم بي، فلقد تركنا المنزل الكائن بشارع "ترونشيت" لأنه كان يذكرنا كل لحظة بالكارثة المشؤومة وأقمنا بنزل صغير بشارع "لا تور موبور" كان في ملكية رجل من هواة النقش. ينتهي هذا النزل بحديقة صغيرة تبدو لالتصاقها بالحدائق النضرة خلف سورها كأنها هي متنزه كبير. ويحتوي هذا النزل على بهو كان "ورشة" للمالك السابق فجعلت منه والدتي حبرتها الخاصة. كان في فطرة والدتي شيء من تلك النزوات الخيالية الساذجة البريئة يدفعها إلى الإفراط في إظهار جميع المشاعر التي تخالج وجدانها.

وبينما كانت تهتم بدلال الطفولة بالتعبير عما يملأ جوانحها من التأثر، كانت في الوقت نفسه تترك هذا التأثر يتبدد من قلبها، فإنها في العزلة الاختيارية التي أرادت بها حبس نفسها بعد مصيبتها بحيث لا تقابل إلا عدداً صغيراً من الأصدقاء من بينهم السيد ترموند، بدأت بأسرع ما يمكن في العناية بالتجمل وتنسيق كل شيء حولها بذلك الذوق الرقيق التي فطرت عليه. ولا غرو فقد كانت على جمال غريب، نحيلة شاحبة اللون طويلة الشعر حتى أنه كما يصل حقيقة إلى الأرض عندما كانت تمشطه أمامي كل صباح. فهل هي مدينة بهذا الجمال الأصيل وبوجهها البهي وبعينيها المحبوبتين وبقامتها النحيلة المعتدلة إلى ذلك الدم الإغريقي الذي كان يسري في شرايينها؟

فجدها من جهة الأم هو السيد "فوترنتو" الذي وفد إلى مرسيليا من المشرق عند ضم الجزائر اليونانية إلى فرنسا وطالما كنت أفكر في التباين الغريب بين هذا الجمال النادر وبين ما كان عليه أبي وما أنا عليه مثله من القوة وعرض الأكتاف.

من ذا الذي يستطيع أن يقول إن هذا التباين لم يكن سبباً لجميع صنوف سوء التفاهم الذي كان بين الاثنين، والدي ووالديتي؟

لكني كنت في تلك الحقبة في سن لا يستطيع عقلي الصغير فيها تحقيق هذا التباين، بل كنت مفتوناً بجمال هذا المخلوق الساحر، والدي الرشيق الوديع التي كانت تناديني وتخطبني بقولها: "ولدي"

عندما كانت تجلس إلى "البيانو" في ذلك الموئل الرشيق الذي أثنته بجميل الحرائر والأصواف ووضعت فيه الأزهار والرياحين فكنت أشاهدها متأملًا في جمالها الفاتن بعبادة لا حد لها.

فبسببها هي وإرضاءً لها كنت أجتهد بالرغم مما فطرت عليه من الطيش في أن أكون نظيفًا معنويًا بملابسي التي كانت موضع عنايتها. وكذلك كانت تنمحي رويدًا رويدًا صورة القتل المفزعة من هذا النزول الذي كان ثمن كل ما فيه من ثمين الأثاث وبيدع النظام من الثروة التي تركتها لنا مجهودات ذلك التاعس. ولا غرابة فالحياة الحديثة قلما تبقي على ذكريات الحوادث الدموية ووحشية القتل القاسية وبالتالي لا تبقي على الشغف بالانتقام حتى أن المشاهد المفجعة التي حضرتها فشاهدتها عائلة لتبدو بأسرع ما يمكن لأشخاص هذه العائلة كأما هي نوع من حلم أو كابوس.

ومع أن هذا لا يحتمل الشك بأي وجه فإنه موضع التكذيب!
نعم فإن الحياة قد عادت إلى مجراها الطبيعي تقريبًا عندما أبلغت بزواج والدي، وإني لأذكر هذه المرة بكل دقة ليس فقط الحقبة التي وقع فيها الزواج بل يوم الزواج وساعته، كنت وقت المسامحة عند عمتي الوحيدة، شقيقة والدي، وهي آنسة عجوز تناهز الثامنة والأربعين كانت تقطن مدينة "كومبييني" "Compiègne" في منزل قصي ومعها ثلاثة من الخدم بينهم مربيتي "جوليا" التي لم يكن خلقها يتفق مع خلق والدي.

كانت عمتي "لويزه" ضئيلة الجسم على وجهها مظهر الفلاحات وكانت في حياة أبي قليلة الرغبة في زيارة باريس فإذا ما زارتها لا تمكث بها أزيد من ثمانٍ وأربعين ساعة. وكانت ترتدي غالباً ثوباً من الحرير الأسود مصنوعاً بالمنزل على ياقته وطرفي كميهِ شريط رفيع أبيض وتحمل حول عنقها سلسلة عتيقة من الذهب عظيمة الطول تمر تحت صدرها حتى تصل إلى منطقتها وتظهر منها وفي نهايتها ساعاتها بما هو مدلى فيها من التحف القديمة. وعندما لا تكون على رأسها قبعتها ذات الأشرطة السوداء بلون رداؤها كانت تظهر شعورها وقد خطها المشيب ما حوله من العصابات كما كانت تلك الشعور ربما تبدو كإطار محيط بجبين وعينين تقرأ فيهما البشاشة والطمأنينة حتى أن المسكينة لتعجب كل من رآها بالرغم من كبر أنفها بعض الشيء وعرض شفيتها وطول ذقنها وهي التي ربت والدي في هذا المنزل وفي هذه المدينة الصغيرة. وكانت منحه ثروتها التي اقتطعتها من احتياجات حياتها البسيطة ولما أراد الاقتران بالآنسة "ده بلان" وهذا هو اسم والدي فتاةً، مهرته لتسهل له سبيل الدخول في العائلة التي أراد مصاهرتها.

كم حزنت وأملت هذه المسكينة منذ عامين! فإن صورتها التي كنت محتفظاً بها في مجموعتي وأنا تلميذ تتباين كل التباين مع ما آلت إليه حالتها فقد طغى المشيب على شعرها وبدت تجاعيد وجهها عميقة وذبلت جفونها! ومع كل هذا فهي لم تستسلم للإباحة بحزنها

العميق ولو تفرّيجاً لقلبها المفعم. فالمقابلة في نظري _وأنا طفل نقاد_ بين خلق والدتي وخلق عمتي كانت تدلني دلالة جلية على مبلغ الفرق بين ما كانت عليه كل واحدة منهما من مبلغ الحزن، لذلك كان يصعب عليّ إذ ذاك أن أدرك سبب احتياط الأندسة العجوز التي لم أكن أستطيع الشك في جَمِّ حنانها.

أما اليوم فإنني أصبحت غير عادل نحو النوع الآخر من الطبيعة. فإن والدتي كانت ذات نفس رحيمة شفيقة حتى أنها لم تستطع أن تكاشفني بحياتها الجديدة فأخذت عمتي على عاتقها عبء هذه المهمة.

لم ترد عمتي أن تحضر حفلة الزواج وقد علمت فيما بعد أن السيد ترموند كان قد فضل ألا أحضرها أنا قط ولم يكن غرضه بلا شك إلا تجنب تأثر تلك التي ستصبح زوجته.

يا لله! كم كانت الدموع بادية في محاجر عيني عمتي الشقراوين مع ما جاهدت في تملك عواطفها عندما قادتني إلى داخل الحديقة حيث كان أبي مثلي يلعب وهو طفل. كانت ألوان شهر سبتمبر الذهبية قد بدأت تنبسط على أوراق الأشجار وكانت العريشة التي جلسنا تحتها يكسوها كرم كانت عناقيده وقد نضجت تجلب سرباً من الزنابير فوضعت عمتي يدي بين يديها، وقالت:

_ أي أندريه، لدي خبر هام لأبلغك به.

فنظرت إليها قلقًا. لأن الهزة العنيفة التي أصابتنى على أثر الحادث المشؤوم خلفت من بين آثارها في نفسي نوعًا من سرعة الاضطراب العصبي حتى أصبح قلبي يشند خفقانه عند أقل دهش لدرجة تؤلمني. فاستتبعته بسداجة تلك الأنسة العجوز التي لم يرغب عنها كنه ما تولاني من اضطراب قائلة:

– الخبر خاص بوالدتك... إنها ستتزوج.

من المدهش أن هذه الجملة لم تسبب لي في الحال الشعور الذي كانت نظرة الاضطراب التي بدت مني تؤذن بتوقعه! لأني ظننت من نغمة صوت عمتي بادئ الأمر أنها ستخبرني بمرض والدتي أو وفاتها فتولاني الذعر، لكنني لما أن سمعت منه الخبر سألتها في شيء من الهدوء:

وومن ستتزوج؟ فسألتنى عمتي: ألا تحزر؟ فأجبت فجأة: بالسيد "ترموند"! وإني حتى الآن لا أدرك سر خروج هذا الاسم من بين شفتي بتلك السرعة الفجائية.

مما ريب فيه أن السيد "ترموند" كان كثير الزيارة لنا منذ تزلزلت والدتي. ولكن ألم يكن يزورنا كثيرًا بل أكثر قبل أن تصبح والدتي أرملة؟ ألم يقيم بمختلف أعمالنا وأمورنا بإخلاص كنت أدرك منذ ذلك الحين مبلغ دورته؟ فلماذا كان إذن خبر زواجه بوالدتي قد بدا لي فجأة أشد بعثًا للكآبة مما لو كانت تزوجت بسواه؟

يبدو لي أن هذا الشعور كان يجب أن يكون غير ما حلّ بنفسني، فقد كنت أعرف هذا الرجل من زمن طويل، هذا الرجل الذي دللني كثيراً وكان لا يزال يدللني، فهو الذي كان ينفحني بأبدع اللعب ومنه أتتني أجمل كتبي، فقد أهداني وأنا في السابعة من عمري حصاناً نادر المثل يسير بآلة ميكانيكية. أما سررتُ والذي المسكين حينما كنت أتحدث إليه عن هذا الحصان بأنه من أكرم الجياد أصلاً؟ ثم أهداني ذلك الرجل كتاب "الدون كيشوت" تأليف "جوستاف دوري" في تلك السنة عينها وكان بغير انقطاع يهديني هدايا أخرى جديدة. ومع ذلك فلم أعد أشعر في حضرته بما كان له في قلبي من الحب فيما مضى. فمن أي عهد بدأ عندي هذا النفور من جهته؟

ما كنت لأشعر بذلك لولا أنني كثيراً ما كنت أجد هذا الرجل حائلاً بيني وبين والدتي. ولذلك أعترف أنني كنت أشعر من جهته بغيرة هي غيرة الأطفال الطبيعية، حتى أنني كنت بدافع من هذه الغيرة أسرف في مداعبة والدتي عندما يكون في حجرتها لأريه بأجلى بيان أنها والدتي وأنها ليست له في شيء. فهل عرف هذا الشعور في نفسي؟ من يدري؟ وهل كان يشاطرنني إياه؟

مما لا مرأى فيه أنني كنت أقرأ في نظراته، بالرغم من صوته الملائف وتأدبه معي، أنه يضم لي من الكراهية بقدر ما أضمر له.

فالعريزة في تلك السن _ سن الطفولة التي كنت فيها _ قلما تخدع في مشاعرها. وهذا هو ما أفسر به ذلك التقزز القليل الذي تولاني عندما نطقت اسمه، فإني وقد تولاني هذا التقزز ما كدت أصرخ ناطقًا باسمه عندما طلبت إليَّ عمتي أن أضمن عمَّن ستتزوج به والدي حتى رأيتهما ترتعد قائلة:

_ نعم، صدقت. فالذي ستتزوجه هو السيد "ترموند"، ثم سألتني: لكن لماذا

اتجه فكرك نحوه في الحال؟

لكنها ما كادت توجه إليَّ هذا السؤال وهي تحملق في وجهي حتى كأنها

عراها خجل من توجيه سؤال كهذا إلى طفل مثلي فخفضت من صوتها قائلة:

_ ما مبلغ علمك في هذا؟

فما كدت أسمع هذا السؤال وبغير دافع آخر سوى ألم عصبي كنت فريسته

مذ وفاة أبي حتى انفجرت نحيبًا وبكاءً، أزمة من تلك الأزمات التي كانت تصيبي

أحيانًا فتجعلني في هذه الحال وأنا وحيد منعزل في حجرتي المقفلة فريسة لقلق

ما كنت أستطيع التغلب عليه كأنها أنا على شفير خطر.

حقًا كنت كمن يشعر بخطر داهم، كنت أتوقع أفضع الحوادث، فأرى مثلًا

كأن والدي لا بد أن ستقتل كما قتل أبي وأن نصيبي سيكون نصيبهما عاجلاً.

لذلك كنت أبحث في أنحاء الحجرة وأنقب تحت ما بها من الأثاث وأرهف أذني لكل حركة. وعندما كنت أتنزه وبصحبتي أحد الخدم كانت تخالجنني الريبة فيه فأسائل نفسي إذا لم يكن هذا الرجل شريكًا لذلك القاتل المجهول في تلك الجريمة الخفية وإذا لم يكن قد عهد إليه باستدراجي نحوه أو على الأقل بإضاعتي.

وهكذا كنت خاضعًا لمخيلتي المضطربة الثائرة فأتخيل أنني قد وصلت إلى "كومبيني" ناجيًا من تلك المؤامرة. ولكن هل عندي من الدراهم ما يكفي؟ كنت أحدث نفسي أنني قد أستطيع بيع ساعتني إلى ساعاتي كنت أراه وأنا ذاهب إلى المدرسة، يشتغل ونظارته فوق عينه اليمنى خلف زجاج حانوت صغير.

ما أفضح ما كان ينتابني من الحزن والقلق بسبب مقدرتي على توقع السوء، تلك المقدرة التي سممت ساعات طفولتي الريبة!

حقًا، إن هذه المقدرة لهي التي كثيرًا ما جعلتني أنفجر نحيبًا وبكاء تحت عريشة حديقة الخريف بينما كانت عمتي تسألني الإفضاء إليها بما كان يشعر به قلبي ضد السيد "جاك ترموند" فأفضيت إليها وأنا مسند رأسي إلى كتفها بإحدى شكاياتي المؤلمة منه، وهي شكوى حملت في طيها بقية الشكاوى الأخرى.

وحدث بعد ذلك بشهرين أنني عدت ذات يوم حوالي الساعة الخامسة من المدرسة كامل السرور على غير عادتي لأني قرأت أمام الأستاذ، كما

يحصل في آخر السنة الدراسية، قطعاً منتخبة مسلية فنلت منه أجمل التهائن على ما أظهرت من الإجادة في المواضيع الإنشائية القيمة التي تمنح عليها الجوائز. ما أجمله خبراً أحمله إلى منزلي فأنال عليه قبلة أجزل حناناً! فما كدت أصل إلى المنزل مندفعاً حتى وضعتُ كتيبي في الحال واتجهت رافعاً يدي برزانة نحو البهو الصغير حيث تجلس والدتي فدخلت بحماسة بالغة فصرختُ صرخة خفيفة عندما كنت أذفد بنفسي نحوها لأقبلها وكانت واقفة أمام المدفأة، شديدة الشحوب وبجانها السيد "ترموند" الذي كان واقفاً أيضاً فقبض على ذراعي لبيعدني، فقالت والدتي:

— آه! كم أخفتني! وقال السيد "ترموند" من جهته:

— أهذه طريقة دخول البهو؟

وكان صوته وحشياً كحركته، فإنه عندما أمسك ذراعي قبض عليه بوحشية حتى أني وجدت في الليل رضوضاً في المكان الذي غرس فيه أصابعه. على أنه ليست تلك الجملة السفيفية ولا ألم أصابعه التي قبضت على ذراعي، ليس هذا ولا ذاك هما اللذان تركاني ذاهلاً منقبض القلب. كلا، ليس هذا ولا ذاك، إنما الذي أذهلني وأحل الانقباض والأسى بنفسي هو قول والدتي إليه:

— لا تكثر من تأنيبه فهو ما يزال طفلاً وستهدب...

وبينما كانت والدتي تداعب شعري بأصابعها فاجأت في نغمة صوتها ونظرها وتبسمها الخفيف خجلاً غريباً يكاد يكون توسلاً

لذلك الرجل الذي كان مقطب الجبين وهو يشد بحالة عصبية شواربه كأن الضجر من وجودي قد ملك عليه مشاعره.

فبأي حق سؤل ذلك الغريب لنفسه أن يكلمني كسيد أمر وهو في منزلنا؟ لماذا رفع يده عليّ مهما توخى في ذلك من التخفيف؟ نعم، بأي حق؟ أنا ابنه أو تلميذه؟ ولماذا لم تقف والدي ضده مدافعة عني؟ إذ أتى حتى لو كنت مخطئًا فليس ذلك إلا نحوها هي.

لقد عراني في تلك اللحظة غضب لا حد له حتى لقد شعرت برغبة الوحش الكاسر في الانقضاض على السيد "ترموند" وتمزيق وجهه بأظفاري وأن أعضه. لكنني نظرت إليه وإلى والدي بمنتهى السخط وانصرفت من الحجرة دون أن أفوه بكلمة. كان الغضب من خلقي وهو عيب مؤلم مبعثه ما فطرت عليه من سرعة التأثر بحالة تكاد تكون مرضية. كنت مغاليًا في تأثري أحنق لأتفه الأسباب، وكان رضائي وتسامحي بعد ذلك ضربًا من التعذيب لنفسي. نعم فإن شعوري بأن أهدت كان من القوة في نفسي بحيث لا أستطيع التغلب عليه حتى إن أبي كان فيما مضى يعاني كثيرًا في الانتصار على هذا الإفراط في هذه الشعاعية المهانة، ذلك الإفراط الذي كنت أقاوم فيه جميع عوامل اللين بغضب مكظوم كان يفرج عني وفي الوقت نفسه يعذبني. كنت أعرف في نفسي هذا السقم الأدي ولذلك كنت أخجل منه بجميع ما أوتيت من طهارة قلب طفل

شريف. كذلك كنت أعد منتهى التحقير لي أن يقول السيد "ترموند" إلى والدتي لحظة خروجي من الحجرة:

— أمامك ثمانية أيام حتى ينحل عنه ما هو فيه من الغضب. حقاً إنه لخلق لا يحتمل.

كان لكلمته الأخيرة في نفسي ميزة إذ أخذت من ذلك الحين في ترويض نفسي على ألا أغضب وهي خلة من خلال شرف النفس قصدت بها إلى تكذيب ذلك الرجل. لكن هذا الحادث البسيط كان قد وصل بجرحه شعوري إلى أعماق قلبي حتى أنه بقي نائراً في مخيلتي فأفضيت به إلى عمتي.

وأسفاه! لم يكذبني في أمر هذا الرجل شعوري المضاعف، ذلك الشعور الصادر عن قلب طفل شديد التأثر. فإن هذا الحادث الصباني المؤلم كان نواة قام عليها تاريخ شويبتي جميعها، ورمز هذا التاريخ كراحتي التي لا تقهر للرجل الذي سيحل محل أبي وتحيز والدتي إليه تحيزاً أعمى مع أنها كان يجب أن تدافع عني أولاً وعلى الدوام. كنت أقول باكياً لعمتي:

— إنه يمقتني، فبم أسأته؟ فكانت تجيبني قائلة:

— هديء نفسك! إنك لصورة من أبيك المسكين في مغالاتك بالاهتمام بأقل ما ينتابك من الآلام... ثم اجتهدي في أن تكون معه لطيفاً إكراماً لوالدتك ولا تخضع لعوامل الحدة هذه التي أخشى مغبتها... ثم زادت على ذلك:

– لا تجعل من نفسك لهذا الرجل عدوًّا.

كان من السهل المقبول أن تكلمني بهذه الصفة، لكنني مع ذلك رأيت أن إلحافها منذ تلك اللحظة غريب. وكذلك لم أعلم لماذا بدا لي أنها قد تولاهما الدهش من إجابتي عندما سألتني: "ما مبلغ علمك؟" فإنها كانت تحاول تهدئتي ولكنها كانت في الوقت نفسه يزداد فزعها ازدياد فزعي من ذلك الدخيل المغتصب. نعم فقد شعرت بذلك من رعدة خفيفة بدت في صوتها حينما كانت تتكلم عن ذلك الرجل. وأخيرًا قالت لي:

– يجب أن تكتب الليلة إليهما.

"أن أكتب إليهما!" إن هذه الصيغة البسيطة أمتني شديد الألم، إذ أدركت أنهما قد ارتبطا. فقلت في نفسي: "أبدًا! أبدًا! لن أستطيع منذ الآن أن أفكر في أحدهما دون أن أفكر في الآخر"، على أنني سألت عمتي: "وأنت؟ فأجابتي: "سبق أن كتبت"، فسألتهما:

– ومتى يكون الزواج؟

فأجابتنني بصوت منخفض سمعته بمشقة:

– قد تم بالأمس! فعدت فسألتهما بعد سكوت: "وأين؟" فأجابتنني: "في الريف

عند بعض من أصدقاء الطرفين"، ثم أردفت ذلك سريعًا بقولها:

– قد فضلا ألا تكون موجودًا تفاديًا من مضايقتك وأنت في فسحتك المدرسية.
وقد سافرا ليغيبا ثلاثة أسابيع وسيحضران ليرياك في باريس قبل سفرهما إلى
إيطاليا... وهما أُنِي كما تعلم لست مستعدة الاستعداد الكافي للسفر فسأستبقيك هنا
معي حتى ذلك الحين... هيا، هيا اكتب إليهما، كن لطيفًا، كن لطيفًا.
كانت لديّ أسئلة عديدة لأوجهها إليها ودموع غزيرة تجيش في صدري أود
أن أسكبها، لكنني مع ذلك كتمت عواطفي ولم ينقض ربع ساعة حتى جلست إلى
المكتب في صالون هذه العمّة الشفيقة.

كم كنت شغوفًا بتلك الحجرّة من الطابق الأرضي التي هي ملأى بالذكريات!
كنت أستطيع أن أرى بالقرب من المكتب صورًا معلقة على الحائط لجميع من
توفوا وكانوا موضع حب هذه الفتاة القديسة. كم حرّك هذا الركن المأتمّي بلطف
جميع تخيلاتني!

فلقد كانت هناك صورة مصغرة ملونة لجدي، أم جدي وهي لباس عصر
الحكومة الاستبدادية، قصيرة القامة مرتبة الشعر. ثم هناك أيضًا صورة مصغرة
لولدها الذي هو عمي الأكبر، ما أجمل وأحب وجهه الذي تقرأ فيه العظمة وكان
من المعجبين بالملك لويس فيليب وبالمؤرخ الشهير "تيرس"!

وهناك جدي، والد أبي بمحياه القاسي تبدو عليه حداثة النعمة. ثم
صورة أبي في جميع أدوار حياته. ولأن كثيرًا من هذه الصور التي

أتي عليها القدم كانت مأخوذة بآلة التصوير الشمسي، كانت ألوانها وقد اتمحى نصفها تجعل من العسير تبين ملامحها وكانت عن بعد قليل من تلك الصور مكتبة وجدت بين ما تحوي من المجلدات كتب المكافآت التي منحها والدي أيام دراسته محفوظة بعناية عمتي التقية.

يا إلهي! كم كنت أشعر بالأمن والحماية حول تلك الأستار المصنوعة من القטיפه الخضراء والتي تتخللها أشرطة من التطريز، أجمل ما صنعت يد عمتي، تلك الأستار التي كانت مسدلة على الأبواب مثنية أذيالها على أعقابها! كم كنت أنظر راضياً إلى ذلك البساط ذي الألوان الباهتة والذي أردت وأنا طفل أن أقتطف منه أزهاره! إن هذه لإحدى حكايات طفولتي الأولى، إحدى تلك الأفاصيص التي كررت عن طفل كان موضع التعزيز وهي تشعره كم كانت أقل تفصيلات حياته محفوظة ومحبوذة... لكنني بعد ذلك أصبحت أسمع هذه الأفاصيص بغير اهتمام... نعم، كم كنت أعتبط برؤية كل ذلك وعلى الأخص عمتي وهي بين تلك الأثاثات الغريبة! كم كنت أحب وجهها الذي كنت أقرأ فيه الحنان المطلق وعينيها اللتين كانت نظراتهما تبعث بالطمأنينة إلى مكان خفي من نفسي! كنت أشعر بها أقرب إليّ بما كانت عليه وحدها من الشبه بأبي خصوصاً وقد كانت في ذلك اليوم أكثر شبهاً به حتى أتي قمت عدة مرات من مكاني لأقبلها وذلك

(5)

خالدان؟ نعم، كلاهما خالد ولا شيء سواهما... فإني كلما رجعت إلى صفحة الماضي اصطدمت بهما، قتل أبي وتزوجت أمي، ذكريان ناءتا بثقلهما زمناً طويلاً على قلبي.

لسواي من الأطفال نفوس متحركة، لينة العريكة، قابلة لجميع التأثيرات، ينطوون لظرفهم الحاضر فيذهبون ويحيئون متنقلين من غبطة إلى ألم ومن ألم إلى غبطة، ينسون في الليل ما يعانون في الصباح، يتغيرون إلى شكل جديد أمام كل مشهد من مشاهد حياتهم، أما أنا فلا!

تعود فتبدو تانك الذكريان بغير انقطاع في مخيلتي، تظهر لي هواجسي القائمة المستمرة في وجه المييت على وسادة سريره وعند قدميه والدي تبكي. أو أتخيل أتي أسمع عمتي تعلنني بالخبر الآخر فأعود فأمثل وجهها كئيباً حزيناً. ثم أعاني كما عانيت سابقاً شعوري بذينك الجرحين الدامين في نفسي والذين يعز التئامهما. واليوم أيضاً أحاول أن أهتدي إلى نفسي، إلى أندريه كورنيليس الحقيقي المنعزل فلا أقابل ذكرى إلا وأجدها تختفي أمام ذينك الحادثين، ولا حالة من حالات شبوبيتي إلا ويشرحانها بل ويحتويان عليها احتواء الغيوم

على الصاعقة فالحريق تخريب المنازل التي تصيبها تلك الصاعقة! حقًا، لا أكاد أحاول الاهتداء إلى نفسي حتى أجد أن تلك الصور العديدة التي تحاصر ذاكرتي مظهرة لي ما كنت عليه خلال سني طفولتي وشبوبيتي الطويلة ترجع كلها إلى ذينك اليومين المشؤمين اللذين لا أصطدم بغيرهما كلما رجعت إلى ذلك الماضي. فما مثل طفولتي وشبابي وما فيهما من الحوادث إلا كمثل مشهد أساسه الشؤم وأفق كئيب محزن لبلدة أشد منه حزنًا واكتئابًا!

أية صور؟ ساحة كبيرة فيها أشجار طال عليها العهد وأطفال يلعبون مرحين في أصيل يوم من أيام الخريف على وجوههم علائم الغبطة والنعيم، وأطفال آخرون لا يلعبون لكنهم ينظرون أو يمشون متنزهين أو يتكئون إلى أصول أشجار اصفرت وييست من كر السنين وعلى وجوههم سمات تدل على أن هذه المخلوقات الصغيرة موضع الترك والإهمال.

ذلك هو فناء مدرسة "فرساي" والطلبة الذين يلعبون هم طلبة المدرسة الأصليين وأما الآخرون الذين هم ساكنون في عزلتهم يسود عليهم الخجل فهم الطلبة الجدد وأنا أحد هؤلاء...

لم تمض أربعة أسابيع على تبليغ عمتي لي بزواج والدي حتى تغيرت حياتي تغيرًا كليًا، فعند رجوعي بعد انقضاء مدة العطلة المدرسية وجدت أنه قد تقرر إدخالني كتلميذ داخلي لأن والدي

وزوجها اعتزما السفر إلى إيطاليا في سياحة ستطول حتى الصيف. فهل يستصحباني؟ لم يدر أقل بحث في ذلك لحظة. أو يتركاني كما أنا تلميذًا خارجيًا في مدرسة بونابرت تحت ملاحظة عمتي التي قد تقيم في باريس لهذا الغرض؟ قد اقترحت والدي ذلك ولكن زوجها رفض هذا الاقتراح بحجج معقولة، لماذا يفرض على فتاة عجوز تضحية عوائدها؟ ولما تخشى شدة الحياة الداخلية في المدرسة، تلك الحياة التي تكوّن الأخلاق؟

بهذين الاعتراضين قاوم زوج والدي فكرتها وأضاف إلى تدليله قوله:

– ثم إنه في حاجة إلى هذه المدرسة. قال ذلك وهو ينظر إليّ بعينين باردتين كما كان ينظر إليّ في تلك اللحظة التي فيها أنشب أصابعه بقسوة بالغة في ذراعي حينما كنت داخلًا فرحًا بما نلت من الجوائز لأقص حديث نجاحي على والدي. تقرر بالاختصار أن أكون تلميذًا داخليًا ولكن ليس في مدرسة من مدارس باريس إذ قال زوج والدي لها إن الهواء فيها جد سيئ. فلماذا لا أكون مديّنًا له بأقل شكر على ما كان يظهر من العناية بصحتي؟ إني لا أتنبأ مع ذلك بما سبق فأدرکه ذلك الرجل الذي يريد أن يبعدي عن والدي إلى الأبد من أنه سيكون من السهل عند عودتهما أن أبقى متروكًا داخليًا في معهد خارج المدينة. فما الذي يدفعه إلى مثل هذه

التدبيرات؟ ألا يكفيه إظهار رغبته فتجيبه إليها السيدة "ترموند"؟ كم أتألم عندما أسمع صوته حين يخاطبها بغير تكلف إذ يقول لها: "أنت" كما كمان أبي يخاطبها! كم كنت أتألم فيرجع بي الألم إلى ذكرى والدي المسكين الذي كان يساعدني في تأدية واجباتي المدرسية عند دخولي إلى المنزل بعد أن بدأت الدراسة في معهد بونابرت. إنما هو زوج والدي الذي صبحني بالأمس بعد الظهر. وهو الذي قدمني إلى الرئيس وهو رجل طويل نحيل أصلع تبدو عليه البساطة. دأب هذا الرئيس خدي قائلاً لي:

— آه! إنه آت من معهد بونابرت... معهد المتأنقين... في مساء اليوم نفسه شغفت باستطلاع معنى هذه الكلمة في المعجم فوجدت أن تفسيرها: "شاب كثير العناية بهندامه وزينته...".

وفي الحق أني بما كنت مرتدياً من الملابس الغالية الأنيقة التي أوحى إلى والدي غرامها بإتقانها، كياقتي الكبيرة البيضاء وحذائي الإنجليزي وردائي المتقن التفصيل، كنت أختلف بكل ذلك جد الاختلاف عن أولئك الأشقياء الذين سأعيش بينهم، أولئك الأشقياء الذي ترى خويدهاتهم مشوهة وأغلب أزرار ملابسهم مقطعة، وجواربهم الزرقاء مسدلة على أحذيتهم المثناة الكعوب وتحت تلك الأردنية يتمون استهلاك الملابس الداخلية التي تخلفت عندهم من العام الماضي.

نظر إليّ كثير منهم منذ أول فسحة في هذا اليوم الأول لوجودي بينهم نظرة الشغف باستطلاع أمري حتى أن أحدهم سألني: ما مهنة أبيك؟ فلم أجبه. إن ما أخشاه بقلق عتيد هو أن يوجه إليّ هذا السؤال. كم وددت بالأمس حينما كان القطار يسير بنا في طريق فرساي، زوج والدي وأنا، حيث لم نتبادل كلمة، كم وددت أن أفضي إليه بخشيتي هذه وأن أتضرع إليه ألا يرمي بي في وسط أطفال آخرين غير زملائي فيعرضني إلى وحشيتهم الطائشة! كم وددت ذلك وأن أعده مقابله بأني إذا بقيت في المنزل أشتغل بأكثر عناية واجتهاداً مما كنت عليه فما مضى! لكنني حيال ما كان يسلط عليّ من نظراته الحادة كنت في حاجة إلى مجهودات عظمى حتى أستطيع، عندما أتقدم إليه بهذه الكلمات، بهذه المقاطع الصبائية، أن أكلمه بكلمة "يا والدي" التي لا أقولها مرة وأنا متجه الفكر إلى الآخر، إلى ذلك النائم ولا سبيل إلى إيقاظه، إلى ذلك الثاوي إلى الأبد في مقبرة "كوميني"! فلم أتوسل إلى السيد "ترموند" مؤثراً الحبس في تلك المدرسة دون أن أفوه بكلمة أسف لأني أفضل أن أكون ضالاً بين المواطنين الأجنبية عن مولدي على أن أتوسل إليه برجاء أو أتقدم إليه بشكوى.

لا بد لوالدي من المهجاء غداً وتحديثي إليها وهو قريب سيخفف عني ألم الفراق على أن تكون وحيدة لا بصحبة زوجها. لكنها قد أنت وكان معها! وفي بهو الاستقبال الذي تزينه صور فظيعة لأطفال نالوا جوائز الشرف في الامتحانات العامة جلست أُمي!

كان رفاقي يتحدثون كذلك إلى أمهاتهم. ولكن أية تلك الأمهات كانت أجدر بالحب من والدي؟ كانت والدي هما هي عليه من الرشاقة وجمال القامة ولطافة العنق طويلة بعض الشيء نجلاء العينين ترتسم على محياها ابتسامات عذبة، قد بدت لي مرة أخرى رائعة الجمال. فلم أستطع أن أكشفها بشيء لأن زوجها "جك" كما كانت تتعسف في تسميته _ وإن كان هذا التصغير في الاسم يدل في الإنجليزية على اسم آخر_ لأن هذا الرجل كان في هذه المرة أيضًا حائلًا بيننا.

أفُّ لهذه الكراهية التي تشل قوة المشاعر القلبية! هل عرفتُ تمام المعرفة إذ ذاك وبعده تلك الكراهية؟ أظنني لمحت من والدي أنها كانت دهشة بل تقريبًا مكتئبة لبرودي في تلك الدقيقة في توديعهما. فهلا كان عليها أن تدرك أنني لن أستطيع أن أظهر إليها ما يكنه قلبي نحوها من الحب والحنان أمام ذلك الرجل؟ ومع كلِّ فقد سافرت ولا زالت في نزهتها وسياحتها أما أنا فبقيت وحيدًا.

هناك صور أخرى تنتصب أمامي فتريني حجرة المذاكرة أثناء الليل في ذلك الشتاء الأول لحبسي فالمدفأة المصنوعة من الزهر تذكو نيرانها في وسط تلك الغرفة المضاءة بالغاز وعليها غطاء مبلل بالماء خشية أن تؤلم رؤوسنا حرارتها. وبطول الحوائط أدرجنا وخلف كل منا خزانة لكتبه وأوراقه. وهناك السكون العميق الذي يخيم على القاعة الكبرى فلا نسمع خلاله إلا حفيف الأوراق عند

تقليبها وصرير الأقلام وسعالًا مكتومًا. ويرى الأستاذ "رودلف سوربل" جالسًا في صدر القاعة على منبر عالٍ وهو شاعر. فقد وجدنا في اليوم السابق ورقة سقطت من جيبه مملوءة بالشطب والتصحيح أمكننا أن نقرأ فيها بمشقة أبياتًا من الشعر لذيذة. سررنا بها غاية السرور نحن الطلبة المتوحشين الصغار حتى أننا كنا نترنم بها بغير انقطاع في قاعة النوم وفي فناء المدرسة وأثناء الفسحة بين ساعات الدروس. ولم نكن نستطيع عصيان هذا الأستاذ الذي كان لأقل هفوة يحرم من هفا من التمتع بالفسحة بين الدروس فهو أشبه لقسوته بالكلب الحارس وكان معلقًا فوق رأسه مصباح يظهر شعره الذي وخطه الشيب وجبينه الأحمر ومعطفه الذي كان أزرق فأصبح الآن مائلًا إلى البياض لكر الزمن وكثرة الاستعمال. إنه منكب على صياغة الشعر لأننا نراه يكتب ويمحو وفي خلال ذلك يرفع هذا الجبين الذي تنتفخ شرايينه فتخترق القاعة وصفوف الأراج عيناه الكبيرتان الزرقاوان اللتان تدلان على طيبة حقيقية عندما لا نسخطه بمعاكساتنا.

كنت أنا أيضًا أنظر إلى هؤلاء الزملاء في مهد هذه العبودية حتى بدأت أتعرفهم بعد أن رسخت في ذهني ملامح وجوههم، فمنهم "روكان" وهو ضئيل الجسم ذو أنف أحمر بالغ في الكبر في وجه طويل شاحب، و"باريزل" وهو ضخيم الجسم بارز الفك أضر العينين في وجهه بقع من النمش وقد أكل جعلًا في مراهنه أثناء الصيف الماضي، و"جيرفيس" وهو أشقر مجعد الشعر من عاداته أن يكتب

وصيته كل أسبوع. وقد أرسل لي آخر مؤلفاته الصبائية فقرأت فيه هذا الشرط:
"إني أورث "لييرلو"، صديقه القديم، نصب له في الخريف الأخير كميًا بواسطة
"باريزل" الذي استدرجه بوحى منه حتى جعله يسير على طبقة من أوراق
الأشجار الجافة فوق حفرة فسقط فيها فأسرّها له "جيرفيس" الذي أصبح بعد
ذلك يعده شريراً. وتلك النصيحة المخبوءة خلال سطور ذلك الخطاب هي إعلان
له بالأ يثق بهذا الجبار... جميع هذا العالم الصغير فريسة لمصالح صبائية وقد
ظهر لي منذ ذلك العهد أنه كما وصفت عندما قارنت أحواله بما أحفظ في ذاكرتي
من الذكريات السابقة. وإنه ليبدو من هؤلاء الزملاء أنهم أدركوا أن في حياتي شيئاً
لا يوجد في حياتهم ولذلك لم يضايقوني بأية محنة من تلك المحن التي اعتيد
تسليطها على الطلبة الجدد. لكني ليس لي صديق من بينهم إلا "جيرفيس" الذي
يصاحبني في الصيف عندما نخرج، وهو طفل سريع التخيل شغوف بمطالعة مجلة
تسمى مجلة "كل شيء" وقد وجد فيها روايات تنشر تباعاً منها "الرجل ذو الوجه
الشمعي" و"ملك البحار" و"قط الشاطئ" وكان يقرؤها لي يوم العطلة وهو يوم
الخميس من كل أسبوع. ولقد كنت أقبل بشغف على استماع هذه الأفاصيص لأن
ينبوع تخيلاتي كان يدفعني إلى التلذذ بها إذ أجد الجريمة فيها تقوم بتمثيل أعظم
الأدوار أهمية. ولقد كان من سوء حظي أن تحدثت إلى عمتي التقية عن هذه التسلية
المفسدة فنشأ عن ذلك أن فصل الرئيس الكاتب القائم بطبع هذه الأفاصيص لجهله

بعقلية قرائه من الطلبة ومبلغ ما ينجم عنها من تسميم عقولهم. وعلى أثر ذلك منعنا أنا و"جيرفيس" من التنزه معاً لأن عمتي "لويزه" ظنت أنها بهذا المنع تهدئ ثوران ما في نفسي من سرعة التأثير، تلك السرعة التي كانت تخيفها.

مسكينة أيتها المرأة! ليس توسلها إليّ ومبعثه حنانها، ولا اعتناؤها التقي ودافعها إليه بعد نظرها، ولا حضورها من "كومبيني" إلى "فرساي" في أيام الآحاد لتخرجني فأتنزه بصحبتها وتحت إشرافها، ولا إخلاصي في تأدية عملي ومضاعفتي لمجهوداتي حتى لا ينتصر زوج أُمي إذا ساءت درجاتي في المدرسة، ولا حماستي في الدين، إذ أصبحت اشد الرفاق شغفًا بالكنيسة كلا، ليس شيء من هذا بمهدئ ذلك الشيطان الخفي الذي استولى على نفسي فأتلّفها.

أثناء مذكرتي الليلية وأوقات الراحة كنت أعود فأقرأ خطابًا يحمل مظهره طابع بريد مرسوم عليه تمثال الملك "فيكتور عمانوئيل". إن في هذه الصفحات التي توافيني بها والدتي أسبوعياً غذاءً لنفسي لأنها تنبئني بتفصيلات عديدة عن سياحتها كلما كنت أفهمها. على أي كنت أدرك أنها سعيدة بدوني، سعيدة مع كونها بعيدة عني. ومعنى ذلك أن ذكرى والدي ووفاته الخفية لا تخالج رأسها! معنى ذلك، على الأخص، أنها تحب زوجها الجديد! يا لشدة غيرتي! يا لها من غيرة شنيعة سامة استولت على نفسي! إن مخيلتي بنقائصها الغريبة، بما

تتعلق به من الأمور التافهة، تريني والدتي في حجرة من نزل وأمامها على المنضدة تلك الهدية التي أهداها بها والدي من معدات الزينة والسفر! وهي من الفضة عليها الحرف الأول من اسمه ولقبه كاملاً والحرف الأول من اسمها متعاقباً مع هذا اللقب: "ماري ك." أليس من حقها أن تغير الظروف من حياتها؟ لماذا تنكر ماضيها؟ ولماذا يؤلمني جد الألم خلطها ماضيها بحاضرها؟ بل لماذا يضيرني هذا حتى أي لشدة ما بي من الألم لم أستطع وأنا في حجرة النوم ملقاً على سريري الحديدي الضيق أن أغمض جفني؟

كم كانت تبدو لي طويلة تلك الليالي عندما كنت أنام وفي نفسي هذه المشاعر وكم كنت أقاوم عبثاً عقلي فأفنيه في وهدة النعاس اللذيذة! كنت أستمنح الله هذا النعاس بجميع ما أوتيت من قوى الطفل في التقوى والإيمان، كنت أقرأ في نفسي اثنتي عشرة صلاة فلا يزداد الكرى إلا هجرًا لأجفاني. فكنت أحاول أن أختلق لنفسي خيالاً مستعيناً بقدرة غريبة كنت أشعر أنني حاصل عليها. فقد شعرت مرة وأنا طفل صغير بألم شديد في أسناني فأقفلت عيني وأرجعت نفسي إليها وأكرهت فكري على أن يستحضر أمامه واقعة سعيدة كنت أنا بطلها فاستطعت بذلك أن أحوّل شعوري إلى وجهة أخرى ومن ثم لم أعد افكر في ألمي وقد اعتدت منذ ذلك الحين اتباع تلك الوسيلة التي نجحت دائماً تقريباً وأصبحت أستطيع التغلب على كل ألم. لكنني عبثاً ألتجئ الآن إليها كلما كان ما يساور رأسي خاصاً بوالدتي لأني

كلما حاولت أن أستعرض أمام مخيلتي منظرًا أهنئ نفسي به لا يظهر أمامي إلا ذلك المنظر الآخر المؤلم، منظر الود والمحبة من الكائن الذي أحبه أكثر من أي شيء إلى الرجل الذي أمقته أكثر مما أمقت سواه أي أمقته حقًا وبوحشية دون أن أستطيع أن أستند إلى شيء سوى استيلائه على ما لي من المكان الأول في ذلك القلب الذي هو لي دون سواي. وما يكاد هذا المنظر يثور في مخيلتي حتى يقضي عليّ بالأرق، فأسمع وقع أقدام العجوز "سوربل" وهو يمشي في غرفة النوم المضاءة بصفة محزنة ببضعة قناديل. حتى يدخل في حجرته التي يشغلها في آخر غرف النوم. ما أشد كآبة صفي أسرتنا الكثيرة بأكرها النحاسية التي تلمع في الظل وغطيط النائمين، ذلك الغطيط الشنيع!

وكان الحارس يمر بين كل لحظة وأخرى وهو جندي قديم عريض الوجه غليظ الشاربين أسودهما غارق العنق في معطف من الجوخ الأسمر يحمل مصباحًا ينير ولا يرى. ألا يخاف وهو يمر وحيداً في الليل خلال سلام المدرسة الحجرية التي تغور فيها الرياح وتتغلغل بهزيمها المخيف؟ كم أمقت نزول درجات هذه السلام خلال تلك الظلمات المرعبة خشية أن أصادف شيطاناً!

ثم إنني أطرد هذه الخاطرة الجديدة ولكن عبثاً أيضاً، ثم أفكر: "أين ذلك الذي قتل أبي؟ وهل ارتعادي عندما أفكر في هذا ناشئ عن فزع أو عن استفضاع؟"

ثم يساور فكري: "أيعلم هو أي هنا؟ ثم يطير هذا الفزع صوايي فأتساءل:
"هل قد يتنكر هذا القاتل في شكل تلميذ ليقتلني أنا الآخر؟" ثم أسلم نفسي إلى
الله وعلى هذه الأفكار والتخيلات الفظيعة أنام متأخرًا فأستيقظ فجأة مرتجفًا
في الساعة الخامسة والنصف صباحًا متعب الرأس متوتر الأعصاب مضطرب
النفس مصابًا بمرض لا يشفى.

(6)

صور أخرى. مضت ثلاث سنين منذ تلك الليلة التي فيها حملتنا عربة أجرة حيث أنزلتنا، زوج أمي وأنا، في زاوية من زوايا أحد شوارع فرساي القديمة التي يزيد في كآبتها سور المدرسة. فلقد كان عليّ أن أمضي في هذه المدرسة عشرة أشهر فقط وهي المدّة التي تمضيها والدتي في إيطاليا.

كانت تلك الليالي من ليالي خريف عام 1866 ها نحن أولاء في شتاء عام 1870 ولا زلت داخلياً بهذه المدرسة بحجة جودة الهواء وانكبابي على دروسي باجتهاد وهو السببان اللذان تذرعت بهما والدتي لكيلا ترجعني عندها! ولا غرابة في تذرعها هذا لأنها من السداجة وحسن النية بحيث تؤمن بوحي السيد "ترموند" فتقوله وتكرره. ومع ذلك أما استشارتني؟ أما استشارتني فأجبتها أنا أيضاً بأني قد أفضل أن أكون داخلياً بالمدرسة؟

قد أبانت لي تجربة بضع أسابيع من العطلة المدرسية عند رجوعهما من سياحتهما أنه قد يدمي قلبي كثيراً أن أراها تحب زوجها هذا الحب. لأن عينيّ الحادثين بصفتي طفلاً غيوراً قوي الذاكرة تفاجئان كثيراً من دلائل هذا الحب، فهي تضع كالسابق يديها

الناعمتين على رأسي لتداعبني لكن هذا التلطف لم يعد طريفاً عندي منذ لمع خاتم زواجها الثاني في أحد أصابعها خصوصاً وقد جاء يوم أصبح فيه هذا الخاتم الوحيد الذي تحمله.

لمَّا كان والدي يقترَب منها ليقبلها كانت أول حركة تصدر منها أن تبعده بذراعها أو تحوّل وجهها عنه، أمّا الآن فما أشدّ خضوعها وانقيادها! تضع رأسها على كتف السيد ترموند فيحيطه بذراعيه، دون أن تتمنح، ذلك القَد الذي احتفظت به أعيد فيضع قبلة على ذلك الجبين الذي لا يتحول، ذلك الجبين الذي تحيط به خصل الشعر المرتبة بدلاً من تلك العصاة التي كانت تروق لأبي!

في كل دالة لها مع هذا الغريب تعذيب لنفسي فماذا كانت تفكر هي من جهة هذه الخواطر التي تمر بمخيلتي، وهذه المشاعر التي سكنت فؤادي؟

كنا اعتزمنا الخروج في أصيل يوم للتنزه طول المدة الأولى من العطلة المدرسية ولم تكن الخادم موجودة فرأيت السيد "ترموند" يزرر لها حذاءها، رأيته وقد أمسك رجلها بعد أن خلع حذاءها وكان صغيراً مكشوقاً ووضع بشكل صبياني قبلة على هذه الرجل التي يكسوها جورب من الحرير بنفسجي اللون. فتولاني أقصى أنواع الغيظ من هذا المشهد التافه حتى أنني لأفضل المدرسة التي لا تذكرني على الأقل بهذا الزواج الثاني موضع مقتي ولا بوالدي المسكين الذي محيت ذكره محوًّا من قلبها وكنت أتمنى أن تحيا!

فأجبت في الحال بالإيجاب تحقيقاً لرغبة زوج والدتي وارتضيت الانتظام في سلك الطلبة الداخليين. لماذا إذن تعود فتثور في مخيلتي ذكرى هذا الشتاء، شتاء عام 1869-1870؟ ليس هذا لأنه يميزه أقل حادث جديد ولكن لأن لدي أمام عيني صورة من نفسي قد عملت في هذا التاريخ أجد فيها عندما أراها أقوى الآثار حياة مما كنت عليه فيه.

أتراءى لنفسي كأنا طيف هذا العهد برأسي المقصوص الشعر ونحوقتي نحوفة طفل كبر كثيراً. كان ذلك العهد عهد محادثات تخطت قيود الحرية حتى كادت تبلغ الإباحية، عهد مطالعات مشوشة ليس للتفكير فيها أقل قسط، عهد ذلك الإلحاد الباكر المهين. وفي الوقت نفسه تتراءى أمامي وجوه رفاقي في ظلام ذلك الماضي البعيد، فأتمثل "روكان" أشد شحوباً مما كان، بأنفه الأحمر، أنف ممثل كوميدي، مغنياً أغنية القهاوي مدخناً للافات التبغ في بؤر يندى لها الجبين خجلاً عند ذكرها، عاكفاً على جمع صور الممثلات... و"جرفيس" ذلك الأشقر، أجد الشعر في شغفه بالسباق يلعب رابحاً وقد تصالح معه "ليرلو" "المنتفش" كما نسميه، فعدها بخلته السيئة. وهم عاكفان على اصطيد الحشرات والديدان والسلاحف. ولم يقفا عند هذا الحد بل اخترعا طريقة رهان اشترك فيها كثير من الطلبة تنحصر في أن توضع أمام معجم قطع من الورقة عديدة كتب على كل واحدة اسم حصان ثم يفتح المعجم ويقفل بشدة قطعة الورق التي يقذف بها الهواء الصادر عن فتحه وإقفاله إلى أبعد تريح الجائزة

ويتقاسم المتراهنون رأس مال اللعب. أما "باريزل" الهائل فقد كبر أيضًا وفي سن السادسة عشرة ظهرت لحيته وأصبح وله خليلات وقد تركه القيم عليه ذات يوم ضالًّا في المتنزه فتعرف ببضعة من الضباط جروه إلى ماخور أراننا طريقه عند ذهابنا إلى المتنزه، ووصفه وصفًا دقيقًا بنوافذه الخشنة وبهوه وما حوى من نساء خليعات بما يرتدين من ملابس كملايس الأطفال وأقمصة بالغة في القصر وبما بأرجلهن من جواربة ملونة وأحذية عالية أزرارها مذهبة، كما وصف لنا ما يحويه هذا الماخور من الغوغاء والسرور وأولئك الجنود الذين يحتسون الخمر بين واقف وجالس وقد علقوا سيوفهم وقبعاتهم على الحوائط وكذلك السلام وما يسمع فيها من ضوضاء أحذية النازلين الخشنة!

أما أنا فقد اتخذت لي صديقًا جديدًا هو "جوزيف ديديو" الذي توصلت بصدائتي معه إلى حفظ كثير من أشعار "ألفريد موسيه" الذي شغفنا به غاية الشغف. وذلك أن لنا زميلًا بالفصل اسمه "سل" وهو ابن كتبي وكان بليدًا جدًّا كالكركدن بحيث لا يستطيع كتابة واجاباته المنزلية. فاتفق مع "ديديو" اتفاقًا غريبًا، هو أن يكتب له واجباته والأشعار اللاتينية وفي مقابل ذلك ينقل له "سل" أشعارًا من "موسيه". وبهذه الوسيلة يمكننا الحصول على قصيدة "رولا" وعكفنا بشغف وحماس بلغا بنا حد الجنون على استظهارها حتى حفظناها عن ظهر قلب ولم تقف عند هذا الحد بل اتخذنا من أبيات الإلحاد

والفجور التي احتوت عليها تلك القصيدة أغاني وأناشيد نترنم بها ونذيعها بين طلبة المدرسة الذين هم من الرجس الأخلاقي على ما هم فيه جميع طلبة المدارس الداخلية اللادينية. وبذلك أصبحنا مرتابين في الدين كارهين لبني الإنسان لأننا نلعب بالإلحاد الذي لا يشفي كما يلعب "بايزل" و"روكان" بالفسق وكما شغف "جرفيس" بالألعاب الرياضية وآخرون بالمسائل السياسية وغيرهم بمسائل الحب أما الأب "سوربل" فلأنه طُرد من المدرسة نشر رسالة قدح وقعها بإمضاء مستعار هو "لبروس" سمى فيها رئيس المدرسة باسم "بفتيك" سخرية منه. ولا عجب فإن النظام الغريب المتبع في هذه المدارس الداخلية اللادينية الرحبة لا يحقق فكرة إعداد الأبناء لأن يكونوا رجالاً في جبهة الجيوش فرحين مستبسلين في الدفاع عن أوطانهم مضحين في سبيلها بحياتهم لأن اليقظة في تلك المدارس إنما يُفسدون لسوء ذلك النظام سني طفولتهم الطاهرة البريئة بانغماسهم قبل الأوان في شهواتهم، تلك الشهوات التي سيأتي يوم يتولاهاهم بسببها أفضح الآلام. أما أنا فلسوء حظي قد انتهى زمن اللعب قبل الأوان بالنسبة إليّ. أقول لسوء حظي لأن هذه المدرسة على ما فيها من مفاسد أخلاقية كانت الملجأ الوحيد الذي كنت أشعر وأنا فيه أي حقاً في منزلي! نعم، هذه المدرسة المشنومة بما احتوت من باحات قاحلة وغرف دراسة مقللة وقاعة طعام مسممة بما ينبعث في جوها من روائح أواني المائدة وغرف الدروس المشوهة الأدرج

بأسنة المطاوي وغرف نومها ذات المغاسل التي لا تؤمن من الواجهة الصحية، هذه المدرسة المكتتبه الموبوءة كانت خير ملجأ لي. حقًا، كان هذا الليمان الذي هو قطعة من تكنة أو مستشفى أحب إليّ لأني لم أكن أصادف فيه على الأقل البرهان العتيد على كارثتي المضاعفة. فقد كنت أهدد فيه على فراشي في سذاجة سني السابعة فأنقطع عن تنويم نفسي تنويمًا اصطناعيًا لشدة سلطان تلك الفكرة الثابتة في مخيلتي عن قاتل أبي الذي يجب اكتشافه وعن زوج أمي الذي يجب احتقاره.

لذلك كانت أيام العطلة التي أبارح فيها المدرسة أيام عذاب قد تخيفني من حلول اليوم الذي سينقضي فيه عهدي بالدراسة لولا أنني سأضع يدي على ثروتي غداة اليوم الذي أنال فيه شهادتي الدراسية وقد أستطيع إذ ذاك أن أنذر نفسي إلى البحث الوحيد الذي يجب أن يكون أسمى غرض لي في الحياة، فقد كنت أقسمت أن أصل بنفسي إلى القبض على ذلك القاتل الخفي الذي عجزت العدالة عن اكتشافه. وكنت أنس فيّ هذا العزم الذي كنت أسره في أعماق نفسي، قوة أدبية خارقة. على أن ذلك لم يكن ليحميني من التألم لسفاسف كانت تساورني وكانت دلائل في نفسي بأني يتيمًا مضاعفًا... ما أشد ما ينتابني من العذاب كلما تجددت في مخيلتي ذكريات أيام العطلة المدرسية! عندما كان الخادم المكلف باستصحابي إلى والدي يحضر ليأخذني من المدرسة في أيام الآحاد حوالي الساعة

الثامنة، كنت أتتحقق من استهتاره بي أنني لست قط ابن المنزل، ذلك الابن الذي ترضيه عبودية الخدم فإن هذا الخادم المتوحش المسمى "فرانسوا" بوجهه الحليق ونظراته الوقحة لم يكن يرفع قبعته احتراماً لي عندما كنت أوافيه في حجرة المدرسة حيث ينتظرنني. وكان في بعض الأحيان وعلى الأخص عندما يسوء الجو يسمح لنفسه بالتذمر. ليس هذا فقط بل وكان يذكي غليونه في عربة القطار دون أن يستأذني ولا أن يحسب حساباً لما يسببه لي الدخان من الصداع والانقباض. ومع ذلك فقد كنت أفضل الموت على أن أفتنه أو أبدي له أقل ملاحظة، فقد حصل مرة أن شكوت من خادم حجرة زوج والدتي وهو رجل خليع فبرروا خطته ولم يأبهوا بشكايتي فقررت من ذلك الحين ألا أعرض نفسي قط لمثل هذا الخزي وإن تأملت كثيراً والتألم ظلماً يعلم الإنسان الاحتقار والمقت...

وكان القطار يسير بنا دون أن أفوه إلا بالنذر من الكلمات مع هذا الأخرق

السمح.

لا أنكر أنني متعجرف جاف ولكني وقد فطرت منذ الطفولة على الحرذ أحب

ألا أكون موضع حب من لا أحب...

خلال هذا السكون وغيوم الدخان التي كان ينشرها في جو العربة

ذلك السمع كنا نصل إلى محطة "مونبارناس". فلا أجد تلك العربة

التي كانت تنتظرنني في حياة أبي. فكنا نذهب سائرين على الأقدام

حتى نصل إلى شارع "لا تور موبور" مخترقين طرقًا مملوءة بالخرائب والأطلال وملاجئ العجزة ومحال بيع الأشياء القديمة. كذلك كنا نمر بحذاء كنيسة "سان فرانسوا جرافيه" ذات البرجين الشنيعين ثم نخترق ميدان "ألانفايد" حتى نصل إلى منزلنا. إني أمقت هذا المنزل كما أمقت حارسه الذي هو صورة أخرى من السيد "ترموند" بوجهه الطويل الذي أقرأ فيه حقدًا ليس إلا استهتارًا كاملًا. حقًا، ينقلب كل شيء في نظري إلى حقد سواءً في ذلك المنزل ووجوه الخدم حتى الحجرة التي خصصت لي فقد سلبنى السيد "ترموند" حجرتي السابقة الجميلة التي تنتشر داخلها أشعة الشمس الساطعة، والتي تشرف نوافذها على الحديقة وبابها على حجرة والدتي، وبذلك أصبحت أشغل حجرة أخرى ضيقة لا تشرف إلا على معمل أخشاب. فعندما كنت أصل إلى المنزل في صبيحة الأيام الأحاد كان عليّ أن أصدع حائلًا إلى هذه الحجرة فأبقى بها حتى تستيقظ والدتي وتوافقيني. فلما أجد أنهم لم يكلفوا أنفسهم ولا مؤونة تدفئتها أطلب منهم ذلك، وبينما يجلس الخادم القرفصاء لينفخ على حزم الأحطاب أجلس أنا فيقع نظري على صورة أبي وقد نفيت إلى حجرتي بعد أن أقامت زمناً طويلاً على حمالة مغطاة بالجوخ الأسود في بهو والدتي الصغير.

إذ ذاك تختلط رائحة الخشب الرطب الذي يلتهب حادًا لاذعًا برائحة هذه الحجرة التي لم يجدد هواؤها منذ الأسبوع الماضي، فأتحمل في هذه الحجرة عناء البقاء بضع دقائق كارهًا.

كم تؤلمني هذه المضايقات الحقيرة فأشعر بالإهمال الأدبي الذي أصبح
نصيبني بينما أجد أن والدتي على قيد الحياة وأنها تعيش على مقربة مني. ومع
ذلك فهي تحبني!

إني في هذه اللحظة التي ألقى فيها نظرة جلية على تلك الشبوية التاعسة
أعترف أن سوء التفاهم قد داخلني بأكبر قسط حيال هذه الأم المسكينة.
نعم، كانت تحبني ولكنها في الوقت نفسه تحب زوجها فكان عليّ أنا أن
أشرح لها ما كانت تسبب لي من ألم بجمعها حبين في قلبها، بضمها عاطفتين في
فؤادها.

إنها لو فهمت مشاعري لوفرت عليّ أحزاني البسيطة الصامتة التي انتهت بأن
جعلت كل تفاهم بيننا مستحيلًا.

فإني عندما كنت أجدتها في أيام الأحاد حوالي الساعة الحادية عشرة
قبل تناول الطعام كنت ألاحظ أنها تنتظر مني أن ألقى بنفسي بشغف بين
أحضانها. لكن كيف كان يتسنى لها أن تعرف أن وجود الخصم كان يشل إرادتي
كما شل هذه الإرادة من قبل حينما ودعنا بعضنا، أنا وهي، عند سفرها إلى
إيطاليا؟ حقًا، كان من أشد الأسرار غموضًا لديها انعدام مقدرتي انعدامًا مطلقًا
بحيث لم أستطع أن أكشف لها عن نفسي وذلك الضعف الذي استولى عليّ منذ
أصبح بيننا ثالث فقد عز علينا أنا وهي أن نكون وحيدين معًا بعد دخول هذا

الدخيل في حياتنا. نعم، فقد انقطعت تقريبًا زيارتها لفرساي. ولم تكن تحضر إلا مرة في الأسبوع يوم الأربعاء. وما حضرت لزيارتي مرة إلا وكان هذا الرجل معها. ولم أكن أكتب لها خطابًا إلا وتطلعه عليه كما تفعل بالخطابات الأخرى. كنت أعرف عاداتها وأنها لا بد قائلة له: "أرسل لي أندريه خطابًا" ثم تقدم له ذلك الخطاب الذي لم أكن أستطيع أن أسطر فيه كلمة صادقة، حارة، مطمئنة ليقيني الثابت بأن نظراته ستجول فيه فتقرأ ما أكتب. كم من خطابات مزقتُ كنت أحاول فيها أن أقص على والدتي تفصيلات ما أنا نهب له من الاضطرابات الفظيعة! نعم، كان حقًا عليّ أن أكشف لها بالرغم من ذلك عما يكره فؤادي وأن أشرح لها ما أنا تحت إصره من فظيخ الشكوك والاضطرابات النفسانية، كان يجب أن أعترف لها بالأمي، بغيرتي الجنونية، بكأبتي البالغة، باحتياجي إلى أن أتلمس في زاوية من فكرها أو في ناحية من قلبها ملجأ لي دون سواي أو عاطفة من عواطف شفقتها... لكنني لم أكن أجروء. ولقد شاء القدر مرة أن أردت مدفوعًا بفطرتي أن أسبر غور الألم الذي قد أسببه لها إذا كاشفتها بكل هذا لكنني وجدت نفسي غير قادر على احتمال تعذيبها بهذا الألم. فإن الاضطرابات المتباينة التي تعذب قلبي قد أوصلتني إلى استكناه صمتها الموحش وضيقتها الشديد اللذين كانا يستوليان عليها أمامي. فلقد كانت ككثير من الناس عاجزة عن فهم خلق يختلف عن خلقها وشاعرية مباينة لشاعريتها. كانت هنيئة في زواجها الثاني لأنها كانت

محبة محبوبه. وجدت في شخص السيد "ترموند" رجلاً منحته جميع ما في حياتها فمحتني إليه ببساطة وكرم، فإني ابنها وقد بد لها، وهو طبيعي، أن من تحبه يحب ولدها أيضًا. وفي الحقيقة ألم يكن السيد "ترموند" بالنسبة إليّ حامياً يقظاً لا غبار عليه؟ ألم يُعن شديد العناية بأقل أمر من أمور تربيتي وتثقيفي؟ مما لا شك فيه أنه قد ألحف في إلحاقني بالمدرسة بصفة داخلية لكنني كنت أنا أيضًا من هذا الرأي. على أنه قد عهد بي إلى أساتذة في مختلف العلوم والفنون فدرست لعب السيف والفروسية والرقص والموسيقا واللغات الأجنبية.

نعم، قد عُني وكان دائب العناية بجميع ما يتعلق بي من الأمور جليلها وحقيرها، من هدية رأس السنة التي كان يختارها لي جميلة، إلى مرتبي الذي كان يصرفه لي كل يوم خميس، أعني مرتبي الأسبوعي كما كنا نسّميه نحن الطلبة والذي كان يصل إلى أقصى حد قانوني.

لم يكن هذا الرجل يرفع قط صوته حين يكلمني مع صلفه وغطرسته. لم يحد ولا مرة عن واجب اللياقة والادب الجَم معي منذ تزوج بوالدي حتى ليقال إن امرأة محبة تجد في هذه المعاملة أعظم دليل على العطف بل على الإخلاص... فهل كان لي أن أجرؤ بعد هذا على توجيه تهمة ضده؟ كلا، لم أكن لأستطيع لأن هذه التهمة قد تستدعي أن أقدمها تحت ألوان قوية من الإثبات وأنا عاجز عن النطق بها بصفة جلية محددة، ولذلك كنت ألزم الصمت.

ولكن بماذا كانت والدتي تفسر هذا الصمت الذي كنت ألامه وتعتني في
عدم إظهار ارتياحي لزوجها وتحفظي معها، بم كانت تفسر هذه الطباع الغريبة
إن لم يكن بأنانيتي وجفائي؟

إنها كانت في الواقع تظنني أنانيًا خشنًا. وأنا، بما أنا عليه من استعداد مرضي،
كنت أشعر في حضرتها بأني أصبحت على ما تظن فيّ وأنه لعل لها عذرًا لأني كنت
أقرب أسارير وجهي وأترجم كحيوان نفور.

ولكن لماذا لم تكن لتتفادى هي تلك المحن التي قد تقضي بتوسيع الشقة
بيننا؟ لماذا لم تكن تقصر علينا معًا، دون أن يكون بيننا ذلك الدخيل، الخمس
دقائق التي نرى بعضنا فيها كل صباح يوم أحد فأتمكن خلالها لا من الإفضاء إليها
بما يفعم قلبي فيني لا أطلب هذا الكثير ولكن لأقبلها بقدر ما كنت أبحها؟

كنت أحل هذه الحجرة التي كانت نوعًا من معمل صغير فحوّلتها والدتي إلى
بهو خاص فكنت لذلك أعلم العلم اليقين بزواياها وخباياها لأني طالما لعبت فيها
مطلق الحرية حينما كنت السيد، حينما كنت الابن المدلل الذي تعد كل رغبة
تبدو منه أمرًا.

كان السيد "ترموند" يجلس في هذا البهو في ثوب الصباح يدخل
وهو يقرأ الجرائد لم يكن يسمع سوى حفيفها حين يقلبها وغنة صوته
حينما يرد عليّ تحية الصباح كما لم يكن بيني وبينه سوى لمس يده

التي لم يكن يسمح بأن يعطيني منها سوى أطراف الأصابع. وكنت في هذه الحال أخفي عواطفِي.

كانت كراحتي إليه بالغة حتى لأذكر أنني لم يسبق لي أن تناولت الطعام بشهية طالما جلست إلى المائدة التي يجلس عليها لذلك كان تناول طعام الإفطار والغداء في أيام الآحاد على مائدة يجلس إليها يبلغ بي من الضيق والاضطراب أقصى حد.

آه! إني لأمقت كل حركة من حركاته، عينيه الزائغتين بعض الشيء واللتين كانتا أحياناً تتسلطان وأحياناً تجولان في محجريهما وجبينه البارز الذي يحيط به شعر تخلله الشيب قبل الأوان ووجهه الخبيث ووضاحة خصاله وحركاته التي كانت تتباين مع رزاة فطري. كنت أمقت في شخصه كل شيء حتى تقوس رجله في حذائه! وإنه ليبدو لي أنني حتى في هذه اللحظة قد أستطيع تعرف كل رداء من الأردية العديدة التي كان يرتديها لكثرة ما أمقت هذا الرجل في حياته!

لقد كانت غريزتي تدرك تمام الإدراك أن هذا الرجل النحيل السنوري الحركات ذا الصوت الساحر بأرستقراطيته الغريزية والمكتسبة كان الزوج الحقيقي لتلك المخلوقة الوديعية التي تعد تقريباً رمز الجمال والعذوبة، والتي لم أكن قط أشبهها وأنا ابنها والتي لم يشبهها قط والدي المسكين، رباه يا لها من مشاعر قاسية!

كم كنت وأنا متردٍ في مهاوي هذا الصمت السحيقة أتبع مزيد من الشغف في أيام الأحاد وكانت كثيفة، ما كان يدور أمامي وعلى مسمعي من المحادثات وعلى الأخص ونحن جلوس إلى مائدتي الإفطار والغداء، وقد تغير ميعادهما عما كان عليه في حياة أبي، في حجرة الطعام وقد بدلت أمتعتها كما جددت جميع أمتعة المنزل! إن تغيير الأمتعة كان الدلالة على التبدل الذي طرأ على حياة والدتي. لأن السيد "ترموند" وهو ابن سمسار أوراق، قد دخل ميدان "الدبلوماسية" فأصاب منها علاقات تختلف عظيم الاختلاف عما كان لنا منها. لذلك ألقى بنفسه ومعه والدتي في أحضان تلك الجامعة الجواله المختلطة التي أطلق عليها منذ ذلك الحين اسم "الجامعة الرشيقة" فماذا كان حظ أولئك الذين كانوا معتادين زيارتنا في تلك الليالي النادرة التي كان والدي يحييها بمنزلنا بشارع "ترونشيت" نعم، ماذا كان حظ أولئك، ولم يكونوا يتجاوزون ثلاثة أشخاص أو أربعة لا أكثر، وكانوا يجلسون إلى مائدة الطعام معنا وهم بين سيدات مرتديات ملابس طويلة ورجال مرتدين ملابسهم الرسمية؟ كانوا يتحدثون في السياسة والأعمال وبينهم وزير قديم من وزراء الملك "لويس فيليب" دخل بعد ذلك في المحاماة، كان يعد الوحي الذي يستوحون منه آراءهم. فكانوا إذ ذاك يتناولون الطعام في الساعة السادسة والنصف بدلاً من الساعة السابعة لأن ذلك الوزير كان ينسحب في الساعة العاشرة تمامًا. وكانت تعد في عرف ذلك المجتمع الحضري البسيط مشاهدة التمثيل حادثاً وإحياء ليلة راقصة تذكاريًا.

هذا هو ما كان يحصل إذ ذاك، في حياة أبي، أو على الأقل هكذا تستيقظ الذكريات في مخيلتي. أما الآن فقد انقطعت زيارة ذلك الوزير الشيخ كما انقطعت زيارة السيدة "لارجلس" أرملة المهندس وكان والدي يتغنى بذكرها كنموذج إلى والدتي وكانت تسميها مسايرة "حماتها العجوز". حقاً، قد مضى كل ذلك وأصبحت والدتي تخرج مع زوجها كل مساء كما أصبح لهما عربات عديدة بدلاً من تلك العربة المقفلة التي كانت بها قانعة زوج المحامي الشهير. وقد أصبحت لا أرى في الرجال الذين يحضرون بعد تناول الطعام وفي النساء اللاتي كنت أصادفهن في الساعة العاشرة عند والدتي إلا وجوهاً عليها نضرة الشباب والمرح! ولم أعد أسمع إلا أحاديث التسلية والسرور والروايات الكوميديّة الجديدة والمراقص المقنعة والسباق والزينة. ووالدي وقد أشرب أفكار الحكومة المملوكية مثل وزير مولاه القديم كان يتغنى بجد بذكر النظام الملكي. أما الآن فقد أصبحت والدتي تدعى إلى الحفلات الكبرى التي تقام في حديقة "التويليري" احتفالاً بذكرى الجمهورية. فكيف أجرؤ إذن على التحدث إليها بأحاديث حياتي الشقية في المدرسة، تلك الأحاديث التي كنت أراها حقيرة حيال ما هي فيه من بهجة الحياة ونعيمها؟

كنت أقص عليها فيا مضى، أيام دراستي بمدرسة بونابرت، بمزيد الدقة أبسط الأحوال وحركات رفاقي. أما اليوم فقد يتولاني الخجل من إملاها بحديث "روكان" و"جيرفيس" و"لييرلو" وغيرهم. فقد كان

يلوح لي أنها قد لا تهتم قط بحادث "جوزيف" ذلك الحادث الذي كان يعد في عرفي مفاجئاً والذي فضحت سره ابنة عمه "سيسيل" الخائنة التي تزوجت صيدلياً من بلدة "أفرانش" بالرغم مما أعطت من خصل الشعر ومما قبلت من طاقات الورد ومن قبلة فوجئت فيها. وقد انتقم "ديديو" لنفسه بأن كتب على مصيبته قصيدتين حض فيهما على عدم الاستسلام لشیطان الحب. نعم، كيف كان يتاح لي أن أتحدث عن هذا العالم الصغير وعن صوالحه البسيطة وأهوائه التافهة إلى امرأة تتناول طعام الغداء لدى "دوقة أركول" ومن صديقاتها الحميمات ماريشالة ومركيزتان والتي كانت الجرائد تذكر ما تقيم من حفلات؟ فقد أصبح اسم والدتي: "السيدة ترموند الجميلة" وحل هذا الاسم محل اسمها السابق الذي لا يتذكره تقريباً سواي كما أتذكر وحدي أنها كانت أرملة السيد "كورنيليس" الذي أوسعت هذه الجرائد نفسها أعمدها لتفصيلات آخرته المحزنة.

فهل نسيته هي أيضاً؟ أو ما زالت تتذكره؟

النسيان؟ أهذه حقاً شريعة العالم؟

هكذا ساءلت نفسي بذلك القلب الصغير الهائج الذي لا يسمح بأحكام المشاعر وأجبت نفسي قائلاً: "كلا"! وذكرت أن هناك إنساناً مقيماً إقامتي على ذكرى والدي، إنساناً لا تزال كارثة والدي المفجعة كابوساً على قلبه، إنساناً أستطيع أن أبثه جميع ما يخالج فكري ويتلظى

بناره، ذلك الإنسان هو عمتي الوديدة التقية التي كنت أصادف عندها دائماً ما ألفته فيها من حنان لم يتغير.

لما كنت أذهب إلى "كومبيني" في شهر أغسطس لأقضي لديها هزيعاً من أيام عطلتي المدرسية كنت أجد كل شيء في مكانه سواء في منزلها أو في قلبها. وكنت أشعر تمام الشعور أنها ما قبلت البقاء في علاقتها مع والدتي إلا لأن في ذلك خيرًا لي. كم أحب عمتي "لويزه" وأعزها! إنها كانت تسأرنني فتصغي إلى شكواي بطهارة تشبه طهارة الطفولة ثم لا تلبث أن تلتف نائفة نفسي بل تهدئني تمامًا تقريباً فكنت أعود من عندها أكثر إشفافاً وبراً بوالدتي بل ومقتنعاً بأنني كنت على ضلال في حكمي على السيد "ترموند".

على أنني لم أكن أفضي إليها بحفيظتي ضد الرجل الذي كنت أتهمه بأنه استلبني قلب أمني. فقد حصل من بادئ الأمر أنني فاجأت عند هذا الرجل أمارات كراهية شبيهة بما تحققت في نفسي من جهته، فإني عندما كنت أدخل البهو فجأة بعض الشيء ويتصادف أن يكون في محادثة إما مع والدتي وإما مع أحد أصدقائه كان ظهوري كافياً ليصيب صوته اضطراب بسيط قد لا يدركه سواي ولكنه لم يكن غالباً يفوتني، أنا الذي كنت أشعر من جهة أخرى باختناق في حلقي واضطراب في شفتي وانقباض في صدري. ولولا أنني ذلك اليافع البصير الحقود لما فكرت في الانتفاع بما لحفيظتي وحقدي من القدرة الخارقة في

إزعاج هذا الرجل الممقوت وغرس الاضطراب في نفسه. وكانت طريقتي تنحصر في أن أفرض عليه تلك الشاعرية الحادة بوجودي أمامه فجأة وأنا صامت أتبع حركاته بأنظاري. وبالرغم مما كان عليه من القدرة في امتلاك نفسه فأني ما سلطت عليه قط نظراتي من قلب الحجرة إلا وفي اللحظة نفسها كان هو الآخر يوجه نظراته نحوي لكن حدقتيه كانتا تتفاديان حدقتي ويستمر في محادثته ثم _وكان ذلك بالرغم منه _ يعود فينظر إليّ فتقابل أنظارنا فتعود تتحول عيناه حتى لقد كنت أظن من تقطب جبينه فجأة أنه على وشك أن يمنعني من تسليط نظري عليه بهذه الصفة لكنه كان لا يلبث أن يمتلك نفسه ويخفي عواطفه وأحياناً كان ييارح الحجرة. وما كان تنازله _على ما أعلم_ عن الاشتباك معي في أقل عراك إلا بمحض اختياره لأنه رجل قوي متغطرس فطر على الأخذ بالقوة وبالأخص على عدم احتمال التسامح مع من يقاومه أو يتحده.

نعم، هكذا خلق هذا الرجل مستبدًا غطريسيًا يتغنى في أحاديثه عن شوبييته بما هو عليه من قوة وبطش وبأنه عندما كان موظفًا بسفارة "مدريد" قتل ثورًا بتحريض شاب إسباني في حفلة سباق أقامها بعض الهواة. فإذا كان قد أباح لي بوقاحتي الصامتة في تسليطي نظراتي عليه فلا بد أنه آلم نفسه كثيرًا بكتمانه غريزته. نعم، كان يسمح لي بهذه الوقاحة، إليّ أنا، لكنني لم أكن أعترف قط بهذا الانتصار الضئيل إلى عمتي "لويزه" لأني، ويجب عليّ أن أبوح بكل شيء، كنت طفلًا

بائساً وكنت أعلم عن نفسي هذا البؤس فلم أكن أحب وأنا أتحدث إليها أن أقلل من وقع هذا البؤس على نفسها بل كنت أؤثر التعالي فيه لأكتسب ما كانت تنفجر به من الميل الخالص الشفيق نحوي، ذلك الميل الذي كان يداعب قلبي وتغتبط به نفسي. كذلك كنت أتحدث إليها عن يميني التي أقسمتها، عن ذلك العهد العلني الذي قطعه على نفسي بأن أكتشف قاتل أبي وأثار له فكانت تضع يدها على فمي. نعم كانت تضع يدها على فمي لأنها تقيّة، كما كانت تكرر لي كلمة الرسول: "أنا أجازي، يقول الرب".

وكانت تضيف إلى ذلك: تذكر هذه الحكم المقدسة: "سامح تسامح... ولا تقل قط عين بعين وسن بسن". اطرء كل حقد من قلبك حتى ذلك الحقد الذي تضره. وكانت الدموع تتفرق في عينيها...!

(7)

مسكينة عمتي! كانت تظني من صدق العزيمة بحيث لا يتولاني الوهن. ولو كنت عند ظنها لما كانت ثمّت حاجة لنصائحها التي إما حاولت بها منعي من إتلاف نفسي في سبيل الانصياع لشغف الانتقام الذي كان النجم الثابت لشبوبيتي الأولى، بل كان المنارة الدموية اللون في ديجور حياتي!

آه! أين عزيمة الشباب، أين أقسام "هانبيال" نقطعها على أنفسنا، أين ذلك الحلم الجميل الذي وقفنا عليه قوتنا لغرض واحد لا يتزعزع!
إمّا تعصف الحياة بذلك جميعًا فتذهب به شذر مذر فتبدد تهلات الحماس الساذجة والآمال النبيلة!

نعم، فإنه لم تكد تمضي ثماني سنوات بيني وكنّت في عام 1870 غلامًا في سن الخامسة عشرة بائسًا ولكن أبيضًا وما وجدت عليه نفسي، شابًا في عام 1878 لم تكد تمضي هذه السنوات الثمانية حتى تغيرت كل التغيير وعراني كل انحطاط... ولولا مصادفات كان من المستحيل التنبؤ بها لبقيت على ما كنت عليه ذلك الشاب المعلقة صورته فوق مكتبتي.

لا أنكر أن الزائرين الذين نظروا إلى هذه الصورة في البهو في تلك السنة بين صور أخرى لم يدُر أنها صورة ابن لأب قتل بحالة مفجعة. على أي أتأمل فيها أنا الآخر، أتأمل في تلك الصورة المبتذلة لباريسي متبذل فأرى ذلك الوجه الذي أشعبه الإسراف في السهر في تلك الحفلات الحمقاء وأرى عينيه اللتين لا تضيء فيهما إرادة قوية وشعره المرتب على آخر زي وهندامه الجميل المحكم فأقف دهشاً، أنا نفسي، عندما أفكر أن تلك كانت حياتي إذ ذاك. ولم لا أدهش؟ ألم تنقض حياتي مبتذلة كدرة حياة أول قادم بين الكوارث الأولى التي أصابت طفولتي والكوارث الأخيرة التي أملتني ولا زالت تؤلمني بهزاتها العنيفة؟

فلنثب أبط مراحل هذه الحياة:

في النصف الثاني من عام 1870 ثارت الحرب ففاجأني هجوم الجيوش في "كومبيني" حيث كنت أقضي أيام العطلة المدرسية عند عمتي. أما والدي وزوجها فقد قضيا مدة الحصار في باريس وأما أنا فقد اشتغلت لدى قسيس المدينة الصغيرة وهو الذي علّم والدي تناول القربان لأول مرة.

وفي خريف عام 1871 درست في "فرساي" علم البيان وفي شهر أغسطس من عام 1873 نلت إجازة التدريس الأولية وعلى أثر ذلك تطوعت في الجندية في "أنجير" في ظروف هنيئة إذ كان الضابط

والد رفيقي القديم "روكان". وفي عام 1874 عوفيت من الجندية عملاً بنصيحة زوج والدتي.

هذه هي الفرصة التي كان يجب عليّ فيها أن أبدأ مهمتي في القيام بالتنقيب عن قاتل أبي والاقتصاص منه. لكن مضت على ذلك أربع سنين إذ حلّ عام 1878 ولم أكن بعد قد قمت بهذا الانتقام الذي كان مناط حياتي المفجع، بل الذي شبت عليه طفلاً. نعم، لم أكن قد قمت بعد بهذه المهمة حتى ولم أكن منشغلاً بها.

كان هذا الإهمال يخجلني أفضح الخجل لكما فكرت فيه. وإني لأذكر اليوم أن هذا الإهمال لم ينجم قط لا عن ضعف فطرتي ولا عن ظروف خارقة أصابتنني قد تؤثر كذلك على كل شاب في الظرف الذي أنا فيه، فأني من بادئ الأمر عندما كنت أبدأ مهمتي كإني يسعى إلى الانتقام كنت أصادف عقبة وعرة في سبيلي. إذ من السهولة بل من السمو أن أتحمس فأرفع يدي قائلاً: "أقسم أنني لن أرجع ولن أهن قبل أن أكون قد عاقبت الجاني". ولكن الواقع يعترض الإنسان فيفرض عليه ألا يعمل إلا بعد أن يجتاز عقبات. فماذا كنت أستطيع؟ كان يجب أن أتبع في ذلك طرائق العدالة فأبدأ البحث الذي بلغتني فيه غايته دون أن تصل إلى اكتشاف القاتل. فتوجهت إلى القاضي الذي حقق هذه القضية وفاوضته، وهو الآن مستشار في الاستئناف يناهز هذا القاضي الستين من عمره وهو دمتم الخلق يقطن بجزيرة "سانت

لويس" بالطابق الأول من منزل أثري يشرف على ميدان "نوتردام" وباريس الأصلية ونهر "السين" الذي لضيقه في ذلك الموقع كان أشبه بترعة.

تكرم الأستاذ ماسول، وهذا هو اسمه، فحلل معي من جدي الدلائل التي كانت قد قدمتها الشرطة.

أما عن شخصية القاتل وساعة الجريمة فلم يكن ثم شك، فقد قتل والذي بين الساعة الثانية عشر والنصف والساعة الثانية دون مقاومة. وقاتله هو ذلك الرجل الطويل القامة العريض الكتفين والذي كان إحكامه المدهش في تنكره يدل في رأي المستشار على أنه من الهواة في التنكر.

من المفروض أن الإفراط في تعقيد كل احتياط دلالة على عدم التبصر لأنه مدعاة إلى الخيبة وعدم النجاح لذلك سألت الأستاذ "ماسول":

– هل تنكر القاتل أن والدي كان يعرفه؟ فأجابني:

– كلا، وإلا لعرفه والدك وقد كان نقادًا متبصرًا محترسًا يقظًا وهو ما تدل

عليه كلماته الأخيرة عندما ترككم.

ولما أن كان التنكر مهمًا أحكم لا يغير من طول القامة ولا من

عرض الكتفين فإن الأستاذ "ماسول" كان يفسر هذا التنكر بأنه مجرد

وسيلة بسيطة لانتهاز فرصة الهرب من فرنسا إذا كانت الجثة قد تستكشف في اليوم نفسه. فإنه بفرض أن الشرطة قد تكون أخطرت بإشارات برقية جميع نواحي فرنسا وضواحيها عن رجل شديد السمرة شديد سواد اللحية، فإن عملها يذهب هباءً لأن القاتل وقد غسل وجهه فأزال تلك الأصباغ الصناعية وخلع ذلك الشعر وتلك اللحية المستعارين وارتدى ملابس أخرى يستطيع تخطي الحدود دون أقل معارضة بل ودون أقل شك.

يدل هذا الاستقراء وغيره إداً على أن المزعوم "روشال" كان يقطن جهة أجنبية عن فرنسا وأنه كان يتكلم الإنجليزية عندما كان بالنزل وأن مستخدمى النزل ظنوه حقيقة أمريكياً. وهذا يدل على أنه إما أمريكي وإما أنه من عاداته الإقامة في أمريكا، هذا فضلاً عن أن البيانات القليلة التي أعطاها لوالدي تشهد بأن له معرفة دقيقة بطرائق الأعمال بالولايات المتحدة.

إذن فالقاتل أجنبي سواء أكان أمريكياً أو إنجليزياً وربما كان فرنسياً يقيم في أمريكا. هذا فيما يتعلق بالمجرم، أما الدافع على ارتكاب جريمة غامضة كهذه فقد كان من الصعب أن نفترض أنه السرقة. وقد لفتني قاضي التحقيق قائلاً: "ونحن لا نعرف مع ذلك ما كانت تحويه المحفظة التي أخذها القاتل... لكن الذي يهدم افتراض السرقة هو عناية المزعوم روشال بتجريد القاتل من ساعته في حين أنه ترك في

أصبغه خاتم ألماس الذي هو أعلى قيمة من الساعة... لذلك أستخلص أن القاتل لم يقصد بهذا إلا إلى احتياط بسيط لتضليل الشرطة. وإني لذلك أفترض أن ذلك الرجل قتل السيد "كورنيليس" انتقامًا...".

ثم قصَّ عليَّ قاضي التحقيق القديم بضعة أمثلة غريبة من تلك الأحقاد التي كانت تثور في قلوب ذويها إما ضد الأطباء الشرعيين وإما ضد المدعين العموميين لدى محاكم الجمهورية وإما ضد رؤساء المحاكم الجنائية. ثم ختم حديثه بأن قال مدللًا على ذلك بأن والدي وكان محاميًا لدى المحكمة الكبرى شهيرًا بواسع علمه وقوة عارضته حتى اكتسب عدة قضايا هامة لا بد وأن يكون قد خلق بقدرته لنفسه أعداء أثار في قلوبهم تلك الأحقاد الوحشية بحكم مهنته، وبالتالي لا بد أن تكون عاقبة إحدى تلك القضايا الهامة ضياع ثروة واحد من الخصوم الذين ترافع فكسب القضية ضدهم فأسرَّها الخصم في نفسه فقتله.

وقد ألفتني الأستاذ "ماسول" إلى أن القاتل أجنبيًا كان أو غير أجنبي لا بد أنه كان معروفًا في باريس وإلا فبماذا تعلق عناية ذلك الرجل بعدم الظهور في الطريق؟

كان قد اهتديَ إلى أثر أول مكثٍ له في باريس في المدة التي حصل فيها على الشعر واللحية المستعارين. ففي تلك المرة كان قد حل في شارع أبي قبر في نزل صغير، قيَّد نفسه فيه باسم "روشتستر" ولم يكن يخرج منه قط إلا في دوكار.

ثم أضاف القاضي قائلاً: "وألفتك أيضًا إلى أنه لازم الحجره مساء وصبيحة اليوم الذي قتل فيه السيد "كورنيليس" وأنه تناول فيه طعام الإفطار كما تناول فيها بالأمس طعام العشاء مع أنه لما كان في لندن حالاً بالفندق الذي كان والدك يرسل إليه خطاباته الأولى فيه، كان يذهب ويجيء دون أقل احتياط".

هذا ما استخلصته قريحة القاضي الذي كنت أصغي إليه بشغف. وهو ينحصر في هذه العنوانات الثلاثة عن تلك الثلاثة فنادق وهي _ لو صح أن نسمة آثاراً سيكولوجية يرتكز عليها في اكتشاف المجرم _ فإنها ليست إلا تفصيلات قليلة الإنتاج. ثم وقف القاضي عند هذا الحد، وقد رسمت على محياه علامات الذكاء البالغ، عيناه اللامعتان في وجهه الذي ما يزال غصاً بالرغم من تقدم سنه. كان هذا الرجل دائماً حليق الذقن هادئاً في حديثه فصيحاً مرتباً في قوله كما كان في مجموع حركاته بارداً مسائراً بشوشاً حتى ليتخيله الإنسان عند رؤيته أحد تلك العقول الرزينة الراجحة التي تتوخى الدقة فيما تقول مع تنسيق المواضع، تلك العقول التي لا بد أن تكون مقدرتها في مهنتها عظيمة.

اعترف لي أنه لم يستطع اكتشاف شيء بالرغم من تحليل بلغ غاية الدقة عن حاضر أبي وماضيه، وهنا تنهد قائلاً:

"لقد فكرت في هذا الأمر طويلاً" ثم أضاف قائلاً إنه قبل أن يتك كرسيه كقاضي تحقيق، في سنة 1872 عاد إلى النظر مرة أخرى في

"ملف" القضية وكان لا يزال بين يديه فسأل من جديد بواب الفندق الملكي وبضعة أشخاص آخرين. ثم لما أن عين مستشاراً في الاستئناف ظن أن في مقدوره أن يضع تحت نظر خلفه أثراً للقضية. وسبب ذلك أن سرقة اقترفها رجل إنجليزي كان قد بلغ غاية الإحكام في تنكره، دعته إلى الظن أن هناك تشابهاً بين هذا السارق والمزعوم "روشدال". ثم لم يعمل شيئاً بعد ذلك لكن ما فعله كان من فائدته ان جدد القضية فلا يسقط الحق فيها أن تلك المدة القانونية كانت على وشك الانتهاء...

فسألته عن الزمن الذي بقي لي للبحث من جهتي فعلمت منه أن آخر محضر تحقيق عمل كان في عام 1873 وإذن فلا يسقط الحق إلا في عام 1883 أي أن لي خلال هذا الزمن حق اكتشاف المجرم وتسليمه إلى القضاء...

يا له من جنون! عشر سنين سبق أن مضت منذ اقرار الجرم، وأتخيل أنا الوحيد الضعيف وليس لي ما للشرطة من المورد والقوة أي سأنتصر حيث خاب أمهر الباحثين! على أي كنت مع ذلك أحاول الوصول إلى هذا المبتغى لأني ظننت نفسي في ذلك الحين أكثر حذقاً وأبعد نظراً إذ ربطت عرى الصداقة مع خليلة أبي القديمة، تلك المرأة المتزوجة والتي قرأت في عينيها جم الشفقة بالنسبة إلي كما قرأت فيهما أشعة عطف قديم. وفي ذلك التاريخ أيضاً انصرفت إلى الانكباب على مطالعة أوراق والدي التي كانت والدي قد عهدت بحفظها إلى زوجها بذلك العطف المطلق نحوه، ذلك العطف الذي طالما ألمني.

وا أسفاه! لماذا تكون قد فهمت من هذه الناحية أكثر من النواحي الأخرى
ما يداعب من التأثيرات قلبي الذي كان يمقت أشد المقت إدماج حياتها الماضية
بحياتها الحاضرة؟

كان السيد "ترموند" قد عني على الأقل باحترام هذه الملفات احترامًا دقيقًا،
تلك الخطابات التي اصفر لونها لطول الزمن والتي وجدت فيها كثيرًا من الأمور
من مشاريع الشركات حتى الخطابات الخصوصية وبينها عدد من السيد "ترموند"
نفسه أيدت لي مبلغ الود والمحبة اللذين ربطا فيما مضى زوج والدي الثاني
بزوجها الأول. ألم أكن أعلم بهذا؟ فلماذا إذن أتألم؟

على أي لم أعثر خلال هذه الخطابات على أقل أثر بنبر أمامي طريق البحث
بل ولم أستم منها أقل شك... فأثرت في مخيلتي صورة أبي حيًا كما كانت قد
تراءت لي آخر مرة، حيث سمعته يجيب على سؤال السيد "ترموند" بينما كنا في
غرفة الطعام بمنزلنا الكائن بشارع "ترونشيت"، وهو يتكلم عن ذلك الذي كان في
انتظاره ليقتله: "رجل غريب لا يكدرني أن أراه عن كثب"، ثم خرج فسار في
طريق الموت بينما كنت ألعب في البهو الصغير وبينما كانت والدي تتحدث وهي
تشتغل إلى الصديق الذي جاء يوم أصبح فيها سيدها وسيدي. يا له من مشهد
صداقة ومودة، بينما يسير والدي، ذلك المسكين، بقلب لا تخامره الريبة إلى
موطن الردى! ألا أستطيع حل هذا اللغز الدامي؟

ولكن أين أذهب؟ وماذا أفعل؟ وأي باب أطرق؟

وبينما كان هذا الشعور باستحالة مأربي يثبط هممتي كانت تنبعث أمام عيني فجأة ظروف حياتي الجديدة مساعدة على شل قوة إرادتي.

خلال السنين التي قضيتها في المدرسة كانت آلام الغيرة التي شبت في نفسي نحو زوج والدي وخيبتني في إظهار علامات العطف الذي أكنه لوالدي وحقارة الأشياء التي كانت محيطة بي وضآلتها، كان كل ذلك قد أبقى في قلبي حرارته القلقة.

لكن هذا أيضًا كان قد تغير. حقًا إني كنت لا أزال على حبي لوالدي حبًا عميقًا يغشاه الألم الشديد ولكن كان ذلك دون أن أسألها مكانًا لي وحدي في قلبها أو ملجأ من شفقتها لا ينازعني فيه أحد وهو ما كنت أعلم أنها لن تمنحني إياه. كذلك كنت أروض نفسي على الرضاء بخلقها بدلًا من أن أغضب ضدها. وما كنت أنقطع عن الشعور في سويداء قلبي بأسوأ كراهة نحو زوج والدي لكني لم أعد بعد أمقته بنفس تلك الشدة الأولى وما ذلك إلا لأن معاملته لي بعد خروجي من المدرسة كانت حسنة لا غبار عليها. إذ أنه فضلًا عن كونه اتخذ لنفسه خطة شريفة بعدم التدخل في أقل شيء مما يتعلق بشئون حياتي بصفتي قد أصبحت رجلًا.

لما أن حزت شهادتي أعلنت إصراري على عدم الاستمرار في تلقي العلوم دون أن أقدم سببًا يبرر ذلك وكان ذلك في الحقيقة قصد

أن أندر نفسي كلية إلى تنفيذ فكرتي الثانية وهي البحث عن المجرم وتسليمه إلى القصاص. فلم يجد زوج أمي كلمة ينتقد بها هذا الإصرار الغريب بل هو نفسه الذي أراد إعفائي من استتباع الدراسة إذ أوحى إلى والدي بقبول إصراري.

ولما أن رُدت إليّ ثروتي وجدت أن والدي وكانت قيّمة عليّ وزوجها وكان مشرفاً، وجدت أنهما كانا متفقين على ألا يمسا مواردني طول مدة تربيتي. فهذه الموارد قد أضيفت إلى رأس المال فلم أرث سبع مئة وخمسين ألف فرنك فحسب بل ورثت ما يربو على المليون. ومهما يكن من شعوري بمض الشكر لرجل كنت أعده منذ سنين طويلة عدواً لي، فإني اضطررت للاعتراف بأنه كان يتصرف نحوي تصرف رجل أمين.

حتى لقد كدت أنسى الفارق الكبير بين أدبه في معاملاته لي وبين تلك القسوة التي بها أدخلني المدرسة كتلميذ داخلي وكان بذلك كمن بعث بي إلى المنفى.

وهكذا كانت علاقاته معي بالغة حد الأدب والكرامة ما دمت لا أُقيم من نفسي شخصاً ثالثاً بينه وبين زوجته. لكن هذا كان يستدعي أن أبقى خارج منزل والدي التي كان يريد التسلط على قلبها والتحكم في حياتها. فأنت لي مناضلته وكنت أعلم أنني لو كنت في مكانه وأنا على ما أنا فيه من الغيرة لكانت خطتي معه نفس خطته معي؟

إذن سلمت عجزاً عن المناجزة عطف كان يسعد والدتي ومللاً من التماذي في برود علاقتي معها ومعها، وعلى الأخص رجاء أن أجد نفسي أكثر مقدرة وانصرافاً إلى الانتقام بعد أن أصبحت طليقاً من القيود. شغلى أني، أنا الآخر، كنت أطلب أن يسمح لي بترك المنزل بما أنه كان لي وقد ناهزت الواحدة والعشرين من عمري حريتي مطلقة ومسكن خاص وإيراد يربو على خمسين ألف فرنك وأمامي أبواب المجتمعات التي ترتادها والدتي مفتوحة وكذلك أبواب الملاهي. فأني لي ألا أفتن بعوامل هذه الحياة الساحرة المستقلة التي أنا فيها؟

نعم كنت تخيلت أن أكون المنتقم المنفذ للعدل. لكنني تركت نفسي ألعبوبة لعواصف هذه الحياة، حياة الملذات التي يعجز من ينظرون إلى ظواهرها عن تقدير هاويتها السحيقة.

إنها لحالة باطلة مفترسة تمزق لحظات حياة المرء كما تمزق نفسه، بل تفقده ثمين وقته كما تشل ما فيه من قوة وذكاء فيصبح جامداً يعز فيه العلاج.

وهكذا وجدت نفسي حيال حاجتي إلى الانتقام غير قادر على العمل في الحال. ففيم أناضل؟ ومن أناضل؟ لذلك تركت نفسي ألعبوبة للظروف التي قد تصادفني فتخدع جمودي بشيء من الحركة. وتتابع الأيام سرعاً تلو الأيام وأنا فيما أنا فيه من ملذات تصبح في نظر الطرفاء مهنة أو شريعة أو فروصاً يجب القيام بها. فأني لي فرصة

القيام بتنفيذ مشروعى وأنا مقيم على التنزه في الغابات كل صباح، إلى زيارات بعد الظهر، إلى ارتياد المسارح وبعد نصف الليل أجوس خلال نوادي اللعب أو يؤر الفسق؟

أحرزت خيولاً كما اقترفت بضعة دسائس ومبارزة مخزية خرجت منها ظافراً بفضل ينبوع الأفكار المفجعة التي أعيش عليها. ولم أقف عند هذا الحد بل صرت خليلاً لامرأة في سن الأربعين أقنعتني أنني فتننتها ثم أقنعت نفسي أنا أيضاً بأني شغوف بامرأة أخرى، سيدة روسية عظيمة مقيمة بباريس.

أما تلك فمن شهيرات الممثلات اللاتي يجتهدن في إحاطة أنفسهن بلفيف من المتعجبين والمتعبدين ومكافأة لهم على ذلك تسرف في اجتذابهم بضروب الغواية ظانة أنهم بذلك مأخوذون وما هم في الحقيقة في إعجابهم بها وعبادتهم لها إلا مخادعون!

بعد أن قضيت ستة أشهر تقريباً أسيراً لأهواء هذه المرأة المبتذلة التي خلت من جمال العواطف النبيلة والشعور الحي تعزيت عن أباطيل هذه الممثلة المدعية الأجنبية بالولع بفتاة فقيرة. لكن هذه أثبتت لي أنهما كليهما سواء فإنه إذا كانت النساء المبتذلات مجبولات على الكذب والعجرفة فإن هذه الفتيات وإن لم يكنَّ في ابتذال تلك إلا أن لهن عيوبهن من حقارة إلى حماقة إلى نهم قدر بالكسب. ولذلك عملت على نسيان هذه العلاقات الحمقاء بالانغماس في حمأة الميسر

عالمًا بمقدار ما يصيبني من الشقاء من هذه التسلية التي لا بد لمرارتها من الانقلاب إلى ذلك الخلق البشع وهو خلة السعي لجمع المال من غير سبيل العمل الشريف. لكنني كنت مدفوعًا بما في نفسي من الجموح والاشمئزاز إلى التغالي في كل شيء وإلى إتلاف مشاعري، على أنني لم أكن أستطيع أن أستسلم كلية إلى أي نوع من أنواع الملذات لأني كنت أعود فأشعر في حنايا قلبي بذكرى نكبة والدي التي كانت تسمم ينبوع أفكارني. فإني عندما كنت أخترق المدينة قبيل الفجر مستقلًا عربة عائدًا إلى مسكني وقد بارحته في الساعة السابعة مرتديًا لباس السهرة واضعًا زهرة في صدري ومحفظتي مكتظة بالأوراق المالية، كنت أتأمل في السماء وما فيها من غيوم تعشى النجوم وذلك القمر الهادئ كما كنت أرى الشوارع السوداء تتخللها أكاليل مصابيح الغاز فينبعث في نفسي شعور غامض بأن الوجود ليس إلا حلمًا ويدخل في روعي أنني عرضة لكارثة غامضة إذ كان من الغريب المدهش أن أتمادي في هذه المعيشة وأن أكون إنسانًا يختلف ظاهره عن باطنه! فهل هناك قدر ينوء بثقله على الكون؟ ثم كنت أقول في نفسي: "فليدفعني هذا القدر ما شاء في حومة الحياة" وأستسلم لما أنا فيه. وهكذا كنت أنام على أفكار فلسفية سوداء وأستيقظ لأسدر في هذه الخطة التي لا كرامة فيها والتي كنت أفقد فيها ليس ضميري وكرامتي فحسب بل وعزيمتي في الانتقام لذلك الشبح الذي لا يفارق مخيلتي. فمن ذلك الذي قد يساعدني على التغلب على هذا التيار؟

والدي؟ إنها ما كانت ترى من حالتي إلا بهرجاً فتهنئ نفسها بأني أصبحت كما تزعم "أليفاً". أو زوج والدي؟ إنه كان يحبذ إرادة أو كرهاً. هذا الاضطراب في معيشتي. ألم يجعلني حر التصرف في ثروتي وأنا في سن الطفرة والخطر؟ ألم يساعد بمجرد بلوغي هذه السن على اندماجي في النوادي التي كان عضواً فيها؟ ألم يسهل لي وسائل ارتياد جميع المجتمعات؟ أو عمتي؟ لا أنكر أنها كانت متأمة من خطتي لكن أما كانت تحب بل تفضل هي أيضاً أن أنسى تلك الأحقاد المشنومة النائرة في قلبي والتي طالما أفزعتهما؟ ثم إنني لم أكن أراها كثيراً كما أن زيارتي إلى "كومبيني" كانت تقل حتى أصبحت نادرة. ولا عجب فقد كنت في سن يجد فيها الشاب دافعاً للذاته ولا يجد فيها فرصة لأعظم الفروض اتصالاً بقلبه... فإذا كان هناك صوت داوٍ ضد تبدد قوتي في ملذاتي المبتذلة فهو صوت الميit الثاوي في قبره دون أن يُنتقم له. فلقد كان هذا الصوت يرتفع ويرتفع بغير انقطاع من أعماق تخيلاتي، لكنني تعودت بعد ألا أجيب عليه! فهل كان ذلك من خطئي إذ اجتمعت كل الأمور على شل إرادتي من أهم الظروف إلى أنفها؟

وهكذا كنت أكلُّ وأضنى في خدر مؤلم لم يكن يخرجني منه حتى ولا تنقلي في مختلف ملذاتي الكاذبة الخادعة. لكن صاعقة أبقتني من جباتتي وركود إرادتي، فإن عمتي "لويزه" أصيبت بشلل وكان ذلك في أواخر عام 1878 المبحزن، فقد وجدت عند عودتي

ليلاً أو على الأصب صباحاً، بعد أن كسبت بضعة آلاف من الفرنكات، خطابات وإشارة برقية ففضضت الإشارة مغنياً مدخناً دون أن يخامر فكري أنني سأدهم بحادث قد يكون بعد ما أصابني من موت والدي وزواج والدي تاريخاً ثالثاً في حياتي.

هذه البرقية وهي بامضاء "جوليا" خادمتي العجوز كانت لإخباري بمرض عمتي واستدعائي في الحال وإن كانت نجاتها موضع الرجاء. ثم علمت عرضاً أن هذا الخبر المفاجئ أشد فظاعة، ذلك أنه كان قد ورد لي من المريضة خطاب منذ ثمانية أيام شكت فيه المسكينة كعادتها تقصيري في زيارتها وكان الرد الذي وجب أن أبادر بإرساله لا يزال على مكنتي لم يكمل تحريره بعد ولا يعلم إلا الله لأي سبب تافه أهملت موافاتها به!

هكذا فطر المرء على ألا يقدر واجب حبه لمن يستحقون الحب إلا بعد حلول ذلك الزائر المشئوم وهو الموت. وهناك يندم أشد الندم على تفريطه. لذلك كان قلقي من الخطر الذي كانت الفتاة العجوز العزيزة عرضه له يخالطه أقسى أنواع تأنيب الضمير لأنني لم أبرهن لها برهنة حقيقية على شدة حبي لها وعلى أنها كان أعز لدي من كل مخلوق.

كانت الساعة الثانية صباحاً وأول قطار لا يقوم إلى "كومبيني" إلا في الساعة الخامسة فساورني أنها قد تموت خلال هذه المدة...

كم كانت طويلة مملة تلك الدقائق التي قضيتها في انتظار موعد السفر
مستعرضاً أمام مخيلتي وأنا نهَبُ للأسى البالغ، شناعة إهمالي حيال أخت أبي
الوحيدة، قريبتى الحقيقية في هذا العالم!

نعم، فإن احتمال حرمانى منها كان يقنعني بأني مسرف في نكران الجميل. ثم
ازدادت بلبله خاطر التي استولت على رأسي المتعب وأنا في القطار الذي كان
يجتاز في ضوء الفجر الضعيف تلك المناظر الطبيعية التي طالما اجتزتها فيما سبق
فكنت أعود فأتذكر نفسي عند رؤيتي تفصيلات هذه المناظر مذ كنت طالباً
أذهب هناك مفعم القلب بشفقة لا تروى فيثقل رأسي عبء هذه المهمة الهائلة
التي أنا ذاهب لتأديتها.

كانت أفكارى أسرع مروراً بمخيلتي من القطار بل كنت أرى القطار بطيئاً
أمام رغبتى في سرعة الوصول. كما كنت أتخيل أمام عيني هذا الوجه المحبوب
الظاهر وذلك الفم ذا الشفتين الكبيرتين وتينك العينين المملوءتين بكثير من ينابيع
الطيبة يحيط بهما جفنان أذبلهما طول عهدهما بسكب الدموع!

في أية حال سأراها؟ قد يظن أني لولا ما أصبت طول هذه الليلة
من تأنيب الضمير، ذلك الاضطراب النفساني الذي قتل أعصابى وهي
سريعة التأثير كما تفتل الحبال، نعم قد يظن أني لولا أني عانيت ذلك لما
استطعت أن أتحمل الحقائق التي بلغت من النصوص مبلغاً يطير

له الفؤاد شعاعاً أمام سرير الموت، تلك الحقائق التي ناءت بثقلها على نفسي
حتى أودت بي إلى عصيان تقية على أبواب الأبدية تعالج حشرة الموت... ولكن
أني لي أن أندم على هذا العصيان وهو الوحيد الذي بلغ بي سبيل الحقيقة؟ كلا،
لن آسف بل إني لأفضل أن أكون قد فعلت ما فعلت.

(8)

وجدت العجوز جوليا في انتظاري بالمحطة وكانت ضعيفة البصر منهوكة القوى وجهها أوسع فرطحة وأكثر تجعدًا وشفتها أكثر غورًا ولكنها كانت على ما عهدتها، الصالحة الأمانة جوليا كما كانت على عاداتها من مخاطبتي بغير تكلف. وبالرغم من ضعف عينيها، وقد بلغت السبعين، أسرعت نحوي عند نزولي من عربة القطار وأخذت في الحال تكلمني كما كانت تفعل عادة بغير انقطاع بمجرد ركوبنا العربة المكتراة التي كانت عمتي ترسلها إليّ منذ طفولتي الأولى، فتذكرت تلك العربة العتيقة كما عرفت الحوذي وطالما رأيته وهو رجل ضئيل الجسم بشوش الوجه ذو عينين يرمشهما الخبث كثيرًا لكنه كان بادي الحزن. فأخذت العجوز "جوليا" تقص عليّ ما ألم بعمتي بينما كانت العربة تنخفض وترتفع بثقل خلال الطرق:

"إنما أصابها ذلك بالأمس، ولكن ذلك كان لا بد آتٍ... وأن المسكينة قد أخذت تتغير منذ أسابيع... تلك المسكينة على ما هي عليه من الائتمان والعذوبة والعدل والشفقة قد تغير خلقها، فأصبحت تعنف وتشكل في كل إنسان... انعكست تصوراتها، ما

هذا؟ لا تسمع منها إلا حديث قطاع الطريق والقتلة... كانت تظن أن المتعهدين جان ومارييت وأنا نفسي نريد بها شراً... نعم حتى أنا نفسي... كانت تنزل كل يوم إلى الكهف فتعد زجاجات النيذ وتعيد عددها في ورقة وفي اليوم الثاني كانت تكرر ذلك فتجد الحساب صحيحاً ولكنها كانت تؤكد أن الورقة ليست ورقة أمس، بل كانت تتجاوز ذلك إلى إنكار كتابتها نفسها... وكنت أريد أن أبلغك ذلك عندما حضرت في المرة الأخيرة لكنني لم أكن أجروءاً لأنني كنت أخشى أن أذكر كما أنني كنت أظن أن بها مساً من الجن وأن ذلك سيزول. وأخيراً نزلت بالأمس ساعة تناولها الغداء قصد مؤانستها ونزولاً عند إرادتها لأنها في الحقيقة تحبني كما تعلم حتى وهي مريضة... فلم أجدها، فبحثت عنها أنا ومارييت وجان في كل مكان فلم نعثر عليها حتى أن ذلك الأخير جاءته فكرة أن يفك الكلب الذي قادنا مباشرة إلى مخزن الحطب وهناك وجدناها ملقاة بطولها على الأرض... كانت قد ذهبت بغير شك للتفتيش على الحطب... فحملنا الأنسة العزيزة المسكينة فوجدنا فمها ملتويًا ووجدنا نصفها الطولي لا يتحرك... وقد أخذت تتكلم... فظننا في بادئ الأمر أنها قد جُنَّت، لأنها كانت تنطق بكلمات متنافرة المعاني بحيث لم نفهمها لكن الطبيب يزعم أنها مالكة قواها العقلية وفقط تنطق كلمة بدل أخرى... كما لاحظنا أن صبرها ينفد عند عدم إطاعتها... وقد أيقظتها في هذه الليلة فطلبت إليّ دبابيس فأحضرت لها بضعة منها فحنقت... فهل تتصور أنها كانت

تسأل عن الساعة؟ وأخيراً لكثرة ما سألتها أدركت من الحركات التي كانت أدركت من الحركات التي كانت تأتيها بيدها اليسرى التي بقيت طليقة أنها كانت تريد معرفة الساعة لا الدبابيس... آه! لو كنت تعلم كم كانت قلقة مضطربة طول هذه الليلة بسببك؟ فقد نطقتُ باسمك أمامها فلمعت عينها وهي لا تفتأ تكرر كلمات وكلمات... قد تظنها تهذي، لكنها تناديك... أتعلم لم أصابها هذا المرض؟ إنما أصابها بسبب تلك الأفكار التي كانت تخلقها، تلك الأفكار التي تتعلق بوالدك المسكين. والتي لم تكن تتكلم في الأسابيع الأخيرة إلا بها ولم يكن لها شاغل سواها. كانت تقول: "بشرط ألا يقتل أُنديره أيضاً. أما أنا فعجوز وأما هو ففي فجر شبابه وهو بالغ غاية الطيبة والدعة!" وكانت تبكي بغير انقطاع أما أنا فكنت أردُّها إلى الصواب إذ أسألها: "ومن ذلك الذي تظنينه يسعى إلى إيذاء أُنديره؟" فكانت تبتعد عني بتحرز لكني كنت مدركة أنها في حالة هذيان لمرضها... "وقد قرر الطبيب أنها تظن نفسها مضطهدة وأن هذا من صفات هذا المرض كما قال إنه سيأتي عليها وقت لا تستطيع فيه الكلام إلا أن شفاءها مستطاع...".

كنت أصغي إلى ثرثرة "جوليا" دون أن أجيّب بكلمة. أما إن عمتي "الويزه" قد تكون في بدء مرض عقلي، فهذا لم يكن يدهشني بعد ما عانت من الأكدار والآلام، كما أنني كنت أتوقعه من تلك الأحوال الغريبة التي لاحظتها في حالتها نحوي عند زيارتي الأخيرة لها. فقد

سبق أن أدهشتني عندما طالبتني بالحاف وإصرار شديدين بكتاب من كتب أبي مع أي لم أخذه ولم أفكر قط في أخذه حتى اضطرت للبحث عنه ووجدته تحت نضيد من كتب أخرى كأنها خبئت عمدًا أسفل دولاب. لكن حديث جوليا المسهب كان من أثره أن كشف لي عن حقيقة الحالة التي وقعت فيها هذه الفتاة العجوز الوحيدة التي كنت أظنها في حالة من حالاتها الغريبة التي سببها شدة إمعانها في التدقيق على أبي لم أكن أستطيع أن أبحث الأفكار التي كانت تبديها عمتي خاصة بموت أبي بتلك الفلسفة التي تكلمت بها مربيتي العجوز. وما هي هذه الأفكار؟ حدث عدة مرات أن شعرت شعورًا غامضًا أثناء محادثاتي مع عمتي أنها لم تكن توليني مكنون قلبها جميعه. وعنادها الذي حاربت به مشاريعي في البحث بشخصي قد يكون صادرًا عن شفقتها التي تنحصر في التأفف من كل رغبة في الانتقام. لكن هل هذه الشفقة هي كل ما في الأمر؟ شدة اهتمامها بطمأنيني وإكراهها إياي على حمل سلاح أثناء الليل وتشديدها بالأبقى في عربة خالية عندما أستقل قطار السكة الحديدية ونصائحها الأخرى التي هي من هذا القبيل فضلًا عن شدة فزعها على حياتي فزعًا يكاد يكون الجبن بعينه، كل ذلك بغير شك أساسه التهيج المرضي. على أنه قد تكون هذه الأخطاء كذلك مرتكزة على أساس أقل إبهامًا مما تصورته. فقد لاحظت مع شيء من الوجمل أن هذه المخاوف الغريبة قد اشتدت على أثر الحالة التي أصبحت فيها عاجزة عن السيطرة على أفكارها

وعواطفها. لكني قلت في نفسي: "دعك من هذا. أما قد أشبهها؟ أو ليست هذه الأفكار الثابتة طبيعية عند إنسان متعب الرأس بما أصابه من إساءة وعزلة وجفاء، إنسان فقد شقيقًا محبوبًا إلى حد العبادة في ظروف خفية مفاجئة؟" وبينما كنت أسمع "جوليا" معللاً حديثها بالرغم مني، باحثًا ومنقبًا في ثناياه وإذا بنا قد بلغنا منزل عمتي، منزل الفاجعة الحقيقي، وكان ذلك في صباح يوم من شهر ديسمبر وعدت فرأيت أمامه الغابة المشنومة في الأفق خلال الغيوم التي كانت تغطي السماء بلونها الكامد في تلك المدينة الصغيرة التي كان يخيم عليها أشد أنواع السكون اكتئابًا، سكون البادية في الشتاء.

فلما نزلت من العربة قفز الكلب أمامي، وهو كلب هائل من كلاب "التير نوف" تتخلل لونه الأسود بقدر بيضاء كنت قد سميتته مزاحًا "الدون جوان" بالرغم ممن سخط عمتي "لويزه" فدفعته بشيء من القسوة لما بي من شدة الضيق مما بلغني عن الحالة التي توقعت أن أجد المسكينة عليها وأخذت أنتهب درجات السلم فلما دخلت حجرتها أوقفتني الخادم الجالسة عند سريرها بحركة وأنا على عتبة الباب وأشارت لي بأن عمتي نائمة فدخلت إذن بخطى خفيفة لكيلا تستيقظ وجلست في مقعد في زاوية أمام المدفأة أنظر المريضة نائمة ووجهها متجه إلى الحائط في وسط ذلك السري القديم ذي الأعمدة

المستقيمة الذي كان سرير جدتي في مدينة "بروفانس" منبت عائلتنا وكانت ستائر سريرها تخفي عني نصفها. فكنت أسمع أنفاسها القصيرة السريعة وأنظر إلى تلك الحجرة التي اعتدت دخولها والتي كتبت فيها خطاب التهنئة لزوج والدي وقت زواجه. وقد أصبح لون هذه الستر ذابلاً ذبول ألوان جميع ما كان موجوداً في هذه الحجرة من الأثاث التي جمعتها الأنسة العجوز التقية وبالغت في العناية بها.

كان الفرق واضحاً بين مسكني بصفتي رجلاً من الطراز الحديث وهذه العزلة الهادئة. على أي شيء لم أطل التفكير في هذا كثيراً بل انصرفت عنه فجأة إلى التفكير في سواه لكيلا أشعر بذلك الفارق وبذلك التأنيب الصامت الذي كان يبدو أمامي من حجرة المريضة التي أصبح جوها تفتهاً برائحة الأعشاب المغلية بدلاً من أن تحيي الروائح العطرية الغضة التي تعزها عمتي.

كم أنبني ضميري خلال نصف الساعة التي أمضيتها على هذه الحال أسمع أنفاسها وهي نائمة وأفكر في حياتها وحيداً بجانب المدفأة التي كانت تشتعل فأسمع حركة اشتعالها الخفيفة! كم أصرت على الحضور هنا لأقضي بجانبها أسابيع طويلة عندما تتحسن حالها! لم أكن أستطيع، بل لم أكن أريد أن أرضى أن تكون في خطر الموت منتظراً بفارغ الصبر الدقيقة التي تستيقظ فيها لأستغفرها وأظهر لها كم حبها وإذا بها تنهدت فجأة تنهداً أشد من تنهداتها الأولى ورأيتها

وقد رفعت ذراعها السليم وحركته عدة مرات من الأسفل إلى الأعلى بحركة يشتم منها شيء من اليأس. فقالت لي "جوليا" وكانت قد حلت لدى سرير المريضة محل الخادم الشابة: "ها هي قد استيقظت" فاقتربت من عمتي وناديتها باسمها ورأيت وجهها المسكين وقد أثلفه الشلل فالتوى إلى الجهة اليسرى فعرفتني ولما انحنيت عليها لأقبلها لمست بيدها السليمة خدي. داعبتني تلك المداعبة التي كانت من عاداتها عدة مرات ببطء. فأرحتها على ظهرها بمساعدة "جوليا" لأنها كانت تصادف عظيم المشقة في الالتفات إلى الجهة اليمنى بنفسها. فاستطاعت أن تراني وجهًا لوجه فنظرتُ إليَّ طويلاً فانحدرت دمعتان من عينيها اللتين قرأت فيهما حنانًا بالغًا وقلقًا عظيمًا وشفقة يعجز اللسان عن وصفها فكانت إجابتي دموعًا غزيرة مسحها بيدها.

أرادت أن تكلمني فلم تستطع إلا أن تقول جملة مرتبكة انشقت لها فؤادي. فأدركت أنني لم أفهمها فجاهدت جهادًا لتجد من الكلمات ما تترجم به أفكارها وكانت قبلُ واضحة القول فصيحة ثم عادت فنطقت جملة لا يدرك مغزاها وإذ ذاك أدركتها حركة الضعف المشوب بالألم على أنها قد بدا عليها التشجيع عندما سألتها قائلاً: "ماذا تريدين مني يا عمتي العزيزة؟" فأشارت لي بما أدركت منه أنها تريد خروج "جوليا" وما كدنا نبقي وحيدتين حتى تغير وجهها واستطاعت بمساعدتي أن تدخل يدها تحت وسادتها فأخرجت حلقة المفاتيح فعزلت منها واحدًا وأشارت إليَّ بحركة أن أفتح قفلاً فتذكرت تلك المخاوف

الخيالية التي كانت تساورها فتجعلها تظن أنها سرقت فسألتها ما إذا كانت تريد أن أفتح بهذا المفتاح الصندوق الصغيرة ذات القفل المضمون فأبرقت عينها واستطاعت ان تقول: "نعم"، فسألتها مرة أخرى عن موضع هذه الصندوقة فأجابتنني بكلمات عجزت عن إدراك معناها ولما أن رأيتها قد عاد إليها تهيج أعصابها المؤلم توصلت إليها أن تسمح لي بالاستفهام منها وأن تكون إجاباتها بحركة لا بكلمات فبعد بضعة دقائق توصلت بمشقة إلى تكييف هذه الإشارات واستكناه مرماها، أدركت أنها تقصد خزانة صغيرة مخبوءة داخل أحد الدولابين الكبيرين الموجودين في الطابق الأرضي وأن تلك الخزانة تفتح بمفتاح أيضًا في حلقة المفاتيح فنزلت تاركًا عمتي وحيدة كما رغبتُ فلم أصادف نصبًا في استكشاف الخزانة الصغيرة التي وجدت أن المفتاح يفتحها كما وجدتها مخبوءة بعظيم العناية خلف علبة القبعات وأكياس تحوي أواني فضية وهي مصنوعة من خشب عطري مستطيلة الشكل منقوش عليها بحروف من الذهب الأبيض والأحمر هذان الحرفان: ج.ك! جوستان كورنيليس...! إذن هذه العلبة كانت لأبي، فافترضت أن هذه الخزانة الصغيرة، التي وإن كانت في صنعها دقيقة إلا أن صانعها لم يبلغ غاية المهارة، كانت قد أهديت إلى والدي مقابل خزانة تشابهها منقوشة عليها الحروف المبدوء بها اسم من أهديت إليه وأن مهديتها إلى والدي صديقة كانت قد طلبت إليه أن يودع فيها خرائد عطف قلبي كبطاقات معطرة وخُمر كان الصديقان يغطيان بها

وجهيهما أثناء كانا يتنزهان سعيدين في البادية وطاقات ورد جفت وصور فوتوغرافية أعدمت زجاجاتها السلبية لتبقى سرّاً عند حائزيها. فهل هذه الصديقة هي تلك المرأة التي توهمت ضلالاً بأنها شريكة في جناية النزل الملكي؟ كذلك افترضت أن أبي وقد تزوج لم يرد لا إعدام ولا الاحتفاظ عنده بهذا التذكار الذي يتعلق بماضٍ قطع صلته به إلى الأبد ولذلك أودعه عناية عمتي به... على أي لم أتطوح في هذا التعليل طويلاً بل عالجته فتح الخزانة لأتأكد أن المفتاح مفتاحها ورفعت الغطاء متوقعاً بل مقتنعاً بأني سأجد أضياب من الأسهم المالية وبضعة من الجواهر ومقادير من الدنانير أي كنزاً صغيراً خبأته المسكينة في هذه الخزانة خشية تقلبات الزمن. لكنني بدلاً من هذا وجدت حزمًا ملفوفة بعناية فأخذت منها واحدة فرأيت مكتوباً على غلافها: "خطابات من جويستان..." وألفيت مثبوتاً عليها تاريخ العام. ثم ألفيت نفس هذه العبارة على الحزمة الثانية والثالثة والرابعة.

هذه هي مراسلات أبي وقد حفظتها عمتي بتلك العناية وذلك الإيمان لكيلا يضع أو يتلف أقل شيء لمن كان موضع أعمق عطف في قلبها طول حياتها. فلماذا إذن لم تكلمني قط عن هذا الكنز وهو أعلى عندي من كل ما سواه؟ ناجيت نفسي بهذا السؤال وأنا أغلق الخزانة. ثم ساورني أنها قد أرادت ألا تعترف بهذه الخطابات إلا في آخر دقيقة من حياتها.

وصعدت حاملاً هذه الصندوقة إليها. وما كدت أتخطى عتبة حجرتها حتى قابلت نظراتي نظراتها فقرأت في عينها مللاً وقلقاً مهلكين. وما كادت تجد الصندوقة على سريرها حتى فتحتها وأخرجت منها الحزم واحدة بعد أخرى حتى انتهت بأن عزلت حزمة واحدة وأرجعت تلك مكانها وأقفلت الصندوقة وأشارت لي بوضعها على خزانة الملابس.

وبينما كنت أهيئ مكاناً أضع فيه الصندوقة بين الأشياء التافهة المكدسة على الدولاب تنفيذاً لإشارتها لمحت المريضة في المرأة وقد اتجهت بجهد خارق إلى الجهة الأخرى وعالجت بيدها الطليقة من الشلل قذف الحزمة التي استبقتها في المدفأة الكائنة إلى يمين سريرها من جهة رأس السرير على بعد متر تقريباً. لكنها ما كادت تستطيع بعظيم الجهد أن ترتفع قليلاً حتى خارت قوتها فلم تصل الحزمة إلى النار بل سقطت على الأرض فأسرعت نحوها لأريح رأسها كما كانت على الوسادات وجسمها في وسط السرير فبدأت بذراعها الطليق الضعيف تحول إبداء حركة محزنة جاهدت فيها جهاداً عنيفاً مدخلة أصابعها النحيلة في غطاء السرير لتستطيع رفع نصفها الأعلى ولكنها وقد عجزت سالت الدموع من جديد غزيرة من عينها المسكينتين.

ما أشد خجلي لما سأسجل هنا على نفسي! على أي سأسجله إذ أقسمت لنفسي أن أكون صادقاً في تسجيل كل الأمور حتى ما كان

منها أشد من هذا خطرًا خصوصًا ولم يتعذر عليَّ إدراك ما كان قد مرَّ برأسي
المريض التاعس:

فمن الجلي أن الحزمة الصغيرة التي سقطت على البساط بين المدفأة
والمنضدة الصغيرة كانت تحوي خطابات كانت تريد أن تعفي آثارها إلى الأبد
حتى لا أقرأها فأقع تحت سلطانها المشنوم لولا ما أعلم من عظيم حبها
وتقديسها لجميع الأشياء الخاصة بأبي. ألم أرها تحتفظ حتى بالناشافة التي كان
يستعملها أبي عند زيارته "كومبيني" كما كانت تحتفظ بالمظاريف التي كانت
موجودة وقت زيارته الأخيرة؟ نعم لا بد أنها انتظرت وانتظرت قبل أن تفارق، إلى
الأبد، هذه الخطابات العزيزة الخطرة لكن المرض فاجأها فساورها شديد القلق
من خطر بقاء هذه الخطابات تحت يدي. ثم إني قدرت أن ارتيابًا لا يسوغه
العقل سببته حالتها في دقائق حياتها الأخيرة منعها من تكليف "جان" أو "جوليا"
بمهمة إحضار هذه الخزنة لذلك أدركت في تلك اللحظة نفسها كنه ما استولى على
هذه المرأة المسكينة من رغبة بالغة في حضوري، رغبة بلغت أقصى حدود الملل
كما أدركت سر الاضطراب الذي ألفتها فيه. والآن قد خانت قواها. عندما حاولت
عبثًا أن تلقي بالخطابات في النار، تلك النار التي كانت تسمع زفيرها دون أن
تستطيع الجلوس أمامها حتى ولا رؤية استعارها الذي طالما رغبت في الاصطلاء
به.

انتهت هذه الاستنتاجات التي بدت في مخيلتي فجأة إلى أن تكونت فتحوّلت عاطفة قوية من الشفقة أمام ما أصاب هذه المرأة التاسعة من الآلام المفترسة فقلت لها بأسطاً عليها غطاءها حتى بلغ كنفها: "لا تنزعجي ولا تحزني يا عمتي العزيرة، إني سأحرق هذه الخطابات".

فنظرت إليّ بعينين ملؤهما التوسل المشوب، بالقلق فأقفلت حدقتيها بشفتيّ مقبلاً هاتين العينين، وانحنيت لالتقط الحزمة الصغيرة فقرأت بوضوح على الورقة التي غلفت بها: "عام 1864- خطابات جويستان".

عام 1864! إن هذا العام هو آخر أعوام حياة أبي!

إني لأشعر ببشاعة ما أتيت به في تلك اللحظة، أشعر أنه من أفضح الأمور لأن رغبات الموتى الأخيرة فروض مقدسة مهما كانت. حقاً، ما كان يجمل بي أن أخدع تلك التي كانت تعاني نزاع الموت وكنت أسمع زفراتها وأنفاسها تشتد بسرعة واضطراباً.

لكن ما حيلتي وقد تكدست الهواجس في رأسي بأشد مما أحتمل... فإنه ما دامت عمتي متمسكة بشغف، بل بجنون بإحراق هذه الخطابات فما ذلك بلا ريب إلا لأنها قد تفتح أمام عيني سبيل الانتقام...

إنها مراسلات أبي في السنة الأخيرة من حياته ولم يسبق لها هي أن كلمتني

عنها!

هكذا تكذبت، بل هجمت، بل استولت تلك الأفكار والتعليقات على رأسي
المسكين فلم أعقل ولم أتردد، مرت برأسي كالبرق خاطرة هي أني قد تيسر لي أن أدرك...
أدرك ماذا؟ لم أكن أدري، ولكني أدرك...

"وبدلاً من أن ألقى بهذه الخطابات في النار ألقى بها بجانب المدفأة تحت
مقعد" وجئت فانحنيت على المريضة وبصوت عالجت أن يكون ثابتاً هادئاً قلت
لها: "إن رغبتك قد نفذت وها هي الخطابات تحترق في النار". فأمسكت يدي
وقبلتها!

ما أشد ما آلمتني هذه المداعبة! فقد جلست إلى سريرها مخبئاً وجهي في
أغطيته لكيلا تقابل نظراتها نظراتي. لكن وا أسفاه! لم يطل بي زمن الخوف من
تسلط نظرها عليّ. فقد عاد إليها في الظهر اضطرابها شديداً وجاء القسيس في
الساعة الثانية فباركها بعد أن لقنها الأسرار المقدسة الأخيرة ثم أصابتها نوبة
أخرى عنيفة حوالي المساء أفقدتها كل إدراك وأسلمت الروح ليلاً...

أيتها الفقيدة العزيزة، هل ستغفرين لي إن كذبتك الحقيقة في ساعتك
الأخيرة وقد كنت تريد أن أقرأ قط هذه الخطابات المشثومة التي بدأت
فأنارت لي الماضي، بنور هائل، وقد كنت تؤلمين أن تحولي دوني وشكوك أمعنت في
تعذيبك أنت نفسك زمناً طويلاً.

ما أعظم عطفك وحنانك، أيتها العزيزة، فإنك حتى وأنت على سرير موتك لم
تكوني تفكرين إلا في هنائي وطماننتي!

أيتها العزيزة، هل ستغفرين لي أن أذهب هباءً بكذبي نتيجة ما دفعك إليه
بعد نظرك حتى في ساعة النزاع التي كنت تتجرعين فيها كأس الموت مريراً؟
أيتها الفقيدة الوديدة الشفيقة، إنه لفرض عليّ أن أناجيك وأستغفرك وإن
كنت لا أعلم إذا كنت تستطيعين أن ترينني اليوم أو تسمعيني أو على الأقل
تشعرين بما يعذب قلبي من التأثر والحب لك ولذكراك.
انظري إليّ إني لفي منتهى الخجل من أن كذبتك في حين أنك، أنت، لم تفكري
إلا في أن تكوني أبرّ مخلوق بي، في حين أنك قد أغدقت عليّ من حنانك وحبك ما
لم يمن عليّ به سواك.

نعم، إني لمدين بأن أناجيك معترفاً بذلك، أيتها الشفيقة التي ثوت تقيّة
بيضاء في أكفان بيضاء.

فإذا فكرت فيك فلن يخالجنني نحوك سوى ندامتي على تقصيري في إعزازك
كل الإعزاز حينما كنت على قيد الحياة، وعلى خيانتني لآخر عهد تعهدت به إلى
روحك الطاهرة.

إني لأراك بعينيك اللتين تشهدان بطهارة قلبك، بخلو هذا القلب الشريف
من كل شائبة ولكن ما أكثر ما تشهد به تانك العينان من قروح في هذا القلب
الملكوم!

نعم، كنت تصفحين عني وببيدك اليمنى تداعبين خدي، تلك

المداعبة الحزينة بل أشد تلك المداعبات حزنًا وهي التي تعطفت عليَّ بها قبل
ذهابك في تلك الظلمات التي تعجز الأصابع فيها عن الحركة، والدموع عن
الانسكاب.

لو لم يداهمك الموت ولو لم أعص رغبتك القسوى لحملت معك في حنايا
الأرض سر ما طالما عذبك من ريب!

أيها الشبح المسكين، أحقًا إنك لن تستطيع منذ الآن أن تلومني لشغفي
الشديد باكتشاف السر ولا لما استولى على نفسي من آلام؟

إن على نفوسنا لقدرًا متسلطًا يريد أن يبدد الضوء حالك الجريمة وأن تنال
العدالة قسطها وأن يأتي المنتقم!

ولكن بأية طريق؟

إن قوة القدر لهي بها عليمّة تتخذ في عملها للقصاص أسلحة بالغة في
الغرابة.

لقد قضي يا شقيقة والدي التقيّة أن إخلاصك لذكراه العزيزة إخلاصًا هو
العبادة يوقظ في نفسي رغبة كادت تخمد.

أيتها الروح المخلصة، أيتها الروح القلقة، لا تؤنّبيني لما مزق قلبي من
تعذيب، ولا لإخلاصي المفجع الذي فيه أفنيت شبوبيتي! واستريحي! استريحي!
ولييسط السلام ظله الوارف على القبر الذي تنوين فيه أنت وأبي في هذه المقبرة،
مقبرة "كومبيني" التي لا بد ستضميني أنا الآخر. وربما كان ذلك غدًا!

(9)

كانت وفاة عمتي حوالي الساعة التاسعة مساءً وقد أقفلت لها عينيها
ومكثت مدة طويلة أسكب الدموع سخينة. وفي الساعة الحادية عشرة جاءتني
العجوز "جوليا" وأكرهتني على النزول إلى غرفة الطعام لأتناول ما أسد به رمقي
لعلمها أنني لم أتناول منذ الصباح إلا فنجاناً من القهوة.
ما أشأمه طعاماً تناولته في تلك الحجرة ذات الحوائط المزينة بالأطباق
القديمة والتي كثيراً ما جلست فيها أمام فقيدتي المسكينة المحبوبة! وكان
أمامي على المائدة مصباح يضيء الخوان دون أن يبدد ضوءه ظلمة الحجرة
بأكملها. وكنت أسمع زفير النار المشتعلة في المدفأة فأتذكر أيام طفولتي التي
كنت فيها أشوي الكستناء في النار بعد أن أشققها خشية أن تفرقع. ثم كنت
أنظر إلى "جوليا" وهي تكفكف بطرفي مئزرها الأزرق وابل الدموع
التي كانت تغطي خديها المتجعدين. وإني وإن مرت عليّ في حياتي ساعات
أفزع إلا أنني لم أصادف ما صادفته في هذه اللحظة من الآلام المفجعة.
لذلك أستطيع أن أعترف لنفسي بعدل، بأن الأسى الذي حلّ بقلبي المكلموم
بموت عمتي بدأ يمحو من ذاكرتي كل ما سواه من مشاغلي. فإني لم أفكر

لحظة طول هذه الليلة المأتمية في فض حزمة الخطابات التي تملكها بأكدوبة
بالغة في الحقارة، بل قد نسيت حتى وجودها بالرغم من أني قد عنيت بعد
الظهر بالتقاطها ووضعها في حجرتي. وماذا يهمني الآن شغفي الشديد بمعرفة
أسرار هذه الخطابات بعد أن فقدت إلى الأبد المخلوق الوحيد الذي كان يحبني
حبًا لا تشوبه أقل شائبة؟ إن الأسى لموت عمتي كان يكاد يقطع نياط قلبي. وقد
أردت أن أسهر عليها هزيعًا من الليل فقد عزَّ عليَّ أن أفارق هذا الوجه الساكن
الذي طالما قرأت فيه الشفقة المطلقة ولم أعد أرى فيه إلا تقاطيع يابسة وشفتين
مضمومتين وحدقتين منخفضتين ونوعًا من كآبة محزنة لم أرها على وجه ميت
آخر! فإن الأفكار المحزنة والهواجس الشديدة التي سممت قلبها وهي صامتة
صابرة قد ارتسمت على هذا المحيِّ فأظهرته على حقيقته. لذلك دفعني ما قرأته
في هذا الوجه من آلام مبرحة إلى البحث والتنقيب منذ تلك اللحظة عن سببها
الخفي في الخطابات التي شغلت فكرها وهي على حافة الظلمات الخالدة. ولكن
كيف أستطيع أن أتلمس في نفسي قوة التدليل والتكليف أمام هذا الوجه الآم!
ناجيت نفسي أن هذا الفم لم يسمعني إلا كلمات عذبة وإنه لن يفوه ببنت شفة
بعد الآن. وأن تينك اليدين لم تمتد نحوي إلا مداعبتين وأن هذه العريزة لن
تعانقني وتحضنني. وهكذا تجمعت عوامل اليأس في نفسي لدرجة أثارَت فيَّ دهشة
ممزوجة بعظيم الفرع. فإننا أمام ميت كان موضع حبنا وإعزازنا، نلاقى عظيم

المشقة في الإيقان بأنه مات حقًا وأصبح في عالم الفناء أنه كان ذا قلب بنبض
وعقل يتلأأ وروح تحب!

كانت إحدى الراهبات ساهرة على عمتي، بالقرب مني، تقرأ صلوات فتركت
نفسى أكرر معها صيغًا لم أكن قط أؤمن بها. وكنت أتذكر كم مرة اضطرت
الفقيدة المسكينة أن تنطق بهذه الصلوات راجية لي من الله السلم والهناء.
وعند الساعة الثالثة صباحًا جاءت "جوليا" لتحل محلي عند سيرير الفقيدة.
فدخلت حجرتي وكانت بنفس الطابق الذي فيه حجرة عمتي، فألقيت بنفسى
على سيريري منهوك القوى. لكن الطبيعة تغلبت على آلامي فنمت ذلك النوم
الذي يعقب فقدان القوى العصبية فيستيقظ الإنسان بعده مستردًا قواه قادرًا
على الحياة من جديد وتحمل ما كان يظنه مستحيل التحمل.

عندما استيقظت وجدت نفسي في راحة النهار وكانت السماء عابسة كسماء
الأمس بل أشد عبوسة، تخيم بغيومها الحالكة على الحديقة القاحلة. فذهبت إلى
النافذة وتأملت طويلًا في ذلك المنظر الطبيعي المشؤم الذي كانت تحده الغابة.
إني أدون هذه الأمور التافهة ليتيسر لي أن أسترجع شعوري
الصحيح في تلك الآونة. ولما أن عدت إلى المدفأة لأدفي يدي
وقع نظري على حزمة الخطابات التي سرقتها من عمتي، أقول

"سرقته" لأنها كلمة حق... وكانت هذه الحزمة ما تزال في مكانها حيث وضعتها بالأمس مسرعًا على رخامة المدفأة بين محفظة نقودي وحلقة مفاتيحي وعلبة سجائري. فأمسكتها مضطرب القلب مدرِّغًا من تفكك ثنيات رباطها أنها كثيرًا ما فضت وحزمت.

كنت أستطيع حتى تلك اللحظة إصلاح كذبي الأثيم الذي خدعت به الفقيدة وهي على أبواب الأبدية فأمد ذراعي نحو المدفأة فتصبح تلك الأوراق طعامًا للنار فأحرق آخر رغبة للفقيدة لكنني جلست فسلطت نظري بضع دقائق على تلك النار التي كانت تتأجج صفراء ثم رُزَّتْ في يدي تلك الحزمة فحكمت من ثقلها أنها لا بد تحوي كثيرًا من الخطابات فوقفت فريسة أفضع تردد!

لا أحاول تبرير ثاني خيبة أصابني في أمانتي لكنني أحاول فهم كنهها... كلاً، لم تكن قط هذه الخطابات لي فلم يكن لي إذن حق امتلاكها بل كان فرضًا محتتمًا إعدامها دون فضها وعلى الأخص بعد أن زال ذلك الشغف وتلك الهواجس التي استولت عليَّ فجأة في اللحظات الأولى دون طاعتي لتوسلات عمتي الفلقة.

لكن لماذا كان يشوب القلق توسلاتها؟ ساءلت نفسي من جديد هذا السؤال بينما كنت أعود فأقرأ ما سطرته عمتي على غلاف الحزمة وهو "خطابات جوستان - عام 1864".

ما أشأم هذه الحجرة التي تردت فيها حائراً بين واجب التقوى المحتم وبين
شغف الاطلاع!

كانت هذه الحجرة فيم سبق حجرة أبي ولم يتغير أثارها بالرغم من أن الزمن
قد أشعب ألوان الأقمشة الزاهية التي كانت وضعتها عمتي بها ليمتع والذي بها
ناظره، فقد تدفأ والذي بهذه المدفأة في صبيحات الشتاء وهي في برودة
هذه الأيام وسوادها وجلس مفكراً على المقعد العتيق الذي كنت جالساً فيه
وسمع دقائق هذه الساعة الثاوية في صندوقها المرمرى الأبيض التي أسمع أنا
الآخر دقائقها في لحظة اضطرابي هذه وفي هذا الكهف، على هذا السرير الذي
كنت نائماً به الليلة، نام أبي طفلاً ورجلاً وعلى هذا المكتب كان يشتغل!

كلا، إن هذه الحجرة لم تتركني حر التصرف بل كانت تعيد إلى مخيلتي صورة
أبي أكثر حياة. كنت أتصور كأنما شبح القتيل قد خرج من قبره ليتوسل إليّ أن
أبقى على العهد الذي قطعته على نفسي وأقسمت عليه مراراً بالانتقام له إحياء
لذكره. فإذا لم أنل من هذه الخطابات سوى معرفة ظروف أبي في حياته الخاصة،
لما كان في استطاعتي حيال ذلك أن أتردد لحظة. وماذا تهمني تلك الخزعبلات
التافهة التي تنحصر في احترام ما لم يكن بغير شك إلا آخر خطرات خيالية
لمريضة!

هكذا أرصدت هذا البرهان الدنس لأدمر به ما بقي في نفسي من تقوى على أي لم أكن في حاجة إلى براهين لأخضع إلى حمى رغبة كانت تشند ازديادًا في نفسي أن هذه الخطابات هي آخر ما خطته يده والتي قد تكشف لي حقيقة حياته الشخصية حتى أمس الجناية الدامية التي وقعت عليه. فكيف تقع تحت يدي ولا أقرؤها؟

إن هذا ليكون مدهشًا! كفى ما أنا فيه من تردد جدير بالأطفال! وهكذا اقتحمت حمزة الخطابات ففضضتها فاضطربت الأوراق بين أصابعي! وجدتها قد اصفرّ لونها وبهتت كتابتها لطول الزمن. لكنني عرفت كتابة والدي، وهي بحروف مربعة واضحة، ووجدت أنه كان قد أهمل تواريخ تحريرها فأثبتتها عملي.

مسكينة تلك العمة التي يدل إيمانها بهذه العناية على مبلغ عطفها وحبها لأخيها والتي لم يدر بخلدي في حالة التهيج الجنوبي الذي انتابني أي كنت على قيد خطوتين من حجرتها المأتمية!

وأنتني "جوليا" في هذه اللحظة طالبة أن أمدّها بالتعليمات الخاصة بشؤون الجنازة فأجبتها أي في شدة الإعياء وأريد أن أترك وحيدًا في هذه الصبيحة ولها أن تفعل من الترتيب ما تشاء. ثم انهمكت في المطالعة انهماكًا أنساني الوقت وما كان يدور حولي من الحوادث، بل وأنساني تناول طعامي وارتداء ملابسني حتى فرض الذهاب لرؤية فقيدتي بينما كان في استطاعتي أن أمتع ناظري بمحياها...

نعم، مسكينة أيتها العممة التي بلغت حياها غاية الجحود بل واقتربت أفضح
خيانة!

وما كدت أقرأ الصفحات الأولى حتى أدركت السبب الذي من أجله أرادت
عمتي أن تحول دوني وتجرع السم الذي كان يقطر من كل جملة فيمتصه قلبي
كما امتصه قلبها.

حقاً، يا لها من خطابات هائلة مفزعة! إذ تخيلت منها أن شبح أبي قد ظهر
أمامي يكلمني بذلك اللسان الصامت، لسان من يكشفون عن قلوبهم عند
اعترافهم ولحظت حادثة مفجعة تمثلت أمامي وكانت بعد مخبوءة، حادثة لم
أكن أتصور مبلغ ما تحوي في طياتها من ألم وفظاعة.

كنت طفلاً عندما جرت الحوادث البسيطة التي أوقفتني هذه الخطابات على
تفصيلاتها فلم يكن في مقدور عقلي الصغير حلُّ معمى الحالة التي كان عليها والدي
إذ ذاك. فإن الشخص الوحيد الذي كان يستطيع اطلاعي على خفايا هذا التاريخ
القاتم هو بالتأكيد تلك التي تمادت في الكتمان حتى بلغ بها الأمر أن أخفت عليَّ
جميع ظروف حياة أبي وخطاباته الجلية، تلك التي فكرت في هنائها الأبدي والتي
كانت بغير شك تتهم نفسها بجناية لإرجائها من يوم لآخر أحراق هذه الأوراق
المشؤومة فلما أن اعتزمت تنفيذ ذلك كانت الفرصة قد ضاعت وحمَّ القضاء.

أول خطاب مؤرخ في يناير عام 1864، وهو مبدوء بالشكر لعمتي للهدية التي نفتحني بها في عيد ذلك العام وهي قلعة بها جنود صنعت من الرصاص كانت قد سرتني كثيراً كما يقول الخطاب إذ جاء فيه: "إن الفرسان كانوا على قطعتين وأن الرجل كان ينفصل عن الحصان، إلخ".

ثم تحولت فجأة، جمل الشكر المعتادة إلى سيل منهمر من شفقة يخالجهها مزيد الألم. فإن النعمة التي كان يتحدث الشقيق بها إلى شقيقته كاشفاً لها عن مزيد أسفه على طفولتهما الماضية وحياتهما المشتركة، لتشعر وحدها بأن روح هذا الشقيق كانت قلقة مضطربة عطشى إلى العطف ناقمة على ما كانت فيه إذ ذاك. تفوح حقاً من ذلك الخطاب الأول رائحة شكوى مكظومة أدهشتني لأني كثيراً ما كنت أظن أن والدي ووالدي كان سعيدين أحدهما بالآخر. لكن، للأسف، لم تكن هذه الشكوى إلا لتتزايد وتتحدد مراميها أيضاً. فقد كان والدي يرسل عمتي كل يوم أحد حتى ولو رآها خلال الأسبوع. وكما يحصل في المراسلات الكثيرة المتواصلة كانت أقل الحوادث مسجلة بظروفها الدقيقة في هذه الخطابات. لذلك تراءت لي من مطالعتها جميع عاداتنا وظروفنا مشفوعة بتحليل مبعثه اضطراب الخاطر ينم عن كثير من سوء تفاهم متواصل يعز إصلاحه بين ذينك اللذين كنت أظنهما على أتم وئام. وإني لأرى والدي كما كان يستقبلني في الساعة السابعة من كل صباح بلباس الحجرة الذي

كان يرتديه عند تناوله طعام الإفطار معي فأقرأ أمامه دروسي بإيجاز ثم نجلس إلى المائدة عارية فتقدم "جوليا" لكل منا كأسًا من الكاكاو ممزوجة بالسكر وكانت رائحته تلذ أنف الطفل الشره الذي هو أنا. ثم أبرح المنزل إلى المدرسة. أما والدي فكانت تستيقظ متأخرة بعد ذلك بكثير، وأما والدي فكان يقيم بغرفة منعزلة عن غرفتها لكيلا يوقظها مبكرة".

كم كنت شديد الاعتباط بطعام الإفطار حيث أثرثر خلاله بحريتي متكلمًا عن واجباتي التي سأؤديها ومطالعاتي ومطالعات رفاقي، إني لأحفظ حتى الآن ذكرى تلك الدقائق السعيدة التي تمتعت فيها بذلك الحنو الأبوي الخاص خاليًا مما أنا فيه من متاعب وآلام!

وقد ذكر والدي أيضًا في خطابه إفطارنا معًا كل صباح ولكنه، بصفته رجلًا، كان يتألم إذ يستشف من محادثتنا أن والدي كانت قليلة الاهتمام بي وأني لم أكن أشغل المقدر الذي أستحقه في حياتها كامرأة، تلك الحياة التي كانت تقضيها مهتمة بالخيالي التافه من الأمور.

وكتب جملًا كان من شأن المستقبل أن جعلها نبوءة وهو ما يحزن إذ قال:
"تُرى ماذا يكون لو حُرِمْتُنِي؟".

كنت أعود من المدرسة في الساعة العاشرة فأجد والدي منهممًا في مزاوله أعماله ولأن عليَّ أنا أيضًا واجبًا مدرسيًا أؤديه فلم أكن

أقبله إلا في الساعة الحادية عشرة والنصف عند تناولنا الإفطار الثاني. وأما والدي فتكون في هذه المرة منشغلة بزيتها التي كانت تتقنها كل الإتقان حتى تتفق مع جمالها. ثم إنه فيما خلا ذلك وأثناء سني يفاعتي كانت هذه المائدة العائلية تبدو لي كأنها يسود عليها مودة خالصة وما كان ذلك إلا سراً.

أما ظل الحنين إلى ذلك العهد يداعبني كلما جلست بين والدي والسيد ترموند عند تناولنا طعام الإفطار في العطلة المدرسية؟

والآن وجدت في خطابات أبي البرهان الدالّ على أن الطلاق بين القلوب كان واقعاً منذ ذلك الحين بين والدي ووالدي اللذين كانت محبتهم لي بصفتي ابنهما تربط قلوبهما بنوع واحد من العطف. حقاً، تبين أن ذلك الطلاق كان موجوداً فعلاً لا معنى بين قلوبهما أثناء تناولنا الطعام وسهراتنا نحن الثلاثة!

كان أبي هائماً بحب زوجه شاعراً أنها لا تشاطره حبه وهو مبعث آلامه التي لم يكن ينقطع عن الإفشاء بها في هذه الخطابات ولكن بغير تلك الطريقة الوحشية الحاسمة المألوفة. وكف لا أدرك هذا التلميح من أقل الجمل وقد مررت في يفاعتي بظروف مدهشة في تشابهها بظروف ذلك الرجل؟

كان والدي مثلي صموتاً بل أشد صموتاً. وبذلك أتاح لسوء التفاهم أن يتأصل بينه وبين والدي. فما مثله إلا كمثله ابن قروي

أصبح مهندسًا بقوة عبقريته لكنه كان غير درب يكاد يخنقه الخجل أمام امرأة هام بها وهي أرستقراطية متعجرفة تختلف كل الاختلاف عنه بيئة وشعورًا. مثله كمثل ذلك الابن عاميٍ مثلي، لا أكثر، فعانى عذاب تلك الظروف الخادعة التي لم يكن ينير ظلامها غير كلمات يقولها وهو عييٌ لم يؤت شجاعة القول.

يا لها من حال تبعث إلى الإشفاق، أن يعود القدر فيقضي أن تتجسم عند الابن تلك الاستعدادات النفسية التي تجسمت عند الأب لتكون مصيبة أحدهما كمصيبة الآخر!

يا لسوء حظ هذا الوالد الذي يشبهني عظيم الشبه فإن خطباته كانت مفعمة بحسرات وأناة لم تشعر قط والدتي لاستحالة اتصال قلبيهما، حسرات وزفرات سداها الإخلاص والشفقة على استحالة هناء المشاطرة في الحب، بل تأوهات وأناة صادرة من قلب يائس بسبب ذلك الانفصال القلبي الحاسم الذي لم يكن مبعثه أخطاء متبادلة_والحب يغفر كل شيء_ ولكن منشأه ذلك التباين العتيد بين طبيعتين متضادتين!

لم يكن يروقها شيء من صفاته بل كانت تعافه وهو يعبدها... ولقد خبرت عن كثب ظروف عائلات كثيرة ضرب الخلاف فيها بمعوله ولذلك أستطيع أن أدرك مبلغ الجحيم الخفي الذي كان فيه والدي ووالدتي فكنت أتمثل وجهيهما على حقيقتهما فأرى التباين

العظيم بينهما، فوالدي بحركاتها التي فطرت على شيء من التكلف ورشاقة أعضائها وشحوبها وصوتها المنخفض عن رغبة وجميع ما لا أحيط به مما هو مجرد عن المادة في شخصها، وعينيها النجلاوين اللتين كانتا تستطيعان أن تظهراً بروداً واستهتاراً. وأبي، ذلك المجد ذو الكتفين العريضين القويين وقد فطر على الإغراق في الضحك عندما ينقاد لتأثير السرور، وذلك الخلق الذي درج عليه ذو المهنة، والذي هو به من عامة الشعب أفكاراً وخصالاً وحركات ولساناً. لكن هذا العامي كان مثال النبل والرفقي بمشاعره الكريمة وما جرمته إلا عيئه في إظهار تلك المشاعر.

ما أحقر تلك الأسباب التي تركز عليها السعادة المطلقة أو سوء الحظ العتيد! فقد وجدت خلال الخطابات الأولى اسم السيد "ترموند" يسطره مراراً قلم والدي وهاك الخطاب الحادي عشر أو الثاني عشر، لا أنذكر أيهما، تنفجر منه صرخة الألم الحادة التي وثب لشدة وقعها قلبي وارتعدت لهولها فرائصي وانهمرت لمرارتها دموعي. نعم، فإن ذلك الزوج، الذي هو والدي، وقد نفذ صبره بعد طول الكتمان، اضطر إلى الإفضاء لشقيقته الوديعة الوفية كاتمة سره ونجيته الوحيدة بما تسلط على قلبه من سلطان الغيرة وإن كتابته نفسها بما هي عليه من اضطراب لتشعر بأن التأثير والألم كانا متغلغلين في فؤاده.

إذن، كان غيورًا وممن؟ من ذلك المدعو "ترموند" نفسه الذي جاء يومٌ حل فيه محله في منزله فسمى باسمه تلك التي كانت تسمى "السيدة كورنيليس". كان غيورًا من ذلك الرجل السنوري المسلك باهت الحدقتين والذي أوحى إلى غريزتي مذ كنت طفلًا بحقد أصيل قبل أن أعرف الحقد! نعم، كان غيورًا من "جاك ترموند"! نعم، كان يذكرها تلك الغيرة بذلك الاعتراف الفجائي، بتلك اللهجة المريرة التي تخفف عن القلب آلامًا طال به زمن إخفائها! ففي هذا الخطاب بدء سلسلة طويلة من الظروف لولا الموت لما قطعت. فقد ذكر والدي تاريخ هذه الغيرة البعيدة وكيف أتيج له أن يفاجئ نظرة من ترموند شمل بها والدي. كذلك قال إنه كان يظن منذ تلك اللحظة أن غرامًا ناشئًا دب في قلب ذلك الرجل. ثم قال إن "ترموند" كان قد سافر في سياحة طويلة وأنه، أي والدي، عزا هذه الغيبة إلى شريف خلق صديق مخلص، إلى جهد نبيل أراد به ذلك الصديق أن يقضي على ميله الإجرامي في مهده. إلا أن "ترموند" كان قد رجع وعادت زيارته إلى المنزل رويديًا رويديًا حتى أصبحت متواترة ولا بدع فقد سمح كل شيء لذلك الرجل بتلك الزيارات المتواترة! إذ تخذه أبي زميلًا ودودًا منذ كانا يتلقيان دروس الحقوق وربما اختاره شاهدًا في زواجه لو لم يكن غائبًا خارج فرنسا في تلك الحقبة في وظيفته السياسية. كذلك قد اعترف والدي في ذلك الخطاب وفي الخطابات التالية بأنه أحبه حبًا صادقًا لدرجة أنه عدَّ غيرته منه عيبًا أو خيانة.

وكثيراً ما يوبخ الإنسان نفسه لأم يساور فؤاده بينما يمزقه ذلك الأم ويُفنيه بالرغم من هذا التوبيخ!

ازدادت الغيرة في قلب أبي منذ عودة "ترموند" كما ازداد معها وثوقه بأن حب باعث هذه الغيرة كان يزداد أيضاً. لكن أبي البائس لم يكن يظن أن له حق إقفال الباب في وجه صديقه. أو ليست زوجه أنقى النساء وأشرفهن؟ أما كان يعد مبالغتها في التصوف وحماستها للدين ضماناً تقيها من تلويث ضميرها مع أنه كان فيما مضى يعيبهما عليها؟ على أن إدمان "ترموند" على زيارتنا كان مشفوعاً باحترام مطلق بحيث لم يكن ليشم منه أقل دافع للوم. فما العمل إذن؟ أيتفاهم مع زوجه وهو الذي كان يكاد يختنق من اضطراب قلبه لأقل خاطرة تدفعه إلى مناقشتها ضد طهارتها؟ أيطالبها بالكف عن مقابلة صديقه هو؟ إنها إذا خضعت لإرادته فإنه يكون قد حرّمها سلوى حقيقية. وإذ ذاك فلن يسمح نفسه لهذا الحرمان. وإذا لم تخضع؟

وهكذا فضل أبي البائس أن يجاهد في احتمال آلام الضعف والتردد، اللذين يتمرغ في وهدهتهما إلى الأبد من جبلوا على الصمت والخجل، على أن ينفذ ما سولت له به نفسه من التفاهم مع والدتي ومطالبتها بصد صديقه. لكنه كان يفصل نواحي بؤسه تفصيلاً إلى عمتي مسرفاً من شرح مشاعره الضعيفة متوسلاً إليها أن تمدّه بنصيحة أو أن تمنحه قبساً من شفقتها، مقرأً بأن غيرته إما هي صيبانية مستهزئة

بهذه الغيرة مع أنه نهب لآلامها عاجز عن إخفاء هذا القرع الدامي في فؤاده أو التغلب عليه، يتلمس قوة الاحتمال التي قد يكون فيها شفاؤه فلا يجدها.

ثم ازدادت حالته النفسية حزناً في خطاباته التالية، وكما يصيب من لم يبادر بوضع حد لحالة خادعة، اشتد أنين والدي لأخته من نتائج ضعفه الذي كان ينمو ويشد خطره دون أن يتخذ فيه خطة حاسمة خشية الوقوع في مشادات عنيفة فظيعة. فإنه بعد أن تسامح في أن يكثر صديقه زيارته تولاه شديد الغم لأنه تحقق أن زوجه قد تأثرت إذ كان يراها مستمدة نوائح "ترموند" في أنفه الأمور كما أنه كان يجد أثر هذا الرجل في جميع ما طرأ على ذوقها من التغيرات كالموسيقا مثلاً فإنه كان يحب عندما نكون وحدنا مساءً أن تجلس إلى البيانو وأن تعزف طويلاً ما تشاء من الأنغام، لكن والدي أصبحت لا تعزف إلا ما أرشدها إليه "ترموند" الذي أحرز معلومات عميقة عن الموسيقيين الألمان بخلاف أبي الذي نشأ وتعلم في الأقاليم بجانب أخته، فكان أميناً على احترام الموسيقيين الإيطاليين. ثم إن والدي كانت من طبقة تختلف عن التي أوجدها فيها والدي فأسفت بادئ الأمر على اندماجها في هذه الطبقة مع عذوبتها الغريزية وجمالها الباهر الذي أيد لها مركزاً سامياً فيها، لكن الأمر قد تحول بسبب مودتها مع "ترموند" الذي كان ينتسب إلى طبقة أكثر لباقة إذ جددت لديها هذه المودة جميع عوائد المتأنقين. فقد رأى أبي أنها تملُّ وهي في بهوها الخاص

وأنها كانت تقابل فيه الزائرين مشتتة الفكر. كما أنها كانت تهزأ بدهاء من جميع ما بقي في أفكار أبي من تلك النظم الخيالية الحرة. كما أنه كان يستشف وراء مشاعرها الفنية الجديدة شبح "ترموند" أيضًا. فكان يصمت صابراً لكن خجله الدائم أمام والدتي، ذلك الخجل الذي كان هو فريسته، كان يهتاج في نفسه الملتهبة غيرة. وكلما اشتد بؤسه ضعف عن إظهار ألمه. فهناك نفوس تشلها الآلام فتمنعها من العمل لأنها هكذا خلقت. ثم إن أبي كان يرجع إلى نفسه فيسائلها: "ما العمل وبأية محاولة يبدأ بالتفاهم ما دام لا يجد شيئاً ثابتاً يقوله ولا لومًا حقيقيًا يستطيع توجيهه؟ وهل في الاستطاعة توجيه اتهام على أمور لا يمكن إثباتها بأسانيد معينة؟" ثم إنه كان مقيمًا على ثقته بطهارة زوجه وكان في كل صحيفة من صحف خطاباته يؤكد احترامه الكامل لها متوسلاً إلى عمتي ألا تسحب فتيةً من محبتها إلى عزيزته "ماري" وألا تظهر أمامها أقل تلميح إلى آلام يخجل هو نفسه من الجهر بها. وكان يكثر من القول عن أخطائه هو، ويتهم نفسه بأنه لم يؤت من الشفقة القسط الكافي فلم يستطع أن يستميلها. وهكذا ترى صوراً من آلامه القلبية تبدو من خلال كلماته مع خضوع محزن.

كذلك كان يشرح لأخته حالته النفسية أثناء وجوده مع والدتي في المساء وهو ينظر إليها فيراها مضطجعة بين الوسائد الصغيرة المطرزة في مقعد ذي مساند وهي في زينة واضحة مسندة رجلها إلى مقعد هزاز تقرأ على ضوء مصباح. ماذا تقرأ؟ رواية اقترعتها من ترموند!

وأنها أثناء قراءتها تداعب شعرها ذاهلة منصرفة عن أبي بمقطع ورق من الصدف
المموه بالذهب مقدم إليها هدية في رأس السنة من "ترموند"!

فكان أبي يضع المجلة التي تكون يمينه ويحاول أن يجد جملة تصله بهذا
المخلوق الذي كان يشعر بأنه بعيد عنه، بل غريب مع أنه كان يحبه من أعماق
قلبه. لكن هذه الجمل التي يتلمسها أبي فلا يجدها لا تلقى مفاجأة ولا في حالة
برود كهذه فالرجل الذي أوتي رقة العاطفة مع عزة النفس لا يجد من شعوره قوة
تساعده على أن يكشف عما بقلبه من عذاب إلا والقلب على القلب والأيدي
متضامه بين مداعبات الحب وأن يكون ذلك المحب غير مستجد شفقة ولا عطفاً،
تلك هي الغيرة مع حفظ المكانة.

أما الآخرون، أولئك المتوحشون الذين حرّموا دقة المشاعر فلا يقيمون لمثل
هذه الوسوس وزناً بل يجهر كل منهم "بأنه غيور" دون أن يخامرهم أقل ريب في أن
كان ذلك مهيناً أو غير مهين ثم هم يخلقون أبوابهم في وجوه من لا يروقونهم ثم
يوجه كل منهم لوجه هذا السؤال: "أو لست أنا السيد؟" هذا السؤال الإنكاري
الذي ينطقه مرعاً دون أن يدرك وقعه السيئ في نفسها فهل أولئك محقون؟

لم تكن هذه الوحشية، على كل حال، من خلق أبي. فإنه كان
يأنس في نفسه الكفاية من القوة ليظهر إلى "ترموند" بوجه عابس ولا

يكلمه إلا يملل ولا يمد له يده إلا بذلك الأدب المصطنع الذي يحفر هوة بين صديقين مخلصين. وبالرغم من تجاهل "ترموند" فإن والذي لم يكن يريد الاصطدام معه في خصام قد ينشأ عنه خصام آخر مع والدتي، بالرغم من ذلك كان والذي يتمادى في معاملته يمثل هذه الإهانات التي لا يشعر بها سواهما. لذلك كان "ترموند" في حل من الحضور في الساعات التي كان فيها رجل الأعمال رهين مكتبه.

كذلك قص أبي على عمتي ما كان فيه من جنون السخط الذي يكاد يقتله من أن زوجه وذلك الذي كان هو منه غيورًا كانا يتحدثان معًا وحيدتين بين أزاهير البهو الصغير، بينما هو، ذلك البائس يفني صحته في أشق عمل لا لشيء إلا ليحقق ويديم سلطان الزينة والسؤدد للتي لن تحبه وإن كانت تحمل اسمه وهو مؤمن بأنها أمينة على عهده. لكن هذا الأب المسكين لم يكن ظمآن لأمانة باردة كهذه لا تحيها حرارة الحب إذ اختتم خطابه الأخير بهذه الجمل التي طالما كررتُ قراءتها: "إنه لمؤلم جد الألم أن يشعر المرء أنه غريب في منزله وأن له امرأة بجميع الحقوق تقوم نحوه بجميع ما فرضته عليها واجبات الزوجية دون أن تمنحه قلبها الذي منحته إلى غيره. وقد يكون ذلك دون أن تشعر. ذلك إذا لم تكن... وإني كما ترين يا شقيقتي تمر بي ساعات فظيعة تحدثني فيها نفسي بأني أبله، جبان وأنه عشيقها وأنها خليلته وأنهما معًا يسخران مني ومن غباوتي في ائتماني وما أنا فيه من العمى... لا تلوميني أيتها المسكينة "لويز" إني أعتزف بأنه شك

خائن ولذلك أطرده من مخيلتي بالتجائي إليك، إليك أنت التي ليس لك سواي في هذا العالم".

إذا لم تكن؟ وكان هذا الخطاب مؤرخًا في أول يوم أحد من شهر يونية عام 1864 وبعد هذا اليوم بأربعة كان ذلك الذي خطه بيمينه وتحمل تلك الآلام سائرًا إلى ذلك الموعد الذي قدّر أن يلاقي فيه حتفه، وأن تنتظره فيه منيته الخفية التي أتاحت لأرملته الزواج بصديقه الخائن...

لكن يا له من شك فظيع بل خائن كالشك الذي كان والدي في خطبه الأخير الهائل يتهم به نفسه، قد ثار في نفسي على أثر قراءتي هذه الخطابات!

وضعت على المدفأة حزمة هذه الأوراق التي كشفت لي عن حقيقة ما بنفسه وأمسكت رأسي بيديّ وإذا بعاصفة من التصورات الفظيعة قد مرت بهذا الرأس الذي كنت أشعر فيه بتطاحن غليان الدم مع الحمى.

آه! ما أشنعه بل ما أشأمه بل ما أحطه أمرًا! فيني ما كدت أتخيله حتى ارتقيت إلى الوراء...

وا أسفاه! ألم تعاني عمتي انقراض هذا الشك البشع عليها؟ على أنه قد جرأني على ترك هذا الشك الممقوت يخامرني بالرغم مني ظروف تافهة ثارت ذكرياتها بمخيلتي مظهرة عمتي فريسة.

كم من أمور غريبة أدركتها فجأة ولم أكن أدركها قبل مطالعتي لهذه الخطابات! وإلا فلماذا، عندما أعلمتني عمتي بزواج والدتي، ونطقتُ إذ ذاك فجأة بهذا الاسم الملعون، اسم "ترموند"، دُهِشت وسألتني بصوت مضطرب يكاد يخامر الفرع: "ما مبلغ علمك؟" ماذا كانت تخشى إذن من تنبئي؟ ما هذا الشيء المخيف الذي كانت تريد أن تستشفه من وراء ملاحظتي البريئة الصبانية؟ وأخيراً، عندما كانت تستحلفني ألا أعنى بالانتقام لفقيدنا العزيز مكررة لي الكلمات المقدسة: "أنا أجازي، يقول الرب"، من هو ذلك المجرم الذي كانت تظن إذن أنني سأصادفه؟

وعندما كانت تتوسل إليَّ بمحاسن زوج أمي وألا أتخذ منه عدوًّا، فهل كانت تريد بهذه النصائح مجرد تيسير معاملاتني اليومية أو كانت تظن خطراً قد يهددني من تلك الجهة؟ ولماذا كانت تتكاثر المخاوف في رأسها وقد أضعفه المرض فتدفعها إلى تكرار النصيحة إليَّ أن أحترس عند خروجي كل مساءً، أي وهم مخيف كان يخالج ذلك الرأس فيظهر له في جنح الليل يدًا أثيمة قادرة على البطش بي هي تلك اليد التي انتزعت حياة أبي؟ ولما كانت في أخريات دقائق حياتها تجمع قواها لإعدام هذه المراسلات، ما هو ذلك الأثر الذي كانت تظن أنها سترشدني إليه؟

لقد وضح كل شيء فجأة وضوحًا رائعًا... إن ما أدركته عمتي من هذه الخطابات قد أدركته أنا منها. آه، لم أخش أن يساورني ما

ساورها وإني لخجل الآن أن أكتب ما خامرني. ولكن كيف كنت أستطيع تفادي
منطق يوحى به ذلك الطرف؟

لو عهدت عمتي بهذه الخطابات إلى القاضي، أما كان قد يتاح له أن يرى في
الحال ما لم أستطع إلا افتراضه ومرتكبي فيه الدليل المنطقي لطرف الجريمة؟
قتل رجل لا أعداء له ولزوجه عشيق وبعد القتل حالاً تقريباً تزوجت بذلك
العشيق. فلو قرأ القاضي هذه الخطابات وعلم أن الزواج حصل حالاً لما تردد
لحظة لا هو ولا غيره في الحكم بأن السرقة ليست الباعث على الجريمة وأن
الزوجة والعشيق هما القاتلان. فلماذا إذن لم تقدم عمتي هذه الخطابات
وكانت بين يديها إلى العدالة؟

لقد فهمت السبب، إنها لم ترد أن يساورني من جهة والدي ما ساورني بعد
قراءتي هذه الخطابات. نعم لم ترد أن أدرك أن والدي خدعت أبي وأنها كانت خليعة
"جاك ترموند" وأن هذا سر جريمة القتل. إذ أن في إدراكي بأن ذلك مستطاع قتلاً
أدبياً لأمي وخطيئة لا تغتفر نحو تلك التي أخرجتني من أحشائها وأرضعتني لبنها.
لقد أحببت أُمي كثيراً بل أحبها دائماً بشفقة وحزن! كلا! كلا! لن
أحكم عليها هذا الحكم. فكم من مرة جلست بجانبها ولا ثالث بيننا
دون أن أستطيع الإفضاء إليها بما يرضي قلبي. وكم ساورني أن

العقبة بيننا لن تفصلنا إلى الأبد! وإني قد أصبح يوما ما سندها الوحيد فتدرك إذ
ذاك كم بقيت عزيزة عليّ فلم تنقص ألامي شيئاً من شفقتي عليها. وبفرض أنها
قد تضن عليّ بعطفها فأصبح بائساً فلن أقتص منها لإغداقها هذا العطف على
آخر. فإن هناك فارقاً في وقع الألم الذي يصيب الألم من مخلوق يحبه في حالي
الخير والشر وتفاوتاً عظيمًا بين الشعور بأن ذلك المخلوق شريف أو سافل فيما
ينفذ فينا من الآلام.

وأخيرًا، قبل أن تنفذ هذه الخطابات المشؤومة في عملها الساحر، ساءلت نفسي
بماذا أجمت هذه الأم في نظري؟ بأنها تزوجت؟ أو بأنها أرادت، وقد تزلت ولمّا
تبلغ الثلاثين ربيعًا، أن تعيد شباب حياتها؟ ليس في هذا إلا ما هو مشروع.
أجمت لأنها لم تدرك إلا رابطة بين الطفل الذي بقي لها وبين الرجل الذي
اختارته زوجًا؟ ليس هذا إلا طبيعيًا.

كانت زوجة أكثر منها أمًا، ومن الناس من هم مثلها أسراء الوهم
ضعاف يخشون معارك الحياة ويؤثرون عليها تجاهل الواقع الذي قد
يفرض عليهم أن يتسلحوا بالقوة للثبات في تلك المعارك كل لحظة. لذلك
قبلت بدافع من غريزي أولًا وبعد التفكير ثانيًا هذه التعليقات المختلفة
مبررة لموقف أمني حيالي. فيا له ينبوع من الرحمة ينبثق فينا حارًا
لا ينضب نحو من نحبهم حبًا متواصلًا في أعماق قلوبنا! نعم، كاد

هذا الينبوع العذب السائخ ينضب وتحل محله أمواج شديدة مرة المذاق تتدفق في نفسي مسممة بأحقر أنواع الشكوك... لولا أن غارة هذه الفكرة الفظيعة المفاجئة لم تدم طويلًا. وإلا لما استطعت مقاومتها. بل لو تأصلت في نفسي بهذه الوضاحة بحيث يعز عليّ دفعها لصوبت على نفسي غدارة فقضيت مرة واحدة على ألم يتجاوز مدى التعذيب.

على أي مكثت نهبًا لهذا العذاب طوال اللحظات التي تلت قراءتي للخطابات ثم خفت وطأة النوبة فاستطعت أن أتصر وفي الحال كافحت شفقتي نحو أمني ذلك الكابوس الفظيخ فقد قاومت هجوم هذه التخيلات المعيبة براهين غاية في الدقة، إذ تذكرت بجلاء تلك اللحظات التي رأيت فيها والدي أمام والدي لآخر مرة وكانا جالسين إلى المائدة يتناولان طعام الإفطار حيث وقف أبي ليذهب هناك نحو القائل. ألم تكن أمني في ذلك الصباح ضاحكة كعادتها؟ ألم يكن "جاك ترموند" قد أظفر معنا؟ ألم يبق بعد ذهاب والدي يتحدث إلى والدي حين كنت ألعب، بينما كان المجهول "روشدال" في هذه اللحظة عينها بين الساعة الواحدة والساعة الثانية، يقترف الجريمة.

وبدهي أن "ترموند" لم يكن ليستطيع أن يكون في الوقت نفسه في منزلنا وفي النزول الملكي كذلك لم تكن والدي لتستطيع وأعرفها دقيقة الإحساس سريعة التأثير. أن تتحدث مطمئنة سعيدة، لو كانت تعلم أن زوجها قتل غيلة في تلك الساعة...

لقد كنت مجنونًا حقًا إذ تركت شبح هذا الشك الممقوت يرتسم أمام عيني لحظة، بل كنت خائفًا إذ تجاوزت في لحظة أشد وساوس أبي إهانة دون أقل برهان غير ما بنفسي من غيرة لا يبررها العقل. حقًا لقد تجاوزت حدًا لم يجرو ذلك الوالد المحب التعس على تجاوزه وبذلك بلغت في إهانتني لوالدي أقصى حد إذ ظننت أنها كانت خلية "ترموند"! وهب أن قد داعب قلب ذلك الرجل في حياة أبي.. حب لها فهل يتحتم الحكم بأنها شاطرته إياه؟ وهب أن هذا صحيح، فهل يؤيد أنها خضعت لتأثير هذا الحب لدرجة التفريط في شخصها؟

لا ريب في أن النساء اللاتي هن كوالدي دقيقات الشعور عائشات في ميدان الحياة الحقيقية، يداعبهن عن رغبة.. سراب العواطف الخيالية موقنات أنها طاهرة لخلوها من كل عمل خاطئ. فلماذا إذن لا تكون قد أحبت "ترموند" بإحدى تلك العواطف مع بقائها شريفة وفية لفروض الزوجية وإن استسلمت بفكرها فقط لمودة كان طبيعيًا أن تثير غيرة زوج بقي مع ذلك ضنينًا بشرف زوجه أن يلطخ؟

وهكذا برأتها، ليس من تهمة الاشتراك في الجريمة فحسب، بل ومن أي تقصير في فروضها موقنًا بأنها لو كان لها خليل لباد حبها من قلبي...

ثم عادت أفكارني فتغيرت إذ ذكرت صرختها أمام جثة أبي قائلة: "ليعاقبني الله..."، ولم أفترض كرمًا أن هذه الصرخة قد تكون بريئة

ويكون مبعثها وساوس إنسانة حانقةٍ تؤنّب نفسها حتى على ما يخامر رأسها. كما تذكرت عيني "ترموند" وكانت لامعتين ويديه وكانت مضطربتين عند كلامه مع والدتي عن اختفاء أبي. فقلت في نفسي: "لعلهما شريكان في قتل أبي يمثلان أمامي دور المواربة، وأنا ذلك الشاهد البريء، ليثيرا كلامي عند الفرصة كطفل أن لهما في ذلك صالحًا مشتركًا قويًا".

وهكذا عاد إليّ الشك بهجومه مفاجئًا حتى كاد يقذف بي في وهدة التهلكة! لكنني أصدت في سبيله الحوائل فجمعت عوامل التنفيذ التي عرضت لي من وجود "ترموند" بمنزلنا وقت وقوع الجريمة ومن أن اشتراكه إذن غير معقول. وكذلك غير معقول ما اتهمت به والدتي حتى قررت بأنه من المستحيل أن يكون لهما أقل دخل في جناية القتل، نعم مستحيل، مستحيل، مستحيل... وأخذت أكرر هذه الكلمة بجنون فعادت إليّ الأوهام أشد فزعًا! ولا غرابة فقد تمر بالنفس وهي تحت إصر ما استولى عليها لحظات تفقد فيها مهارة التغلب على أوهام توقن هي أنها كاذبة فيختلط فيها الخيالي بالحقوقي فتعجز عن التمييز بينهما كأنما هي رازحه تحت كابوس أو في حالة فزع لا مبرر له.

فمن ذلك الذي تولته الغيرة ولم يشعر بعجزه عن الحكم؟

ما أشد ما عانيت من الآلام بقراءتي هذه الخطابات! فقد كنت أجول خلال المنزل مصعوقًا بحالة خُيّل لمن حوّلني حولي أنها بسبب فرط

حزني على عمتي. وقد حاولت مرارًا الجلوس إلى سرير الفقيدة فلم أستطع لأني خفت أن تتجدد في نفسي تلك الشكوك السافلة عند رؤيتي وجهها وقد زاده الموت أسى وحزنًا... لكن وافتنني عند الساعة الرابعة إشارة برقية من والدي بأنها ستصل بقطار المساء. فهدأ قلقي لحظة فناجيت نفسي: "إنها لآتية! عُيت بالامي! إنها لآتية!" وأخذ الاطمئنان يبدد شكوكي. ثم عدت فقلت في نفسي: "إني سأراها! فهل ستقرأ في محياي تلك الشكوك الخاطئة"؟

لكن تلك الأوهام الحمقاء الساقطة ما لبثت أن عاودتني فأخذت أقول في نفسي: "إنها وترموند"، إذا كانا مجرمين، فلا بد أنهما حسبا لبعث نظر عمتي حسابًا، فجاءت هي لأخذ المراسلات والدي قبل أن تقع في يدي ولتعرف ما أفضت به إلي عمتي وهي على سرير موتها. وإني وإن كنت عظيم البؤس في طفولتي، إلا أنني وددت لو أعود فأصبح ذلك التلميذ الذي كان كثير التأمل طول مدة الدراسة في برود زوج أمه. نعم قد كنت أؤثر ذلك على أن أكون ذلك الشاب الذي كان يمشي بعد قراءته تلك الخطابات في محطة "كومبيني" الواسعة في انتظار أم تحوم حولها شكوكه!

ألم أكن خليقًا بالمغفرة بعد ما عانيت من عذاب على الأقل في تلك اللحظة

تكفيرًا عن ذنبي؟

(10)

كان قطار باريس يقترب فأسمع ضوضاءه المكتومة وأرى دخانه يعقد في الجو غيومًا تحجب النظر حتى تخطى المكان الذي كنت فيه ثم وقف وصاح عامل "الفرملة" باسم المحطة ورقم ساعة الوصول وبعد أن انتهى من فتح أبواب العربات وكنت لشدة مللي أراه بطيئًا، بحثت عبثًا عن والدتي متنقلًا من عربة لأخرى فناجيت نفسي: "ألم تكن أصرت حتى آخر لحظة على الحضور؟" يا لها من محنة أجتازها إذا كان هذا صحيحًا! ويا لها من ليلة سأقضيها فريسة لهذه الشكوك المرهقة التي لا يبدها سوى حضورها! لكني سمعتها تناديني فألفيتها مرتدية ملابس قاتمة فألقيت بنفسي بين أحضانها مع كوننا في محل عام وهو ما لم يسبق لي، ناسيًا كل شيء حتى سبب حضورها، مغتبطًا، فرحًا بما كنت أشعر به من أن وساوسي الممقوتة أخذت تتبدد أمام هذا الكائن الذي أحبه إلى حد العبادة، بالرغم من صنوف سوء التفاهم، وعلى الأخص الآن إذ فقدت شقيقة أبي. بعد هذه الحركة التي تكاد تكون صيبانية والتي تشبه تعلق الغريق بالغواص الذي يتقدم لنجاته، نظرت لوالدتي دون أن أنبس بكلمة ممسكًا بيديها فرفعت خمارها فأرابتها شديدة الشحوب تذرِف الدموع غزيرة فأدركت أنني بوساوسي كنت ضالًّا معتوًّا.

نعم، تحققت من ضلالي وحماقتي وعلى الأخص عند مجرد استماعي للجمل الأولى التي نطقتها واصفة بها شدة ألمها بحنو بالغ قائلة إنها عندما طرق أذانها الخبر المشؤم اعترمت الحضور في الحال بالرغم من مرض زوجها_ والسيد "ترموند" صار منذ عامين هدفًا لنوبات حادة ناشئة عن التهاب الكبد_ إلا أن المسكينة لم يمنعها لا ما عانته من حزن بسبب الفاجعة التي أنبأها بها ولا اهتمامها بصحة زوجها من أن تحضر معها في هذا السفر قصير الأمد تلك المعدات البسيطة التي اعتادت أخذها معها في كل سفرة ضمناً لرفاهيتها وزينتها. فقد كانت خادمتها ومعها حمال يحملان حقائب مختلفة الحجم مصنوعة من الجلد الإنجليزي محكمة الإغلاق في أكياس من قماش وهي صندوق وصندوق صغيرة تحوي أدوات الكتابة وخرج صغير لكيس الدراهم والمنديل والكتاب والخمار ثم إناء الماء الساخن لتدفئة الرجلين ووسادتان للرأس وساعة حائط صغيرة في جرابها. ثم قالت: "أنت تعرف خصالي" كذلك قالت مشيرة لثوبها وكان من الصوف كستنائي اللون به نقوش سوداء: "لن تصلني ملابس الحداد إلا غدًا في أول ساعة من النهار... لأن الوقت لم يكف لإعدادها قبل سفري" ولمَّا كنت أجلسها في العربة أضافت: "توجد أيضًا علبة قبعات وصندوق..." وكانت تبتسم لي قليلًا لأبتسم أنا الآخر. فجددت هذه الحقائب التي لم تكن ثمّة حاجة إليها ما كان يثور بيننا من معاندات لطيفة فيما مضى. ولولا أي كنت مضطرب الفكر لآلمني أن أجد فيها،

بجانب علامة العطف التي منحنتني إياها بحضورها، الأثر الثابت لما هي عليه من الخفة التي جبلت النساء عليها. أما كانت هذه الخفة من أسباب مصائبي؟ على أي كنت _بعكس ما مضى_ أتلذذ في تلك اللحظة بمراقبتها في طيشها قائلاً في نفسي: "أهذه هي تلك التي كنت أتخيلها منذ لحظات مقبلة نحوي تحمل في رأسها تلك النية السوداء، نية التنقيب عن أوراق المتوفاة وسرقة ما قد تجده فيها مثبتاً للتهمة وإدانته؟ أهذه هي تلك التي كنت في الصباح أظنها مجرمة تحمل وزر أشد جنایات القتل سفالة؟ حقاً، إني كنت ضالاً مجنوناً وما كان مثلي إلا كمثل حصان هائج يجري وراء ظله. لكن ما أعظم غبطني براحة سريري حتى كدت أنسى تلك الفقيدة العزیزة! إني مع حزني العميق لوفاة عمتي كنت سعيداً بوجودي مع والدي بتلك العربة القديمة التي كانت تقلنا مخترقة شوارع المدينة التي كانت نوافذ منازلها المضاءة ترسل أنوارها في دُجنة الليل. فلقد كانت والدي تعزو شدة تأثيري لمصیبتی بفقد عمتي فتواسيني بعطفها الجم وأنا ممسك يدها شغوقاً بأن أستمیحها الغفران مكرراً عظیم حبی وإجلالی لها. ولا غرو فكان جد نادر أن أشعر بها هكذا لي وحدي وهي من الحنو والحب عليّ ما كانت تتمناه مشاعري المريضة. كنت أمرت أن تعد لها الحجرة الكائنة بالطابق الأرضي الملاصقة للبهو لأنها حلت بها مع والدي بعد قرانهما بأيام قلائل إذ حدثتني نفسي بأن ما يحدثه فيها من التأثير منظر المنزل أولاً ومنظر الحجرة ثانياً

قد يساعدني على تبديد شكوكي. كذلك كنت أقسمت أن أدون بمزيد من الدقة أبسط الاضطرابات التي قد تعترها عندما تثور في مخيلتها ذكرى ماضٍ يعود من جديد بمنابر الأشياء التي لا تتغير بسرعة تغير قلب المرأة. لكنني تولاني أفضح خجل لتجسسي على والدي وطني بها السوء غير محترم ما هي عليه من إخلاص وإيمان لا ريب فيهما.

حقاً لقد أصبحت أشعر بضالتي أسفاً على ما فرط مني ضد بريئة ألفتها أقل مراقبة لنفسها وهو عكس ما جرتني إليه الوسواس، فقد دخلت الحجرة هادئة لم يعرها أقل اضطراب فجلست أمام المدفأة باسطة رجلها الناعمتين نحو اللهب الذي كان يكسو خديها الشاحبين بلون وردي. وكانت ما تزال بما هي عليه من شعر ظل أسود وقامة بقيت شابة حافظة بهاء تينك الرقة والأرستقراطية اللتين كان يتكلم عنهما أبي في خطابه.

نظرت طويلاً حولها وهي عاملة بأغلب الأثاث التي أبقته شفقة عمتي في أماكنها ثم قالت بصوت حزين: "ما أجملها ذكريات!" لكن التأثير الذي ارتسم على محياها لم يكن مرًا. كلا! لم يكن يقرأ في عينيها ولا في محياها أنها امرأة خانت زوجها وأوعزت فقتل غيلة بعد أن عاشت في هذه الحجرة عشرين عامًا بجانبه!

وهكذا لم يمر بي طول هذه الليلة من أحقر الأمور إلى أجلها إلا ما أيد لي أي بتخيلاقي الصبانية المخدشة للشرف قد وشيت بقحة

ضد من كان من أوجب فروضي تقديسها. وكانت "جوليا" قد أعدت لنا خوانًا للعشاء كالذي أعدته لي بالأمس مصرّة على القيام بخدمتنا معًا كما قامت على خدمتي بالأمس. فكنت أنظر إليهما وهما أمام بعضهما، الخادم العجوز ومولاتها القديمة. ومع أنهما كانتا فيما مضى متنافرتين في الطباع فقد شعرتا بغبطة عظيمة بتلاقيهما وعلى الأخص المسكينة "جوليا" الساذجة فقد كان سرورها بالغًا إذ انتبذت بي مكانًا خلال بضع دقائق قبل تناولنا الطعام لتكشف لي عن مبلغ ما شعرت به من التأسى في حزنها بسبب رؤيتها والدتي الشفيقة وبقيامها هي على خدمتنا ونحن جالسان معًا إلى مائدة واحدة كما كنا نجلس فيما مضى.

فلو كان في صحيفة والدتي شيء من تلك الأسرار الأثيمة التي يتنبأ بها الخدم المخلصون أكثر من غيرهم لما جهلته تلك الخادم الشريفة التي ربنتنا، والدي وأنا، ولما تغاضت أو صفحت.

حقًا، فقد كان في استطاعتي مفاجأة أثر ذلك على محيّا هذه الخادم التي تتم تجاعيد وجهها عما يمكنه فؤادهما.

هذا فضلا عن أنه لو كانت والدتي خاطئة لما نظرت بعين الارتياح إلى وجودها ولخانتها حركاتها فأنكشف ما تعاني من ضيق، شأن من يقاوم سلفًا ما يظنه موجهًا إليه من تأنيب من هو أقل منه قدرًا. فإن محيّا "جوليا" كان يدخل بالنسبة لوالدتي في سلسلة الأشياء التي تذكرها بزواجها الأول. فسواء أكان موت عمتي المفاجئ قد أثر فيها

كثيراً أو أن هذا الشعور بالماضي أرضى ما عرف في فطرتها من حب الخيال فإنها بدلاً من أن تطرد هذه الذكريات استسلمت لسلطانها. فكنت أباركها في سريرتي إذ هدمت بموقفها هذا آخر آثار وشاياتي الصامتة. بل ما أعظم شكري الخالص لها إذ طلبت إليّ بعد ذلك، أن ترى الفقيده لتقول لها كلمة الوداع الأخيرة!

دخلنا معاً في الحجرة التي اضطجعت فيها الفقيده ضجعتها الأخيرة بعد أن عانت أقصى مشقة من الأمر الذي كان شاغلها الوحيد أخيراً والذي استنتجت منه أفضح النتائج، فاقتربت والدي من سريرها... وكان الموت، بغرائبه المفجعة، قد غالى في إظهار ما بين وجه عمتي قبل موتها ووجه والدي من الشبه. فإن هذا الوجه الساكن الشاحب وعلى الأخص بسبب رباط الذقن الذي وضع ليبقى الفم مقفلاً كان يذكرني حقاً بذلك الوجه الذي احتفظت ذاكرتي برسمه والذي قبلتني أمامه والدي واحتضنتني بجميع ما أوتيت من عطف. وهكذا وجدنا كلانا مرة أخرى أمام شبح مأمي، لكني لم أعد بعد ذلك الطفل كما لم تعد هي تلك الشابة.

يا لها من سنين قد انقضت بين وفاتي هذين الفقيدين! فإن هذه المقارنة قد مرت بخاطر والدي كما مرت بخاطري. إذ بقيت هي بادئ الأمر صامتة ثم قالت لي: " ما أشدها به شبيهاً"! ثم اقتربت من عمتي ووضعت قبلة على هذا الجبين الذي فارقتة الحياة. ثم جثت عند السرير وأخذت تصلي.

فهذا البرهان الذي لم أكن أحلم به سبقتني هي بنفسها إلى تحقيقه بحالة صادقة لا أثر فيها للتصنع فيها... ولقد حصلت بعد ذلك على أدلة أخرى تثبت نقاء قلب والدي نقاء مطلقاً كما سمعت من فم مدبر الجريمة كلمات تشهد بطهارة هذه المسكينة من الدنيا. على أي لم أعد في حاجة إلى مثل هذه الشواهد فإن النظر إليها جاثية أمام المتوفاة، شقيقة أبي المتوفى، كافٍ وحده ليطرده من نفسي أشباح تلك الشكوك البشعة.

ولما أن انتهت من صلاتها شاءت أن تبقى ساهرة بجانب هذا السرير المحزن فمنعتهما لأني خشيت عليها تأثير المكث في هذه الحال من الحزن ليلة كاملة وأكهرتها على النزول لكنها كانت شديدة الاضطراب فطلبت إليّ أن أبقى معها برهةً من الزمن فقبلت فرحاً لأني كنت أخاف أن تعود إليّ، وأنا بعيد عنها، تلك الأضغاث التي بددتها بوجودها وحركاتها تبيدياً.

فإني كنت أشعر تمام الشعور أي ابنها حقاً طول هذه الساعات التي قضيتها بجانبها حتى كانت أقل حركة منها تسحرني سحرها فيما مضى مذ كنت طفلاً وقد أعجبت بحسن ذوقها إذ حوّلت في الحال زاوية مدفأة البهو الذي كنا جالسين فيه إلى ملجأ صغير منعزل لمحادثتنا دون سوانا ثم بإشاراتها أحضرت "البارافان" بالقرب من المقعد الطويل ووضعت على منضدة متحركة ساعتها التي تحملها في أسفارها وزجاجة الأملاح وعلبة سجائري وارتدت معطفاً أبيض

وغطت كتفيها بشال أسود وساقياها بغطاء من الصوف وردي اللون ثم أراحت
خدها على إحدى الوسادتين الصغيرتين اللتين أحضرتهما معها. وكانت رائحة
البنفسج، وقد زينت به "جوليا" إناءً صغيراً يختلط عبرها بذلك العبير الذي
كانت والدتي تنثرها حولها. وكنت أحبها على هذه الحال إذ قد ذكرتني بدقتها
في تجملها بما أوتيت من مشاعر رقيقة، كما كنت أحب منها، على الأخص،
حديثها العذب وقد كشفت لي عن مكنون قلبها تاركة هذا القلب يفضي
بكثير من الذكريات، فقد بدأت بسؤالني عن مرض عمتي ثم استمرت تتحدث
عن أبي وهو ما لم يكن يحصل منها إلا نادراً. كم كان نادراً وجودنا معاً هكذا
ولا ثالث بيننا! ففي هذا البهو وقد ملئ بخرائد المتوفى وبالذكرى الشائرة
بمخيلتي وبالخطابات التي قرأتها في نفس هذا اليوم، قد تولاني شعور غريب
من سماعها تسرد بدورها تاريخ زواجها. فقد قصت عليّ ما كنت أعلمه، كما
قصت عليّ ما كنت أجهله من ظروف زواجها بأبي وأنها كانت قابلته في حفلة
رقص عند محامٍ عظيم، وما كانت عليه من الزينة في تلك الحفلة، ثم وصفت
لي صورة أبي وأنه كان أخنس العنق في ثوبه الأسود ورباط رقبته الأبيض وكان
غير محكم، وقفازه الطويل... ثم أضافت: "عندما تكون الواحدة منا فتاة،
تكون كثيرة النزق... ثم استتبعت قائلة: "إنه طلب الاقتران بي مرتين فرفضت
لفكرة صبيانية هي أن قفازه طويل... وفي ثالث مرة أراد أن يكلمني
وحيداً... وكانت والدتي شديدة الشغف بهذا الزواج بالرغم من

بضعة اختلافات بيننا في البيئة والتربية... لأن والدك كان جم الشرف والنبل، كفوًّا، مجدًّا ثم إنه كان معجبًا بوالدي بكثير من السذاجة كأنهما هي معبود... وأخيرًا قبلت أن تقع بيني وبينه هذه المحادثة... فقابلت والدك مصرّة إصرارًا على الرفض، لكنه كلمني بلطف بالغ ودرية رشيقة وفصاحة ساحرة... فتحققت أنه يحبني... فقبلت".

يا له من حديث يشرح لي مراسلات أبي، حديث الدخول في الزواج، بل الرمز السابق على جميع السنين التي قد تلتته. فإنهما حتى آخر طعام تناوله معًا، قبل حدوث الجريمة، كانا قد عاشا هكذا: هي وقد تركت نفسها تُحَبُّ مع تلك العزة الرحيمة، عزة امرأة تعرف نفسها أكثر مدنية واحترامًا. وهو بما كان عليه من فطرة رجل الأعمال المجد الذي _وهو قريب من الشعب، مفطور على الديمقراطية_ يحب هذه المرأة الرقيقة ذات الجمال النادر الساحر مع ولعه بشعوره الجم بتفوقه عليها وسذاجة بالغة في إنكار عوامل تفوقها عليه.

"لكن أفعل سم في القلوب منشؤه السكوت". ولقد شعرت بذلك، أنا نفسي، ولا زلت أشعر به لحساب من أنا ابنه وعنه ورثت تلك الروح المتريبة المنقبضة. ثم استمرت والدي متحدثة إليّ بغير تحيز مكثرة من شرح صفات أبي، كاستقامته، وقوة مراسه إلى أن تكلمت عما بقي من خلقه غامضًا فلم تستطع إدراكه إذ قالت: "بعد كارثته المفجعة ساءت نفسي هل أسعدته بقدر ما كان يعد نفسه به سعيدًا؟

كنت في ريعان الشباب إذ ذاك ولم يكن بيننا غالبًا مشاطرة في الميول... فإني فطرت من نشأتي على معاشرة الناس وأما هو فلم يكن يرتاح إلى ذلك... كنت عظيمة التقى وأما هو فكان جاحدًا وكان يظن غيره من الرجال في طبيته وأن في الاستطاعة الاستغناء عن الدين... وقد رأينا فيما بعد إلى أية طريق يسوقنا هذا التفاوت... لم تداخله الغيرة قط بدليل أنه لم يوجه إليّ أقل ملاحظة بسبب المعرفة التي كانت لي مع بعض الرجال الأصدقاء. ولكن كانت في نفسه خميرة قلق! فإنه عندما كانت تضطره أعماله إلى مبارحة باريس بضعة أيام وتأخرت لحظة عن موافاته بخطابي اليومي كان يبادر برقية يسألني فيها بقلق عن صحتي... وفي المساء إذا عدت بعد مواعي الاعتيادي برهة يسيرة كنت أجده قللاً مقتنعًا بأن قد صادفتني مصيبة... ثم كانت تستولي عليه أحزان وأكدار بلا سبب كما كانت تمر به لحظات وهو في سكون عميق فلم أكن أجرؤ على الاستفهام منه... وأنت قد رثت عنه هذا الخلق يا ولدي "أندريه المسكين"!

ثم تحدثت إليّ عن وفاته الخفية إذ قالت:

"قد بكيته طويلًا ثم فكرت في الأمر بعد ذلك طويلًا... لم يكن لأبيك قط أعداء خصوصًا وقد أدى فروض مهنته نقيًا شريفًا... لذلك أنا مقتنعة بأن القاتل كان يظنه يحمل مبلغًا من المال كبيرًا... ولا تنس أننا نجهل ما كان يحمله أبوك في محفظة نقوده... أه! لو كنت

تعلم، يا ولدي "أندريه" أية أيام قضيتها فريسة للهموم والأحزان! إنما في تلك اللحظات فقط استطعت أن أعرف أصدقائي الأوفياء..."

ثم سمت لي السيد "ترموند" وأطالت في البرهنة على إخلاصه لكنني لا ألومها على أنها لم تدرك في الساعة التي كنا فيها أنها لا تنطق بهذا الاسم دون أن تؤمّني بذكره.

لكن، لماذا وقفت عند هذا الحد بعد اندفاعها في سرد هذه الذكريات؟ أي وسواس قد يكون منعها من التحدث إليّ عن زواجها الثاني و عما أنست فيه من مواسة؟ أكان ذلك لأنها تخيلت حالتني الحقيقية حيال زوجها مع عدم إدراكها فيما مضى مشاعر أبي حيال الشخص نفسه؟ حقًا، كنت أشعر باكتئاب فظيع لدى استماعي لهذه النجوى التي هي تكذيب قاسٍ للأخرى، أعني لنجوى أبي التي كان يبثها إلى عمتي في خطاباته. ولكن مهما عظم اكتئابي لمبلغ سوء التفاهم الذي فصل ذينك المخلوقين، والدي ووالدتي، فهل يعد ذلك شيئًا بجانب ذلك الكابوس المفجع الذي كان منقّضًا عليّ بوطأته؟ على أي كنت أصغي طول هذه الليلة الشاتية لحديث والدي سكرًا بخمر هذا الإيمان الساحر المريح الذي لن تعود فتشوبه تلك الشكوك المفزعة! فلقد وضح كل غامض من خطابات أبي، كان حقًا غيورًا على زوجته ولم يجرؤ على الإباحة بهذه الغيرة التي أساسها تأثير أدبي ربما كان مجهولًا من تلك التي كانت تقص عليّ ذلك الماضي

بصراحة في العينين وعذوبة في الصوت وطهارة ينم عليها جهلها بفعل ما تعترف به وصدق لا يقبل التفنيد، تلك المخلوقة ليست بعد ما ناجتني به إلا بريئة حتى من الآلام التي آلمت بها والدي عن غير قصد، وإلا لكانت شيطان الخبث والرياء. أيتها الأم، حاشاي أن أظن بك سوءاً، أيتها الأم التي وإن كانت ضعيفة إلا أنها خالصة الطوية، أيتها الأم التي لولا جهلها مبلغ الأم لما أثارته، أيتها الأم الرؤوم، ثقي أي ما صدقت فيك وساوسي. حقاً أيتها الأم، لم يعد ضميري منذ تلك اللحظة تصمه حيالك أية وصمة، فقد نجوت من شكوكي الطاغية.

وإني لأستطيع إذن أن أعترف لنفسي عدلاً بأني منذ تلك اللحظة لم أتعرض لأقل نوبة شك حيال والدي. ولم أعد أسمع ذلك الصوت المخزي الذي كان ينبعث قوياً في ضميري ضد تلك التي كان يجب أن أكون آخر من تعتضد به كما كنت أول من حكم عليها بالإثم ضلالة. لكنني حيال زوجها لم أكن على ما أصبحت عليه حيالها. فإنه عندما تستيقظ الريبة في أمر بلغ من الوحشية ما بلغت جنابة قتل أبي فإن تلك الريبة تبقى متغلغلة في النفس حتى يبدها اليقين.

لقد وثقت الآن من جهة والدي. لكن هل تُعدُّ براءتها براءةً لزوجها؟ بعد أن أصبحت وحيداً عدت فقرأت ملياً تلك الخطابات المشنومة فتغيرت وجهة نظري. فقد وضح لي أن أبي، بغض النظر

عما عانى ظلمًا من آلام الغيرة التي كان يعد والدتي و"ترموند"، لمودتهما، شريكين في مسئولية اكتوائه بها، كان مع إيمانه بطهارة والدتي، موقفًا بالأمر الذي لا ينكر وهو غرام "ترموند بها". لذلك رأيت أن هناك واجبًا محتمًا هو البحث فيما إذا كان لـ"ترموند" صالح في موت والدي. ولما أن كنت قبل قراءة للخطابات أستطيع الظن بأن شفقة "ترموند" نحو أمي نشأت منذ أصبحت حرة في الزواج به كما كنت أرى طبيعيًا، بالرغم من غيرتي، أن شابة جميلة تعيسة قد تثير لمواساتها شغف أصدق صديق لزوجها المتوفي فتحول هذا الشغف إلى حب، عدت أيضًا إلى استشفاف مرامي تلك الخطابات أثناء عزلتي في "كومبيني" بحجة ترتيب أعمالي وما كنت في الحقيقة إلا كالحيوان الجريح يدفن نفسه ليتحمل الألم. وإذا بأثر من آثار أبي التي ملأت هذا المنزل قد أيقظ في نفسي، أكثر من سواه شغف الانتقام الذي تولّاني منذ طفولتي، ذلك هو تقويم من التقاويم التي تقطع منها ورقة كل يوم كان بجانب "نشافة" والدي التي كانت ما تزال تحوي في طيها المظاريف وأوراق الخطابات المطبوع عليها اسمه.

كان هذا التقويم لعام 1864 وقد حفظته عمتي كما هو من تاريخ اليوم الذي أُنبئت فيه بوقوع الجريمة: "السبت 11 يونية عام 1864".

فاليوم الذي قتل فيه أبي هو إذن "يوم الخميس 9 يونية عام 1864، وكنت إذ ذاك في التاسعة من العمر وها أنا اليوم في الرابعة والعشرين

ولم يُثار للفتيل بعد! ولماذا؟ لأن الفرصة لم تكن سمحت بدليل. نعم لم أكن استطعت تكوين أقل افتراض يرتكز على اليقين. واليوم ولديّ واحد من تلك الأدلة، مهما كان موضع شكّ فلا مبرر لي في النكوص وكان محتملاً أن أندفع في شكوكي حتى النهاية فناجيت نفسي: أأذهب إلى الأستاذ "ماسول" مستشيرًا واضعًا بين يديه تلك الخطابات مع ما في ذلك من كشف داخلتنا وإفشاء مكونات قلبي المجني عليه وزوج أمي؟ لكن ألا يجوز أن يعدها دليلًا خليقًا بالإهمال؟ كلا! لن أجرؤ على حمل تلك الخطابات إليه وإلا لارتعدت فرقًا من إطلاع رجال الشرطة عليها.

على أنني والأستاذ "ماسول" سبق أن درسنا الأمر طويلًا لنهتدي إلى من قد يكون له صالح في إتيان هذه الجريمة فلو كانت خامرته فكرة نحو زوج والدي... لكنه لم يذكره إلا تلميحًا. وأي دليل بين يديه كان يتيح له بلبلة خاطري من هذه الجهة؟ لكنني قد حصلت على هذا الدليل وأستطيع تقديمه إليه شاعرًا، بدافع من غريزتي، بأنه _هما ينطوي عليه من دلالة هائلة_ عظيم الخطر! وأني لي ألا أتمسك به وتقليبه مرارًا، منقادًا إلى غريزة التوغل في كشف أسرار المسائل العويصة التي تحوم حولها وتبحث فيها عقولنا بملكتي التخيل والتحليل؟ هذا فضلًا عن أنني كنت شغوفًا بالتسلط على أفكارى للتباين بين هذه العاصفة النفسانية والهدوء العميق السائد على منزل الفقيدة، فإني وإن بدا عليّ الملل في هذا المنزل إلا أن حياتي كانت في الحقيقة حارة تكاد تبلغ الجموح إذ

كنت أستيقظ متأخراً فأرتب أوراقاً وأعكف على قراءتها حتى ساعة أتناول إفطاري وقد استأثرت "جوليا" بخدمتي ومعني في حجرة الطعام كلب الحراسة "الدون جوان" وقطان كنت أعطيتهما لعمتي وهم من نوع أنقري يلقب أحدهما "بول ده بوال" لطول شعره والثاني "بيرو" لخبثه وذكائه فأقدم لهذه الحيوانات أكلها لأني كنت أذكر "روبسن"، محب العزلة الذي طالما أحببته في طفولتي كما كنت أذكر المشاهد التي كنت أراه فيها جالساً إلى مائدة الطعام بين حيواناته المختلفة.

وا أسفاه! كنت "روبسن" الذي قلق إذ رأى على الرمال أثر قدم مجهول فلما أثر العزلة لم يفارقه قلقه. فإني في عزلتي شرعت أقدر ما يكون لزوج أمي من النصيب في جريمة قتل أبي فاعتزنتني العقبة الكأداء التي قد تعوق كل تحقيق وهي ما هو ثابت من وجوده في غير مكان الجريمة حين وقوعها. لكن هذا وإن عُدد دليلاً عملياً إلا أنه يوجد في كل تحليل عن تدبير الجريمة، بجانب سلسلة الدلائل العملية، سلسلة الدلائل العقلية فإذا تنافرت تلك الدلائل بنوعها فهناك الشك، وأكبر قدرة يظهرها قاتل درب ماهر تنحصر بالتأكيد في خلق هذا الشك. فإذا وقف الإنسان عند ظاهرة إيجاد برهان عملي فكم من حقائق تظل في طي الكتمان!

كنت أستيقظ مثقل الرأس بهذه الخواطر فأسير غالباً نحو الغابة حيث يمتد حولي سكون الشتاء الشامل في تلك الأرجاء قبيل الغروب، فأرى أوراق الأشجار الجافة مغطية أرض الغابة بألوان شقراء بديعة

تتماوج عليها، من لحظة لأخرى، ظلال التيوس البرية التي كانت تفر عند اقتراي وأسمع صرير تلك الأوراق تحت قدمي متماذيًا في تخيلاتي ومباحثي العقلية متوسعًا في تمحيص كل خاطرة متنقلًا من نظرية لأخرى مناجيًا نفسي: "لنفرض أن السيد "ترموند" مجرم لأنه كان وما يزال مغرمًا لدرجة تدفعه إلى الوحشية، فهذا دليل أول..." "وكان يحب والدي لدرجة الجنون وهذا دليل ثانٍ" "وأن والدي كان منه غيورًا وهذا دليل ثالث" فلنبحث إذن عن مثار الريبة: "أيكون السيد "ترموند" قد شعر بغيرة أبي؟" و"هل حصلت بينهما مشادة من تلك المشادات الصامتة فهم أثرها رجل درب مثل "ترموند" أن منزل الصديق الذي كان يغازل زوجه سيغلق في وجهه؟ فإذا صح هذا وذاك فلا مندوحة لي عن افتراض أن هذا الرجل قد ثارت فيه رغبة شديدة في التخلص من عقبة كأداء يشعر أنها تعوقه إلى الأبد وهو فرض وإن كان من المؤلم إدراكه إلا أنه ممكن الحدوث..." لكنني في اللحظة التي أنا فيها مشتغل بتلك التحليلات، اصطدمت بما كنت أسميه أدلة الإثبات العملية فإن المزعوم "روشال" ما يزال حيًا وهو دليل جديد، وكان قد رآه أناس وسمعوه وكلموه إذ أنه كان بالنزل الملكي بينما كان "ترموند" بمنزلنا يتحدث إلينا. فلاعتبر "ترموند" مجرمًا ألا يتعين التسليم بوجود اشتراك إجرامي بين هذين الرجلين، وبأن أحدهما المزعوم "روشال"، كان آلة أو نوعًا من أولئك الأشرار مكلّمًا بالقتل لحساب الآخر؟ إن ظاهرة الاستثناء الذي امتازت به هذه النظرية كانت من عظيم الجلاء بحيث أسرتني. على أي حين

ساورتني هذه الفكرة، أول مرة، سخرت أفطع سخرية من نفسي وذكرت أوهامي المفزعة لما كنت طفلاً، والبراهين الغريبة التي كان يسهل عليّ بها خلط الوهمي بالحقيقي. فقد صادفني كثيراً بين السابعة والعاشر من عمري أن أستيقظ ليلاً، وهناك وحيداً في الظلام، تحدثني نفسي بأني قد أكون في النهار وأني عميت. فأحملك محاولاً النظر في الظلام الذي كان كلما ازداد حلوكه ازدادت أوهامي تجسماً فأضطر، للاطمئنان على سلامة نظري، للتحسس حتى أعثر على ثقب فأشعلها فأرى لهبها فيزول عني ذلك الكابوس. فأنا الآن إذن شبيه بي في طفولتي، عاجز عن كبح الأوهام التي ثارت فجأة بمخيلتي بعد أن رأيت البرهان على كذبها بمناسبة والدي عندما وقعت فريسة ذللاً لما يشبه هذه الأوهام... لذلك حاولت عبثاً الاقتناع بأني ما زلت ذلك الطفل الخاضع لأوهامه وأن من البعيد أن يكون السيد "ترموند" قد أرشى المزعوم "روشدال" على قتل أبي. على أن استحالة هذا الأمر ليست مطلقة، فإنه ما كان أقل تفكير في موضوع الجريمة يظهر أن كل أمر ممكن الوقوع، راقتني إذ ذاك أن أتوسع في استذكار الحوادث الغريبة التي عرضت على محكمة الجنايات والتي كانت تثور ذكرياتها في مخيلتي حتى أصبحت هذه المخيلة دموية اللون كالأفق عند غروب الشمس وراء الغابات الصدئة...

فكنت أعود إلى المنزل فأتناول غذائي كما تناولت إفطاري وحيداً ثم أقضي الليلة جالساً في المكان الذي جلست فيه والدي، ولشدة فرقي من تلك العناهيات التي كانت تتوارد بفكري فأنقاد لها، كنت أرجو جولياً أن توافيني بمجرد

تناولها الطعام فكانت تجلس على مقعد بريتوني عند زاوية المدفأة منشغلة بنسج جورب وازعة على أنفها منظاراً يحيل وجهها المجمعد إلى صورة هزلية. وقد يصدق أن تشغل وهي على هذه الحال طول السهرة وفي حجرها صديقها "بول ده بوال" مخرخراً بينما "بييرو"، وهو منه غيور، يحك رأسه في جسمه مستجدياً مداعبة، فلا تتكلم إلا مجيبة على ما أوجهه إليها من الأسئلة عن ظروف عمتي مكررة ما كنت أعلمه من تفاني تلك المسكينة في الاهتمام بأمرى وقلقها عليّ، أينما كنت، حتى وهي على أبواب الأبدية. مكثرة من ذكر آلامها من زواج أرملة أخيها وما كانت تُسرّه من الحفيظة للسيد "ترموند"، كانت تقول لي: "إن عمتك كانت كلما اعتزمت زيارة والدتك بسببك تسيء الاضطرابات التي تعترتها إلى صحتها سلفاً. ولما تعود تظل كئيبة ثمانية أيام لدرجة تتلفها...".

ما كنت أجهل هذه التفاصيل البسيطة لكنها تساعدني في الظرف الحاضر على ولوج سبل النظريات والافتراضات البشعة إذ كنت أعود فأحلل أفكارى حيال السيد "ترموند" قائلاً في نفسي: "ليكن مجرماً، فهل من دليل واحد منذ الحادثة يضيء سبيل إثبات إجرامه"؟ إن فزع عمتي هو مع ذلك، دليل على أي لست أحقق فيما أنقاد إليه من التحليل لأنها غدت مخيتها بوساوس شبيهة بوساوسي... لكنها كانت ترتاب أيضاً من جهة والدي وإلا لصادقت على هذا الزواج الذي لا بد أنها عدته أفضح دنس... على أن هذا لا يمنع أن تكون مخطئة من جهة والدي محقة من جهة زوجها. ثم ألا

يكون في كراهته لي، وكنت أقارنها بكراهتي له، علامة أيضًا؟ أما أرى من هذه المقارنة أن هناك ما هو أكبر من التنافر بين ابن وزوج أمه؟ إذن، كم كان في الحقيقة يمقتني إذ كنت أثير في مخيلته بوجودي أمامه صورة أبي حيًّا، ذلك الأب الذي كنت أشبهه الشبه كله والذي قد يكون هو قاتله! ثم ما سبب اضطراب طباعه واحتياجه المتواتر للعزلة والتلهي عما يخالجه من أفكار مؤلمة وتلك الأحزان التي عرفت من والدي أنه كثيرًا ما يقيم فيها؟ كنت قد عللت هذا الخلق الغريب بأنه نتيجة مرض الكبد الذي كان منذ بضع سنين يكمد لونه ويلزمه الفراش من وقت لآخر نهائيًّا لأفطح الآلام حتى يستغيث مع ما فطر عليه من الاحتمال. فهل يكون هذا الخلق الغريب وهذا المرض نفسه رد الفعل الناشئ من ذلك الحادث الذي وإن كان غامضًا إلا أنه حقيقي يثير في المخيلة صورًا مفزعة هي وخزات الضمير؟ أما أعلم بالاختبار ما بين قوى النفس والجسم من وثيق العلاقات ومضار تسلط الفكرة الثابتة بالصحة وسلطان الفكر العتيد القاتل وأنا الذي أقع فريسة الآلام العصبية إذا عراني من التأثير ما فيه شيء من الشدة؟ ثم إني كنت أعود فأشعر بنفسي حانقًا هائجًا من فعل الشك. فما أشقى من تتولاه الشكوك لهذه الدرجة! إنما يكون رأسه من الاضطراب كسفينة تلعب بها الأمواج والمريض على ظهرها يهتز مضطربًا غارقًا في عرقه تتبدد قواه وهو يظن أنه هالك...

(11)

لم أجد حيال ما أنا فيه من قلق لا يرحم إلا علاجًا وحدًا هو نفسه الذي لجأت إليه حيال والدي. فإنه لما أن كان مفروضًا لكبح جماح المخيلة مقاومتها بالحقائق، رأيت أن أواجه الرجل الذي تحوم حوله شكوكي فأسلط عليه نظراتي وهو على حقيقته لا على ما تصوره مخيلتي فأتبين ما إذا كنت فريسة لكابوس الوسواس، وكفاني ما أنا فيه من حال قاتلة تزيدني من يوم لآخر، ارتباكًا وعجزًا عن البت فيما يعرض لي من الأدلة _وعلى الأخص بسبب عزلتي_ حتى كدت أصدقها وأصبحت لديّ أقل خاطرة برهانًا قويًا مع أنها قد تكن دليلًا ضعيفًا. حقًا لقد حان الوقت لمقاومة هذه الشكوك، ففي ذلك صالح وعلى الأخص للتحقيق الذي فرضته على نفسي ولا بد لي من التقم فيه، فإن لم أفعل وقت في تلك الحال العصبية التي عانيتها كثيرًا حتى لم أعد معها أتملك عواطفني...

إذن قد أصررت على مبارحة "كومبيني" عائداً إلى باريس حيث أرى زوج أُمي فأحكم مسترشداً بأول شعور يرتسم على محياه، حين أواجهه فجأة، بمبلغ ما تستقه شكوكي من التقدير. فإن نفسي كانت تحدثني بأنه إذا كانت له يد في قتل أبي فلا بد أنه خشي فِراسة

عمتي أكثر من خشيتها كل شيء. فلقد قامت علاقاتهما ببعضهما على التكلف وكانت هي تضمر له حقدًا لم يفته بالطبع وهو خبيث. فإذا كان أمًّا أما يخشى أن عمتي قد تكون استودعتني خبايا قلبها وهي على أبواب الأبدية؟ فحالته خلال أول محادثة أداهمه بها _ غير تارك له فرصة الاحتياط_ قد تكون حجة دامغة. ومع كل فيما ذا أخطر في هذه المحاولة التي أرجو بها انتزاع ذلك الدليل؟ لا شيء سوى بقاأي أسيرًا لتلك الشكوك، على أني قد أصيب المرمى...

عدت إذن سرًّا إلى باريس واتجهت حالًّا نحو شارع "لا تور موبور" وإني لأتمثل نفسي وقد وقفت إلى باب المنزل حوالي الساعة الثانية بعد الظهر موقنًا تقريبًا بأني سأقابل السيد "ترموند" إذ كان من عادته أن يمكث من الساعة الثانية إلى الثالثة في البهو يدخن بعد تناول الطعام ثم ينصرف هو ووالدي، كل في سبيله، في التنزه أو زيارة الأصدقاء حيث يعودان حوالي السابعة لتناول العشاء معًا. توجهت ماشيًا تهدئة لأعصابي من طريق الحركة ساخرًا أشد سخرية من نفسي لأني كلما اقتربت من الحقيقة تراءت لي تلك الأوهام، التي تجرعت منها المرار في عزلتي، كأما هي أهواء طفل مريض. إذ كنت أذكر ما انتابني من خجل وخزي حين وصول والدي إلى "كومبيني" عندما ذهبت لمقابلتها كما ذهب أورست لمقابلة "كليتمنستر" فألفت امرأة لا هم لها إلا ثوب الحداد وقبعاتها وحقائبها وساعاتها ووساداتها. فهل ستكون تلك

السخرية عينها نصيبي عند أول محادثة بيني وبين زوج والدتي؟ قد يكون ذلك فأقتنع مرة أخرى بأني أسير وساوسي.

كان يؤلمني شديد الألم أن أتحقق هذا الضعف في نفسي فأقارن عقليتي بعقلية الثيران التي رأيتها في ملعب "سانت سيباستيان" في سياحتي بجبال "البرنات" أثناء العطلة المدرسية، تلك البهائم الغبية التي كانت تنقض بجنون على قطعة قماش قرمزية لا على المصارع الماهر الحذر الذي كان يستخف بها فيلعب بغضبها.

دققت الجرس مثقل الرأس بهذه الأفكار المثبطة وفي برهة انتظاري رأيت العمارة التي أقامها بفن محكم من الأحطاب التاجر الذي كان يشغل ببضائحه الأرض المجاورة فتذكرت صبيحات أيام الآحاد التي قضيتها فيما مضى متأملاً في تلك الأكوام المتسقة وما هي عليه من التعقيد. فهل أنا الآن أوفر عقلاً مني إذ ذاك؟

فتح الباب فعرفت الفناء الضيق والرفرف الزجاجي وبساط السلم الأحمر. أما البواب الذي حياني فلم يكن ذلك الذي كنت أتوهم في طفولتي أنني موضع احتقاره وأما الخادم الذي فتح لي الباب فهو نفسه البارد ذو الوجه الحليق الذي كنت أتصور أنه كان يرمقني بهانة، يا لها من طفولة! وما كدت أوجه لهذا الخادم سؤالاً حتى أجابني بأن والدتي والسيد "ترموند" موجودان ومعهما صديقة هي السيدة "برنار" فأدركت ما كان عليه جو المنزل، فإن هذه السيدة الجميلة ذكية مماجنة

ثرثرة سمجة سريعة الضحك لأقل حركة وكانت مشهورة بعلاقتها مع الكونت "ده كاندا". لذلك أيقنت أنني لا بد سامع حديث الأزياء وقضايا الانفصال وشؤون الفسق والتغني بالقبعات فأنزل من سمو أحلام المحقق إلى درك الطيش الباريسي!

أدخلني الخادم البهو وكنت وثيق العلم بما يحوي من أريكة شرقية وأزهار نظرة وأثاث معقد وبسط بهت قليلاً وصورة للمصور الفرنسي "ميسونيه" مكان صورة أبي وتلك الأواني المزخرفة، غير منظمة والمظلة اليابانية الهائلة مفتوحة وسط السقف وما يغشى الحوائط من صور يابانية حيكت باليد، فرأيت لأول نظرة، والدي تترجح على مقعد هزاز وأمامها السيدة "برنار" مدخلة إحدى يديها في فراء اليد محرّكة الأخرى والسيد "ترموند" واقفاً بردائه الرسمي يدخل لفافة مصغياً لحديثهما وظهره إلى المدفأة مدفئاً رجله اليمنى على حافظها. فلم أكد أدخل حتى صاحت والدي دهشة فرحة وقد وقفت لتستقبلني، أما السيدة "برنار" فتظاهرت كسيدة جلييلة عطوفة آلمة لشخص من معارفها أصابته كارثة جلى. أدركت في الحال هذه الأمور البسيطة كما لمحت اضطراب حدقتي السيد "ترموند" الفجائي وما علا وجهه فأسرع بكتمانه من تأثر لظهوري أمامه على غير انتظار.

وبعد؟ أم يعتزني أنا الآخر ما عراه؟ قد أستطيع أن أقسم أنه عانى في تلك البرهة ما عانيت من انقباض وأنه قد ضاق صدره فعلام يدل ذلك؟ على أنه كان يشعر نحوي بما أشعر نحوه من كراهة. فهل هذا يعد دافعاً للبتُّ بأنه القاتل؟

كان هذا الرجل زوج أمي فقط، زوج أم يمقت ابنها، شأنه منذ سنين. ومع كل فهذه البرهة السريعة التي مرت فيها بهذا المنزل كارهاً، قد أثارَت في راسي شعوراً غريباً حينما أمسكت يده، بعد أن قبلت والدي وأديت فرض التحية للسيدة "برنار". وهل أمسكت يده حقاً؟ كلا، بل كالعادة أطراف أصابعه وقد اضطربت بين أصابعي، وكم من مرة ارتعدت يدي أنا الآخر ارتعاد يده في مثل هذه الملامسة!

طنطن هذا الرجل بجمل العطف التي سبق أن سطرها لي في الريف ونطقت السيدة "برنار" من مثيلاتها جملاً أخرى ثم عادت المحادثة سيرتها الأولى فقصرت همي على التفرس في وجوههم صامتاً فشعرت شعوراً لم يسبق أن بلغ ما بلغ من الدقة بالفرق العظيم بينها، لا من جهة السن ولكن من حيث الحدة والغموض، كم كان محيا والدي سهلاً تقرأ فيه كأنك تقرأ صحيفة كتبت بحروف جلية! وكم كانت روح السيدة برنار" وهي طائشة غبية، تتكشف لأول وهلة خلال تقاطيع محياها الدقيقة! وكم كان تكلفهما ضئيلاً تستره عذوبة الأولى الشعرية ودلُّ الثانية الرشيقي! وكم كان، على الضد محيا زوج

أمي غامضًا عسوفًا! فإنه بعينيه الزائغتين اللتين كانتا تتفاديان المراقبة وشعره الكثيف الذي وخطه المشيب قبل الأوان وبشرته التي أشحبها المرض، كان محياه غامضًا حادًا مضطربًا ينم على أن رجل التمدن الذي كان يتحدث إلى تينك السيدتين المتدنتين ليس إلا مخلوقًا من جنس آخر، بل ليس إلا وحشًا!

فأية أهواء أو هواجس أتلفتته؟ وهل هذا محيا رجل سعيد ولد وشب في بحبوحة الغنى والنعيم، تغلب على الظروف وتزوج المرأة التي يحبها، رجل لم تضره بليلة الطمع ولم يذق مشاق جمع الثروة ولا آلام الإهانة في الحب؟

كنت مقتنعًا أن ما به من تلف سببه مرض الكبد، فلماذا أصبحت أرى منذ تلك اللحظة أي كنت في ضلالة الطفل وأن ذلك لا بد لسبب خفي حتى دهشت لإهمالي فحصه من بادئ الأمر؟ ولماذا وجدت نفسي في حضرته فجأة _بعكس ما توقعته وما صادفته مع والدتي_ أكثر تردبًا في وهدة الشكوك التي طالما تمنيت النجاة منها؟ بل لماذا فزعت عندما تقابلت أنظارنا فأسرعت بتحويل أنظاري خجلًا فرعًا حتى أنه لم يستطع قراءة أفكارني؟ كم كنت جبانًا! فيما أن أكون مخطئًا في وساوسي أو مصيبًا ولا بد إذن من البحث عن الحقيقة _مناطق آمالي_ لأعرف أعلى هدى أنا أم على ضلال. لكنني ما لبثت أن وجدت هذا البحث شاقًا إذ لا بد لي من الارتكاز على أدلة قاطعة.

فأين هي وكيف أجدها؟ فإن الغموض المحيط بالجريمة يحرمني الأمل في اكتشاف حقيقتها حتى ولو كان ذلك التحقيق عملياً. فماذا يجب؟ يجب الوثوق مما إذا كان السيد "ترموند" شريكاً أو غير شريك للرجل الذي استدرج أبي إلى الكمين، ولم أعرف هذا الرجل ولا أدلة ترشديني إليه سوى تفصيلات تنكره والافتراضات الغامضة التي افترضها قاضي التحقيق. لو أتيح لي على الأقل استشارة هذا القاضي للاستئارة باختباره! كثيراً ما أصررت على أن أحمل الخطابات إليه وأن أستجديه مشورة أو إرشاداً أو دليلاً لكنني ما كنت أبليغ باب منزله حتى تتور صورة أمي في مخيلتي فتحويل دون دخولي قائلاً في نفسي: "وإذا ارتابت فيّ والدتي كما ارتابت عمتي؟" لذلك كنت أعود أدراجي فأحتبس في منزلي ساعات طويلة مسمماً رأسي بلفافات التبغ عاكفاً على قراءة الخطابات المشؤمة التي حفظتها تقريباً لأحقق شعوري الأول، بينما أتمنى القضاء عليه، فكان يتزايد كلما تماديت في القراءة لكنني كنت أجنبي من وراء قراءتها شعوراً بأن ما كنت أتلسمه من اليقين لن يكون إلا نفسانياً، وبما أن تخيلاتي من حيث الجريمة لا تركز إلا على الأدلة العقلية لا على الأدلة العملية التي عزّ عليّ بلوغها، فقد اضطرت إذن للتعلق بشغف بتلك الأدلة العقلية دون سواها فبدأت أبحث عقلياً، كما كنت أفعل في كومبيني، فأقول في نفسي: "ليكن السيد "ترموند" مجرماً، فما هي حالته الفكرية؟ وإذا وضحت هذه الحالة فماذا أفعل لأنتزع منه الدليل على إجرامه؟" فأما من جهة حالته

الفكرية فلا ريب أنه حليف الألم والكآبة معذب النفس. فإذا كان ذلك لذكرى جريمة قتل اقترفها في ماضيه، فهو إذن فريسة أفضع عذاب وخزات الضمير. فالمسألة تنحصر إذن في ابتداع وسيلة تفضح ما يعانیه من عذاب الضمير وذلك بإثارة شبخ الجريمة أمام عينيه فجأة وبوحشية. فإذا كان آثمًا، تعذر عليه ألا يضطرب. وإذا كان بريئًا، فلن يعرفه أثر هذه التجربة.

ولكن أنى لي تحقيق ذلك، ولا يتيسر إلا على المسارح وفي الروايات، أن يبتدع المنتقم حادثة قتل أمام القاتل وهو يراقبه ليعرف ما يرتسم على وجهه في لحظة لا يستطيع امتلاك عواطفه فيها؟ أما في عالم الحقيقة فلا يمكن غالبًا اكتشاف خبيثة قلب أحد إلا بطريق الكلام وهو أداة يشق استعمالها. لأني لم أكن أستطيع الذهاب مباشرة للسيد "ترموند" فأقول له، في وجهه: "أنت قاتل أبي...". فإنه، بريئًا كان أو آثمًا، يطردني كما يطرد المجنون. بعد التفكير مليًا لم أجد إلا وسيلة منتجة هي أن ألجأ إلى محادثة مع زوج أُمي ونحن وحيدان، في لحظة يجهلها، محادثة سداها الكنايات والتوريات تكون كل كلمة فيها كأصعب يوضع على أشد حنايا قلبه تألمًا فيضطرب إذا كانت وساوسه وساوس قاتلٍ أن يسائل نفسه: "ماذا يقصد بما يقول إذا لم يكن يعرف شيئًا؟ أيعرف شيئًا؟ ماذا يعرف؟ كنت أدرك من محياه مبلغ سيطرة تأثيري عليه بل وأدق حركاته وإذن فلن تفوتني أقل حركة اضطراب تعرفه مهما كانت خفيفة فإذا لم أصادف فيها الجهة الضعيفة قررت بطلان جميع ما ثار وما يزال ثائرًا في

نفسى من الشكوك منذ وفاة أبى، نعم، أقنع إذ ذاك بهذه الدلالة البسيطة التي لا تكذبها خطابات أبى من أن السيد "ترموند" شغف بوالدي غير أمل شيئاً أن أبى كان حياً فلما مات انتهز فرصة ترمل والدي الذي قد لا يكون اجترأ على التفكير فيه. أما إذا ألفيته يتخيل وساوسي ويدركها ويتبع مرامي كلماتي وهو قلق، أما إذا لمع في نظره ذلك الضوء الذي يفضح الفزع الغريزي في حيوان هوجم من حيث يظن أنه أكثر أمناً، وبالاختصار إذا أفلحت هذه التجربة فيذن... إذن؟ ولم أجرؤ على التفكير حتى في جواب "إذن"! حقاً، لقد اضطربت إما اضطراب عند هذا الاحتمال إذ أنى يكون لي من القوة ما يسمح لي بولوج هذه المحادثة التي ستكون بمثابة مبارزة ينتصر فيها من يتفوق وأنا سريع التأثر والاضطراب! إذن سيكون لعب هذا الدور أشق عليّ منه على سواي. لأني لا أكاد أفكر فيه حتى تتشجع أعصابي... ولكن ما هذا؟ أفتح لي هذه الفرصة، وطالما تمنيتها، للعمل، للتفاني في مهمة الانتقام، فأتردد؟

لقد كان لي، لحسن الحظ أو لسوءه، رفيق لمشورته سلطان على ترددي: صورة أبى. فكنت أستيقظ في الليل مثقلاً بهذه الأفكار فأقصد إليها فأأمل فيها.

ما أعظم ما بيننا من الشبه وإن كنت أقل منه قوة! كم كنت أشعر به أقرب إليّ ممن سواه! كم أحبه! نعم، كنت أمتع ناظري بملامحه بتأثر يفوق الوصف وعلى الأخص فمه الذي لم يكن في حاجة ليصيح

بي: "أي أندريه، اذكرني!" "كلا أيها الميتم المسكين، لن أنفك عن الأخذ بشارك حتى ولو حاولت المستحيل". هكذا كنت أفعل فتتحول اضطراباتي العصبية إلى إرادة حماسية أو هادئة أو كليهما.

وهكذا بعد أن سيطرتُ، بقوة مطلقة تقريبًا على نفسي، حددت موضوع محادثتي مع زوج أُمي مستوحياً خطابات أبي، وقصدت إلى نزل شارع "لا تور موبور" بعد ظهر يوم من أوائل فبراير موقناً تقريباً أنني سأجده وحيداً لعلمي أن والدتي ستتناول طعام الإفطار في ذلك اليوم لدى السيدة "برنار". فوجدته وحيداً فصاح بي صوت الضمير الذي يحول دون الجندي والنكوص: "أي أندريه، هيا وكن رجلاً!" فشعرت بفضل الإقدام في تهدئة النفس. فإنما يتعذب المرء إذا أطال التفكير والرجوع إلى قلبه.

وا أسفاه! لماذا لم أستطع الإقدام من بادئ الأمر؟

وجدت السيد "ترموند" في مكتبه جالساً على مقعد منخفض بالقرب من المدفأة لسرعة تأثيره بالبرد. وكان يدخل لأنه مثلي يعكف على التسمم بالتبغ في أرد! الساعات غير تارك لفافة إلا يدخلن أخرى.

وهذا المكتب حجرة فسيحة أنيقة مؤثثة بغالي الأثاث الذي جلبه "الديبلوماسي" الرشيق من سياحاته وعلى الأخص من الأندلس وبها مكتبة عظيمة تحوي أسفار التاريخ والاقتصاد بتجليداتها الرشيقة وأسفاراً أخرى غير مجلدة وهي الروايات. وبوسط هذه الغرفة مكتب

عريض مرتبة عليه الأدوات الضرورية للكتابة بعناية فائقة. وهناك صور معلقة في إطاراتها من جلد الماعز واحدة لوالدي واثنتان لوالد السيد "ترموند" ووالدته. تشف هذه الغرفة بما يتصاعد فيها من سحب لفافات التبغ عن عناية ذلك الرجل بالإتقان. لكن هذه العناية التي كان يشاطره فيها كثير ممن هم في صفه، إنما تخفي وراءها أقصى أنواع الرقائية والملق.

لم يك زوج أُمي في مظهر حياته الخارجي ليتظاهر بكتمانه عواطفه دون أن يستطيع معرفة إن كان يخفي أو لا يخفي شيئاً وراء أدبه وأناقته. ولقد ساورتني كثيراً هذه الأفكار في فترة كنت مدفوعاً فيها بشغف اكتشاف خفي خلقه وقد عادت فاستولت عليّ عنيفة في هذه اللحظة التي أقبلت عليه فيها متسلحاً برغبة صادقة ف معرفة ماضيه. ومع ذلك فقد تبادلنا تحية عليها ظاهرة المودة وجلست إلى الركن الآخر من المدفأة وأشعلت لفافة وسألته مبرراً زيارتي الفجائية:

— أليست والدي هنا؟ فأجابني:

— ألم تقل لك في اليوم الماضي إنها ستفطر عند السيدة "برنار"؟ رحلة صغيرة لدى "ميتلاند"، المصور الأمريكي الذي شغفت به "باريس" منذ عامين، لتشاهد صورة "لويس ده كاندال" التي أمهما... ثم زاد بكل بساطة: أليديك ما تريد تبليغها به؟

فهذا النزر من الكلمات كان كافيًا ليظهر لي أنه لاحظ غرابة زيارتي. فهل أمٌ لذلك أو أغتبط؟ وجدت إذن أنه علم أنني جئت مدفوعًا بباعث خاص فحولت مجرى الحديث متكلمًا عن هذا المصور الذي عرفت له لوحة رقص النوريات في فندق ريفي بغرناطة فشرحت له مواقف الراقصات الجريئة وما تحويه اللوحة من ألوان باهتة وزهور البنفسج الحمراء في شعور سوداء ووجه المغربي عازفًا على قيثارته. وكنت أسأله عن الأندلس فيجيبني بجلاء وأدب لا تكلف فيهما متشاغلًا بالتدخين وتقليب جذوات النار في المدفأة بالمقبض. لكنني تبينت من ارتعاد أصابعه، وهو الدليل الوحيد الذي لم يستطع التغلب عليه من بين أدل اضطرابه العديدة، أن وجودي كان كالسابق مُلمه. على أنه كان يتحدث إليّ برقته المعتادة وصوته العذب الذي آنست فيه تصنعًا، مسلطًا عينيه على لهيب المدفأة ووجهه على ما عهدت من جهد وكأبة بالغين، فضلًا عن تقلص فمه بما يشعر أنه فريسة أفكار مرهقة. فتفرست مليًا في هذا الوجه الممقوت، متنقلًا من حديث لآخر، حتى دهمت بهذه الكلمات:

– أديت هذا الصباح زيارة هامة. فأجابني بغير اكتراث:

– هذا ما يميزك عني لأني أضعت الوقت في العناية بهمراسلاتي...

فاستتبت قائلاً:

– حقًا، زيارة جد هامة... أمضيت ساعتين لدى الأستاذ "ماسول"...

كنت عظيم الارتكان على تأثير هذا الاسم الذي كان يجب أن يذكره فجأةً
بتحقيق جناية "النزل الملكي". لكن وجهه لم يعره أقل تغير بل وضع المقبض جانباً
واستلقى إلى الورا وسألني وعليه ظاهرة السهو:

– قاضي التحقيق القديم؟ فيم يشغل الآن؟

فهل كان معقولاً أنه يجهل حاضر ذلك الرجل الذي كان يجب أن يخشاه
أكثر من سواه، لو كان مجرمًا؟ كيف أستطيع معرفة إن كان هذا الثبات مصطنعًا؟
لكني رأيت فجأةً أن الشرك الذي نصبته له لم يكن إلا ثمرة مخيلة طفل أبله.
وبفرض أنه كان في تلك اللحظة من شدة الاضطراب بحيث ناجى نفسه عن
الغرض الذي قصدت إليه. فإن ذلك ليدفعه إلى إخفاء شعوره... لا يهمني فقد
بدأت ولا بد لي من المضي في الضرب بأقصى قوتي. فأجبت:

– الأستاذ "ماسول" مستشار في الاستئناف الآن _ ثم زدت كذبًا: أراه كثيرًا...

وقد تحدثنا هذا الصباح عن المجرمين الذين يفلتون من العقاب. تصور أنه مقتنع
أن "ترويهان" كان شريكًا في الجريمة. إنه موقن بذلك من تفصيلات الجريمة التي
تشعر في رأيه بأن فيها مجرمين... فإذا كان ذلك صحيحًا وجب الاعتراف بأن
للسادة القتلة الشرف، مهما كان ذلك مدهشًا، بما أن قاتل الأطفال الشنيع
هذا استسلم لقطع عنقه غير بائع باسم شريكه... على أن الأمر سواء فإنه

لا بد للشريك في الجريمة من معاناة أشق صنوف الفزع، من لحظة اكتشاف الجثث والقبض على زميله... أما أنا فلا أفخر بمثل هذا الشرف إذ أني لو أدت بي نزعة إلى الإجرام فسأجرم وحيداً... ثم أضفت مماجناً: وأنت؟ وهو سؤال إذا وجه لبريء لعدّه مجانة تافهة وإذا وجه لمجرم لجمد دمه في عروقه فزغاً. لكن هذا الرجل أصغى إليّ محتجباً في غيوم دخان لفاثته منخفض الجفنين ولم أعد أرى يده اليسرى إذ تركها مدلاة من الجهة الأخرى كما أخفى يده اليمنى في جيب ردائه ثم صمت برهة قد تكون الفاصل بين سؤالي وجوابه خلتها طويلة. ولم خلتها كذلك ومن فطرته التريث في محادثاته؟ أليس من الطبيعي أنه إذا كان بريئاً فلا أهمية لهذا السؤال لديه وإذا كان آثماً فلا بد له من حسابان مدى إجابته؟ كيف أصل إلى معرفة ذلك؟ قد أقفل عينيه إقفالاً، وهو ما يفعله كثيراً، وأجابني بنغمة واضحة كأنها يبدي رأياً عاماً:

– من اليقين أن من بين حنايا الضمير ما يبقى سليماً عند كثير ممن بلغوا حضيض الانحطاط وإن ذلك ليرى على الأخص عند السكنى في البلاد التي خُلِق ساكنيها أصدق من خلقنا وأقرب إلى الفطرة. خذ مثلاً تلك الأندلس التي تهكم كثيراً، لما كنت أنا عائشاً فيها، كانت ما يزال فيها قطاع الطرق... فكانت تُمضى المعاهدات معهم ليتمكن اختراق سلسلة جبال في أمنٍ... فلم يكن أولئك الأشرار يخلون بمعاهداتهم.

وسجل أشهر الوقائع يحوي كثيرًا من ذكرى أشرار كانوا أصدق الأبناء وأبر الأبناء وأخلص العشاق... لكني مثلك أظن أنه لا يصح الركون إليهم كثيرًا... ثم ابتسم عندما نطق بهذه الكلمات الأخيرة وأخذ ينظر إليَّ بحدقتيه الزرقاوين الواضحتين بما فيهما من تأثير لا يدرك.

كلا، لم أكن من المقدرّة بحيث أستشف هذا القلب ولا بد لذلك من عبقرية أخرى غير عبقرتي وحدة نظر غير حدة نظري وقوة غير قوتي لتقوم أمام هذا الشخص بدور المحقق الذي يخدر بسُلطان تأثيره مشاعر المجرم. ولكن، لماذا كانت تتجسم شكوكي فأشعر أنه قد تناهى في إخفاء ما بنفسه؟ أما فطرت نفوس على الإخفاء كما فطرت نفوس على الصراحة؟ هيا ولنتشجع ولنهجم مرة أخرى.

فقلت له مستتبعا:

- فتساءلنا أيضًا: الأستاذ "ماسول" وأنا عما تكون عليه حياة شريك "ترويمان" أو ذلك المدعو "روشداال" الذي لم نتنازل، لا هو ولا أنا عن العثور عليه... لأن الأستاذ "ماسول" عني كثيرًا قبل ترك منصبه، بتجديد مدة العقوبة. فأمامنا متسع من الوقت للبحث... فهل ينام أولئك المجرمون في طمأنينة؟ وهل عوقبوا، ولو في أمنهم الوقتي، بالفرع أو بتأنيب الضمير؟ أليس من غريب السخرية أن يكونوا الآن في طائفة الأعيان، هادئين مدخنين لفافاتهم مثلك ومثلي، عاشقين أو معشوقين؟ أتؤمن أنت بعذاب الضمير؟ فأجابني:

– بلى، إني لمؤمن.

فهل خفتي المصطنعة في حديثي وجدته في كلامه داعية ظني بأن صوته رزين عميق؟ لكن، كلا، لقد خدعت، لأنه احتمال دون اضطراب خبر تجديد مدة العقوبة وهو لا شك مفزعه إذا كان شريكًا، بل أجاب بصوت هادئ غير عابئ بسؤالٍ إلا من وجهته الفلسفية:

– وهل يؤمن الأستاذ "ماسؤل" بعذاب الضمير عند أولئك الأشرار وكثيرًا ما فحص من أحوالهم؟ فأجبت:

– لا أستطيع أن أجيئك بالدقة لأن الأستاذ "ماسؤل" من أولئك الفلاسفة السفسطائيين وقد رأى كثيرًا من الحوادث البشعة ولذلك يزعم أن هذا الأمر يرجع لقوة المعدة وتأثير التربية الدينية كما يزعم أن رجلًا تهضم معدته بقوة ولم يطرق أذنيه، وهو طفل، حديث جهنم، قد يستطيع السرقة والقتل صباح مساء دون أن يعرف من توبيخ الضمير سوى الخوف من الشرطة... كذلك يقول هذا المتشائم إنه لا يعلم مبلغ تأثير فكرة الآخرة في حالة الوحدة وأظنه محققًا لأنني كثيرًا ما فكرت في الليل بغير سبب في الموت، أنا الذي لا أؤمن بشيء... فيعروني الخوف... نعم، يعروني الخوف... وأنت؟ أتؤمن بالآخرة؟

فأجابني: نعم.

وأظنني في هذه المرة قد تبينت انزعاجًا في صوته فألحفت في السؤال:

– وتؤمن بعدل الله؟ فأجابني بنغمة غريبة:

– نعم، وبرحمته. فصحت قائلاً:

إنه لعدل غريب يستطيع كل شيء ولكنه يتمهل في العقاب! ولقد كانت المسكينة عمتي تقول عندما كنت أكلمها عن الانتقام لأبي: "أنا أجازي، يقول الرب" لكني بالرغم من كلمة الرسول، لو تملك من القاتل، لو كان القاتل أمامي، لو كنت موقناً... كلا لن أنتظر أن تحين الساعة ذلك العدل الإلهي...

وكنت قد وقفت عندما نطقت بهذه الكلمات فريسة لتِهيج قهري شعرت في الحال أنه الطفولة لأن السيد "ترموند" كان قد انحنى من جديد على النار يقلبها بالمقبض دون أن ينبس بكلمة.

فهل كان حقاً كما ظننت قد شعر بشيء من الاضطراب عندما سمعني أتكلم عن ذلك اليوم الآخر الذي خشبته اليوم ويدي ملوثتان بالدم؟ لم أستطع البت بشيء لأن وجهه كان ما يزال ساكناً ولكنه حزين إلا أن اضطراب يديه كان بالغاً. ثم ساد السكون بيننا فجأة ولكن، كم أمضينا لحظات في مثل هذا السكوت، كلما وُجدنا ولا ثالث بيننا! ثم بم يجيب أو ماذا يصنع ضد انفجار ألمي وحقدِي، أنا اليتيم؟ وبريئاً كان أو مجرمًا وجب أن يسكت وقد سكت. فعراي أعظم القنوط ووددت في تلك الدقيقة لو يكون لدي أنكى آلات العصور الوسطى تعذيباً للمركبات الحديدية وقطع الحديد المحماة والرصاص المذاب لأستطيع بها جميعاً انتزاع سر أحكم الأفواه إقفالاً.

يا له من سخط ذاهب سدّي! وكان زوج أُمي قد نظر إلى الساعة فوقف

وقال لي:

– أتريد أن تستقل العربة معي فأنزلك حيث تريد في طريقي؟ ولديّ ميعاد في النادي لنتفق على الانتخاب الذي سيكون بعد غد، فهل ستحضره؟ فبدلاً من أن أجد أمامي ذلك المجرم المغلوب الذي تخيلته، وجدت رجلاً مدنيّاً يتأهب لتأدية واجباته حيال النادي. فرفضت مكرمه متمتاً فصحبي حتى البهو باسمًا... ولكن لماذا إذن لمّا تقابلنا بعد ذلك بربع ساعة صدفة وكنت راجلاً وكان مستقلاً عربته... نعم، لماذا تراءى لي وجهه شديد الاضطراب قائماً بحالة مفجعة؟ لم يرني، فقد كان في زاوية الطريق، أغير اللون كامداً... وكانت عيناه تنظران... أين وماذا؟ كان ذلك المار أمامي شبحاً من البؤس يختلف محياه جد الاختلاف عن ذلك المحيا الباسم الذي رأيته منذ هنيهة فوقف يداعيني شعور خارق، كأنها فرعت لنجاعي، مناجياً نفسي: "أأكون قد أصبت المرمى"؟

(12)

تولاني الفزع مساء ذلك اليوم والليالي التي تلته. فهناك تفاوت لا حدَّ له بين مخيلاتنا، مهما كانت محددة، وبين أقل ذرة من الحقيقة. حقًّا، فقد أهاجت في نفسي خطابات أبي انفعالات عميقة وأثارت أمام عيني مشاهد مفجعة أن هذا الأمر البسيط _ اضطراب زوج أُمي بعد محادثتنا _ قد هزني هزة أخرى، مع أنني كنت أتمنى من أعماق قلبي بعد قراءتي لتلك الخطابات وتكرارها، أن أكون ضالًّا وأن برهانًا ضئيلاً قد بيدد من مخيلتي شكوكًا ظننتها حمقى، ولعل ذلك لأني كنت أخشى سلفًا ذلك الواجب الهائل الذي قد يتحتم عليّ، نفاذه عن يقين. حقًّا، كنت كعاشق يأبي احتمال الخيانة، أتاحت له الصدفة اكتشاف خيانة خليلته فعمد إلى تحقيق دقيق، مع رغبة محزنة يكظمها في أن يسفر التحقيق عن براءتها، لأنه إن تحقق خيانتها وجب عليه العمل وهو يعلم ما يجره عليه ذلك. نعم، كنت كذلك العاشق إذ لمحتُ منذ اللحظة الأولى وجوب العمل إذا أيقنت بإجرام زوج الأم.

العمل؟ لم أكن أجرؤ عليه. كلا، لم أكن فكرت في هذا الواجب قبل مقابليتي، هذه المرة، لعدوي المترددي من فعل الألم على وسائد عربته. أما الآن فقد أخطرت بالتفكير فيه. فماذا أتخذ إذا كان مجرمًا؟

عندما عدت إلى ركني، جرؤت على إثارة هذه المسألة واضحة، فرأيت الموقف رهيباً. نعم، فإني مهما قلبتها، لا أصادف إلا أماً يعز التغلب عليه. فناجيت نفسي إذا كنت أترك الأشياء تبقى على ما هي عليه، ولكن كلا، لن أتحمل!

كثيراً ما كنت أرى والدي تقترب من السيد "ترموند" فتلمس جبينه بعطف فتضع عليه قبلة فأشعر كأن سهماً يمزق فؤادي وأسائل نفسي: "أحبو هذا العطف قاتل أبي؟" فليكن! لأعملن! ولأتشجعن، لأندفعن نحو والدي فأقول لها: "إن هذا الرجل القاتل..." وأريها إياه. لكن، هأنذا أعود فأشعر بمبلغ الألم المفجع الذي ستعانيه عند سماعها ذلك إذ أتخيلها، لما سينتابها من تمزيق فؤادها، مجنونة أو صريعة... كل لن أكلمها وإذا ما حصلت على الدليل الحاسم قدمته للعدالة. لكن مشهداً آخر ثار أمام ناظري، إذ تخيلت ما ستكون عليه أُمي في اللحظة التي قد يعتقل فيها زوجها، وقد تكون بالقرب منه، فتسأل عن جرمه ولا بد أن تسمع الجواب الهائل فتسحق وأكون أنا السبب بإرادتي، أنا الذي كتمت منذ طفولتي جميع ما عذب قلبي من حسرات وآلام كان في إفشائها تفريح لبلاوي، وما ذلك إلا إشفافاً عليها لأني كنت موفقاً بأنها سعيدة وبأن السعادة وحدها هي التي أعمتها عن آلامي. كنت أحبها وأوثر أن تعيش هانئة في ظل الجهل بالحقيقة. والآن؟ ما كنت لأستطيع أن صيبك بهذه الضربة أيها المخلوق الضعيف العزيز!

وهكذا رأيت مشهد الشؤم يتراءى مفرغاً في مستقبلي، إذا صدقت شكوكي. فقاومت في الحال بجميع قواي وهماً لا بد أن يجر إلى نتائج كهذه. وبعكس عادي لجأت إلى الافتراض... فأخذت أقول في نفسي: "زوج أُمي كئيب في عربته، فعلام يدل ذلك؟" ألم تكن لديه أسباب معقولة أو لها صحته التي تزداد كل يوم سوءاً؟

إن حدثاً واحداً قد يتيح لي البرهان المطلق، ذلك أن يكون هذا الرجل قد اضطر فوثب وثبة المفزوع بينما كنا نتحدث، أن يكون عم "همت"، أخي في النزع، قد وقف شاحباً فرغاً أمام شبح جريمته الذي ثار فجأة. لكنه لم يضطرب شيء في محيا زوج أُمي أثناء المحادثة حتى ولم يلمع أقل بريق في عينيه. فلماذا إذن أعد هذا البرود ملقاً وتصنعاً وأعد اضطراب محياه الذي تحققته بعد ساعة اعترافاً حقيقياً؟

كانت هذه الاستدلالات عادلة أو على الأقل هكذا بدت لي اليوم، حيث أكتب هادئاً هذه الذكريات. على أنها لم تتغلب على غريزتي المشؤومة التي أكرهتني على استتباع التحقيق.

نعم، كان حمقاً، بل جنوناً أن أفترض هذا الأمر الهائل، أن يكون السيد "ترموند" قد دفع آخر على قتل أبي. ومع ذلك فهذا الأمر مهم يكن بعيداً فإني لم أكن أستطيع إلا أن أفترض أنه في جميع الأوقات ممكن وفي بعضها واقعي. وهكذا عندما يرخي المرء العنان لمخيلته فتخالجها أفكار من هذا القبيل، يصبح أسيرها فلا يستطيع الحركة

حرًا. فإما أن يكون الإنسان جبانًا وإما أن يغرق أفكاره في بحار هذه الهواجس. كان من واجبي حيال أبي وأمي ونفسي أن أعرف سر الجريمة. فكنت أجول ساعات طويلة في مكتبي، مقلبًا هذه الأفكار المشنومة. وقد حصل أكثر من مرة أن تناولت غدارة فحشوتها وناجيت نفسي: "إن مجرد الضغط على هذا الزناد، حركة ضئيلة كهذه... وكنت أمثل الحركة_ تشفيني إلى الأبد من هذا القلق القاتل" ولكني لا أكاد أمسك تلك الغدارة حتى أذكر تلك الفاجعة الحقيقية التي كان فريستها أبي، فكنت أذكر بهو "النزل الملكي" والرجل المنتكر الذي كان ينتظره ووالدي عندما دخل فجلس إلى المائدة يقلب أوراقه وغدارة مثل هذه مسددة على بعد سنتيمترات من قفاه. وتلك الصعقة المفاجئة ورأسه يقع على المنضدة والقاتل يغطي بالمناشف ذلك العنق المثقوب الذي ينفجر منه الدم ثم يغسل يديه كأنها أتمَّ أمرًا عاديًا بهدوء وطمأنينة. لا أكاد أذكر ذلك حتى أسمع صوت الانتقام قاصفًا في فؤادي فأذهب إلى صورة الميت الذي ينظر إليَّ بعينيه الساكتين... فتداخلني شكوك ضد المحرض على هذه الجريمة وقد أتركها دون تحقيق لأني أخشى فرض العمل بعد ذلك!

آه! سأبت في الأمر بعد ذلك. إنما يجب أن أعرف أولاً، مهما كانت

العقبات...

قضيت ثلاثة أيام في عذاب التردد بين وسائل تخامرني فأرفضها لاستحالتها، فأنت لي المعرفة؟ لن أستطيع إذن _ مهما كان شعفي وتحمسي _ أن أنتزع سرّاً، إذا كان ثم سر، من قلب هذا الرجل، زوج أمي، مع ضعفي عن إخفاء تأثيراتي المتضاربة! فإن شعوري المؤلم بقوته وضعفي كان يخيفني من وجوده، بقدر ما أنا فيه راغب، فضلاً عن أن ذلك الشعور كان يجعل التنفس عليّ شاقاً بجانبه بل يشل في كل استعداد، فما أنا حياله كتلميذ شجاع ثابت القدم مضطر لمصارعة رجل عليم فهمته مضاعفة، هي الدفاع عن نفسه والانتصار. فما العمل الآن وقد رميت أول سهم ولكنه غير حاسم؟ وإذا كانت هذه المحادثة قد أثرت فعلاً في ضميره فماذا أتخذ للأضعف تأثيرها فأسحق تلك النفس؟

كنت واقفاً إلى هذه النقطة في أفكاري، أكوّن خطأ فأعود فأدهورها، وإذا ببطاقة وصلتي من والدي تشكو فيها عدم رجوعي منذ اليوم الذي لم أقابلها فيه وتخبني أن زوجها قد أصابته، أول أمس، نوبة من الكبد جد عنيفة...

أول أمس؟ إذن، كان في اليوم الثاني لمحادثتنا، إذن، قد يظن أن القدر يسر بمضاعفة إبهام الأدلة التي هي أساس ما يساورني من يأس مفرج. فهل تفسر هذه النوبة العنيفة سر كاتبته وهو في عربته؟ أكانت سبباً لتلك الكتابة أو أثراً بسيطاً للفرع الهائل الذي لا بد قد سحقه

بالرغم من تظاهره بعدم الاكتراث إذا كان آثمًا، عندما كنت أقذف عليه جمل التهديد؟ يا لله، يا له من شك ممقوت!

على أن والدتي قد زادت هذا الشك على أثر ذهابي إليها، إذ قالت: "هذه هي النوبة الثانية منذ شهرين ولم يسبق أن كانت ضربات المرض متقاربة هكذا... إن أشد ما يفزعني لهي تلك المقادير من المورفين التي يضطر لتعاطيها، هربًا من آلامه... لا ينام نومًا طبيعيًا ولم ينم ليلة منذ سنين دون أن يلجأ إلى العقاقير المنومة. لكن المرض كان متحملًا، أما الآن..." ثم هزت رأسها بحزن بالغ. أما أنا فبدلًا من مؤاساتها، ساءلت نفسي إذا لم يكن ذلك علامة أخرى وإذا لم يكن أرقه ناجمًا عن تعذيب الضمير، أو أن يكون نتيجة لاضطراب جسماني. ثم استتبت والدتي خجلة تقريبًا: "أتريد أن تراه؟" ولما أن ترددت، استنتجت أن ذلك لخشيتي أن أتعبه، وما كان إلا لشدة دهشتي من هذا العرض، فقالت: "إنما هو نفسه الذي طلبك... كان يريد أن يسألك تفصيلات عن الانتخاب في النادي...".

فهل كان ذلك حقًا السبب الحقيقي الذي لم أستطع إلا أن أراه غريبًا أو أنه يريد أن يثبت لي أنه ما يزال غير مكترث بمحادثتنا؟ وهل يجب أن ألمح في هذه المهمة، التي عهد بها إلى والدتي، دلالة بين ألف على شدة اهتمامه بأمر الحياة المدنية؟ أو أنه، وقد خشي شكوكي، أراد أن يختبرها، أو عذبه شغف الاستطلاع فأراد أن يتبين أفكاره من خلال ملامحي؟

لقد عدت فوجدت نفسي عند دخولي هذه الحجرة، التي كانت لي في طفولتي، في الحالة القلقة التي كنت عليها ذلك اليوم. على أن ذلك القلق كان ينقصه رجاء أن أرى السيد "ترموند" وقد أزعجته تورياتي المباشرة عن الجريمة التي كنت أظنه مجرمًا فيها.

كان أول شعور خالطني عندما أغلق الباب فطيغًا، فإني كنت ما أزال أذكر بضعة جمل من خطابات أبي عن سر الهجر الذي حل، رويدًا رويدًا، بينه وبين زوجه، فأراني منظر حجرة نوم زوج أمي هذه برهانًا جديدًا على عظيم الألفة بينها وبين زوجها الثاني، فإن هذه الحجرة على بساطة أاثانها لم زوج أمي ينام فيها إلا مريضًا. أما في الأيام العادية فلم يكن يستعملها إلا لارتداء ملابسها فهي إذن ليست حجرة نومه الدائمة. وهي مضاءة بمصباح صغير يغطيه حجاب وردي اللون بعيد عن السرير، لكيلا يتعب المريض ضوءه وكان بها صورة لوالدي مدهشة لدقة إحكامها معلقة أمام السرير بحيث يشرف نظر السيد "ترموند" عندما ينام في الليل ويستيقظ في الصباح، على هذا الوجه الذي تمكن المصور الشهير "بنات" فأحسن فيه رسم جمالها.

ألقيت نظرة على هذه الصورة ثم نظرة أخرى على هذا السرير فلمحت زوج أمي، وبين الوسائد رأسه، وقد ابيض شعره وشحب لونه وتضعض محياه. ورأيت حول عنقه شملة من الحرير لونها أزرق باهت، كنت رأيته من قبل حول عنق والدي وعرفت أيضًا الغطاء

الذي صنعته له والدتي وهو شبيه بالذي صنعته لي تتخلله خيوط الحرير ورأيت كثيراً من النفائس التي قد تجدد في تلك الانفعالات الهائلة ومبعثها مقاسمته إياي عطف أُمي، تلك المقاسمة التي آلمتني زمناً طويلاً والتي زاد اليوم ألمها بأشد فظاعة، بفعل الشكوك. شعرت أن عيناى تستشفان اضطرابات هذه المشاعر.

ولما أن جلست إلى سريره وسألته عن أحواله بصوت كنت أشعر أنه صوت سواى، حاولت تجنب نظراته. أما والدتي فما كادت تدخلني حتى خرجت لتعني بالطبع بدقيق أمور مريضها العزيز.

فسألني عن مسألة النادي التي تذرع بها ليراني. وإني وإن لم أر وجهه لأني كنت أشعر أنه يتفرس في وجهي فكنت أتعت في تسليط نظري على غدارة جيب كبيرة كانت داخل درج هذه المنضدة المفتوح، بين ساعة وكيس نقود من الحرير الأسمر من صنع والدتي.

فما هي يا تُرى تلك الشواغل المفجعة التي أوجدت هذا السلاح في متناول اليد وقد يكون وضعه عادةً؟ وهل تنبأ من التفاتي إليه بما يجول بخاطري؟ أو صادفت كذلك نظراته هذه الغدارة فاصطاد من الأفكار التي يوجيها منظرها موضوعاً يجعل المحادثة بيننا ميسرة؟ فقد سألتني كأنها يجيب على ما ناحيت به نفسي:

— أراك تتأمل في هذه الغدارة، إنها لجميلة، أليس كذلك؟ ثم أمسك السلاح فقلبه فأعاده مكانه فأغلق الدرج فاستتبع قائلاً: اتخذت هذه

العادة الغريبة... قد لا أستطيع النوم دون أن يكون بجانبى سلاح معدّ... ومع كل هذه العادة لا تسيء إلى أحد ولعل لها فائدتها... ولو كان والدك متسلحًا بالعبوة كهذه عندما ذهب إلى المنزل الملكي لكانت ظروف القتل أقل سهولة عند القاتل. فلم أستطع في هذه المرة التغلب على نفسي فرفعت ناظرِي لأقرأ ما بناظره إذ كيف جرؤ على إثارة هذه الذكرى بهذه البساطة إذا كان آثمًا؟ ولماذا _ إذا لم يكنه _ هذا التصدع ودليله تجنب نظراته نظراتي؟ فهل كان بإلماعه إلى موت أبي مطيعًا لتصورات تكوّنت في مخيلته أو تعمد إظهار خلو ذهنه خلوًا تامًا مما كان موضوع محادثتنا الأخيرة؟ أو هل كان ذلك نوعًا من اختبار قصد به إلى قياس مدى شكوكي؟

ثم أضاف بمناسبة ذكرى تلك الجناية الخفية التي سببت يتمي:

_ وبهذه المناسبة، هل عدت فقابلت الأستاذ "ماسؤول"؟

فأجبت:

_ كلا، لم أقابله بعد المرة الأخيرة... فاستتبع يقول:

_ إنه ذكي. وكثيرًا ما تحدثت إليه منذ وقوع ذلك الحادث المرع بصفتي

صديقًا حميمًا للفقيد العزيز ولوالدتك... ولو كنت أعلم أنك تقابله لحملتك

تحيتي إليه... فأجبت:

— إنه ما يزال يذكرك...

وكنت كاذبًا، لأن الأستاذ "ماسُول" لم يكلمني عن زوج أُمي. لكني قد عاودني ذلك التهيج البارد الذي اضطرني في المحادثة السابقة لمضاعفة هجماتي بجنون تقريبًا.

ألا أستطيع إذن العثور على ذلك الركن الآم الذي أتلّمسه في هذه النفس المظلمة؟ لم تضعف عيناه في هذه المرة. وجملتي، مع ما كانت عليه من الإبهام، لم تستدرجه إلى استزادة الاستيضاح مني بل بالعكس وضع أصبعه على فمه، أنه وقد اعتاد إرهاف أذنه لأقل الحركات، سمع وقع خطوات تقترب، خطوات أُمي. فهل أنا واهم؟ وهل في هذه الحركة التي أرادني بها على السكوت توسل باحترام طمأنينة المرأة البريئة؟ هل عليّ أن أفسر النظرة التي صحبت هذه الحركة بأنه يقول لي: "لا توقظ شكوكًا في قلب أمك قد تعذبها كثيرًا" أو كان ذلك مجرد اهتمام رجل بالأ تعود فتسلط على زوجه ذكريات محزنة؟

دخلت والدي فألفتنا جالسين إلى المنضدة فأرسلت إلينا معًا تبسمة شملتنا فيها بعطفها. ولا غرو فلقد كان الأذ حلم في حياتها أن نكون معًا بجانبها. كانت تعزو إلى خلقي المتريب _ وهو ما تحدثت إليّ بصدهه في "كومبيني" _ المصاعب التي تعانيتها في تحقيق هذا الحلم. ثم

إنها ذهبت فعادت، دائمة التبسم، تحمل صينية من الفضة عليها كوبه ملأى من ماء "فيشي" فقدمتها إلى زوجها فشربها وردّها لها الكوبه مقبلاً يدها. ثم قالت لي:
- فلندعه يستريح فإن برأسه حرارة...

فلم أكد ألمس أطراف أصابعه حتى شعرت أنه حقاً محمومًا. فبهذا أفسر هذا العرض الذي هو غامض كالأعراض الأخرى والذي قد يدل على مرض جسماني كما يدل على اضطراب أدبي؟ قد أقسمت أن أعرف ولكن بأية وسيلة؟
إذا كنت قد دهشت لرغبة زوج أُمي أن يراني أثناء مرضه فقد أدهشني أكثر أن سمعت خادمي يبلغني بزيارته لي، ولمّا يمضِ سوى أسبوعين، وكنت أرتب أوراق والدي الأخرى التي أحضرتها من "كومبيني" بعد أن قضيت فيها ذينك الأسبوعين لأفكر ملياً فيما أتخذ حيال السيد "ترموند" متظاهراً بترتيب أعمالي. ولكن ذلك التفكير قد زاد في شكوكي.

فإن والدي، كطلبي، حررت إليّ ثلاث مرات عن حالة المريض فعرفت أنه في تحسن وأنه كان يخرج. ولما عدت بالأمس خترت لزيارتهما لحظة وثقت ألا أجد فيها أحداً عندهما لكنني وجدت أنه قد حضر لزيارتي ولم يسبق له ذلك إلا نادراً منذ أقمت في منزلي. فقال لي إن زوجه عهدت إليه بأمر يبلغني به...

كانت والدتي قد أقرضتني عديدين من مجلة وكانت في حاجة إليهما لتبعث بجميع الأعداد حيث تجلد. ولما أن كان "ترموند" أمام باي فقد سعد ليطلبهما مني... فتفرست فيه عندما كان يبلغني سبب زيارته، دون أن أفكر في ما إذا كانت هذه الحجة تستر أو لا تستر سببًا خفيًا، فألفيته أشد بليلة واضطرابًا، فأجبت:

— هذان العددان ليسا هنا وقد نجدهما في بهو التدخين... وكان هذا تغرييرًا لأنهما كانا بالحجرة على المنضدة، لكن توجد في بهو التدخين صورة أبي وقد تملكنتني فكرة استدراج السيد "ترموند" أمامها، لأرى مبلغ جلده حين يراها. فلما لم يلمحها بادئ الأمر، اتجهت إليها فصادفتها عيناه وكانتا تتبعان حركاتي، فاضطرب جفناهما وغشي محياه قلق غامض ثم حوّل ناظريه إلى صورة أخرى. فلم أترك له فرصة يستجمع فيها عواطفه بعد هذه الهزة. وبطريقتي الوحشية قلت له ملحًا:

— ألا ترى أن صورة أبي هذه تشبهني تمام الشبه؟ زعم أحد أصدقائي أنه لو كان لي شعره لكنت به كامل الشبه...

فنظر إليّ أولًا ثم إلى الصورة طويلًا، حتى ليظن أنه خبير يفحص عملاً فنيًا لا لشيء إلا ليقدر مدى المطابقة. فلو كان المحرض على قتل الشخص الذي كان يفحص بهذه الدقة صورته، لكان سلطانه على نفسه خارقًا حقًا، ولكن أما كان تأثير الاختبار عليه حاسمًا، إذ

كان اضطرابه اعترافاً؟ كم وددت أن أعدّ دقائق قلبه في تلك اللحظة! وأخيراً قال لي:

– نعم تشبهه... لكن ليس كل الشبه... أسفل الذقن والأنف والفم على الأخص. لكن ليس لك نظراته ولا حواجبه ولا جبينه ولا خداه... فأجبتة:
– أتظن هذا الشبه عظيمًا بحيث يفزع القاتل إذا صادفني فجأة هناك؟
وتقدمت محملاً في وجهه كأنما أمثل مشهدًا مفجعًا. ثم استتبت قائلاً: نعم،
أتكفيني هذه المشابهة في الملامح لأثير في نفسه شياً وأنا أسأله: "هل تعرف ابن من قتلته؟"

فأجابني دون أن يزداد اضطرابه:

– ها نحن نعود إلى مناقشة تلك الليلة. إن هذا لموقوف على مبلغ فعل الضمير في ذلك الشخص، إن كان له ضمير، وعلى مبلغ تحمل أعصابه.
ثم سكتنا وكان وجهه الشاحب الآلم الساكن يسخطني لفقدان كل ما أستطيع قراءته فيه. وفي هذه الدقائق _وكثيراً ما لعبنا معاً هذه الأدوار منذ تارت في شكوي_ شعرت أني أكثر قوة وثباتاً مني في وحدتي وخضوعي لهواجسي. كان ثباته يطير صوابي ولذلك لم أقف عند حد هذه المحاولة بل ابتدعت في الحال محاولة ثالثة تقلقه بمقدار ما أقلقته المحاولتان الأوليان إذا كان مجرمًا. لكني كنت كمن

يضرب عدوه قابضًا على سكين لا مقبض له فيدمي يده هو ويمزق أصابعه، بينما يبحث عن جرح عدوه بسن السكين. لكن كلا، لم أكن بالدقة هذا الرجل، فإني لم أكن أجهل ما أجره على نفسي من سوء بهذه المحن القاسية. وأما خصمي فكان يخفي بمقدرة تامة جرحه الذي لم أكن أراه داميًا. لا يهم، ما دام جنون معرفة الحقيقة أقوى من ألمي. فقلت له:

– ما أغربها مشابهاة! فإن حظنا أنا وأبي واحد... انظر... وفتحت الدرج الذي استودعته خطابات أبي لعمتي، فأخرجت منها الأخيرة في التاريخ وكنت وضعتها فوق الخطابات التالية لها وقدمتها إليه وكانت تواريخ إرسالها بختم البريد جلية وهي في شهري إبريل ومايو 1864.

فإذا كان السيد "ترموند" مجرمًا، وجب أن يناجي نفسه بأن هذه الخطابات تفسر الانقلاب المفاجئ في موقفي حياله وجرأتي في تورياتي قوة هجماني. وأن يدرك أنني وجدتها بين أوراق عمتي. نعم، كان من المتعذر ألا يناجي نفسه بقلق قاتل عما تحويه هذه الخطابات، حتى أثارته في شكوكًا كهذه. فلما أمسك المظاريف بين يديه قطب حاجبيه. فظننت أنني سحقت ذلك المظهر الخادع فانكشف وجهه الحقيقي الذي ترتسم عليه مشاعر النفس الحقيقية، لكنني كنت واهمًا، فإن ذلك لم يكن إلا مجرد تقلص في العينين وهو مألوف عند من

يدقق النظر، إذ أن جبينه تهلل فجأة وردَّ إليَّ الخطابات دون أن يسأل عما تحويه قائلًا:

– المشابهة في هذه المرة مذهشة حقًا.

ثم عاد إلى سبب زيارته فسألني عند عددي المجلة فاغتظت حتى كدت أبكي لأني شعرت من جديد أني طفل عصبي بمبارزتي رجلاً على هدوء مطلق. فأرجعت الخطابات مكانها ثم دفعت المكتبة الصغيرة ثم الكبيرة متظاهراً بالدهش وبأنني وجدت المجلتين على منضدتي بين صحف أخرى. عمل صياني، فهل خدع به على الأقل؟

أما هو فلما أخذهما ترك المكان الذي كان فيه دائم التأمل في صورة أبي أثناء بحثي في صالون التدخين. فلماذا راق له التأمل في صورة لم تكن إلا لتؤلمه حتى ولو كان بريئاً؟ ثم قال لي:

– أريد أن أستغل أشعة الشمس لأجول جولة في الغاب. أتصحبني؟

فهل كان مخلصاً في دعوتي إلى التنزه معه على عكس عادتنا؟ وأي دافع كان يطبع، أم مجرد تجاهل هجماتي أو إشفاق مريض يخشى الوحدة... على أني قبلت لأستتبع مراقبتي. وما كاد يمضي ربع ساعة حتى كنا في طريقنا نحو قوس النصر، في هذه العربة نفسها، التي كنت رأيته فيها مسحوقاً على أثر محادثتنا الأولى. لكن، في هذه المرة، قد يقال إنه رجل آخر، فإنه وهو غارق في معطفه مدخناً سيجارته، كان يرد التحية بيده على من قابله من نافذة العربة مندفعاً في التحدث إليَّ عن

كنا نقابلهم، سارداً أفاصيص ولطائف مختلفة كنت بين عالم ببعضها وجاهل بالبعض الآخر. وكان كمن يتحدث أمامي لا إليّ، غير مهتم بتكرار ما لم أكن أدركه ولا بتفهمي ما لم أكن أعلمه. فاستنتجت _لأن في بعض حالات العقل يصبح كل معنى دلالة_ أنه كان يتكلم هكذا ليتفادى هجمة أخرى من جهتي ولكنني لم أُنك من القوة بحيث أعود إلى مجهوداتي المؤلمة والتي لا فائدة منها، لأدمي جرح قلبه. فكنت أسمع وألمح التباين الغريب بين أفكاره الخاصة وبين المبادئ القاسية التي كان يذيعها عادة، حتى ليقال إن تلك الجامعة المحترمة التي كان من عادته الدفاع عن مبادئها لم تكن أمام عينيه إلا مغارة. ولأن الساعة كانت ساعة خروج النساء إلى زهتهن وزياراتهن، أخذ يعدد لي فضائهن، إن صدقاً وإن كذباً، فيقول عن واحدة إنها خلية أخي زوجها، وعن الأخرى إنها خلية علية لرجل "ديلوماسي" مسن اغتنى هو نفسه من زواج دنس. وعن ثالثة إنها كانت متزوجة بأعزب بليد، ولتضع يدها على ثروته جمعاً قذفت بانه في مهاوي الدعارة التي قتلتته وهو في سن التاسعة عشرة... هكذا كان يقص عليّ هذه النماذج بفرح فطبع كأنها يلذه أن يرى الإنسانية مردولة فاحشة. فهل لي أن أستشف منه كراهية رجل عاش طويلاً في ميدان هذه المحادثات المألوفة في النادي وعند الرجوع من السباق والتي يظهر كل منهم خلالها ما فيه من حب الذات ويجاوز الحد عن رغبة في شرح سواد يقظته ليحسن البرهنة على مبلغ اختباره؟ أو سفاهة شريير يحمل وزر أفضح جريمة يسر بأن يقنع نفسه بأن غيره أقل منه قيمة؟ عندما سمعته

يضحك ويتكلم هكذا وقعت في كآبة غريبة وكن قد تجاوزنا آخر فنادق طريق الغاب وجسنا طريقاً إلى اليمين تندر فيها العربات. وكان سماء باريس أزرق باهتاً وجوها صحواً جميلاً. وكان السيد "ترموند" متمادياً في سخريته وضحكه، وكنت أنا أفكر في أنه قد يكون محقاً وأن هذا العالم ربما سقط في هاوية هذا الانقلاب الملعون... ولم لا؟ أما كنت أنا معه في نفس هذه العربة مرتاباً بأن المحرض على قتل أبي؟ لقد سحقتني حقدي على الحياة... فهل أدرك زوج أمي من سكوتي ومن محياي أن في جذله تعديلاً لي؟ على أنه انقطع فجأة عن الكلام وكنا قد بلغنا ركنًا قاحلاً من الغاب فنزلنا من العربة لنمشي قليلاً، فهل تعب من إجهاده نفسه؟ كم أذكر تلك الطريق المنعزلة بين الحشائش الضعيفة والأشجار العارية والجو البارد وتلك الطريق التي كانت على قيد خطوات منا وفيها سارت العربة ببطء خاوية يجرها جوادها الأحلس، هازراً رأسه، وحوذيها بوجهه الساكن، ثم السيد "ترموند" وكان يمشي بقامته العالية، غارقاً في معطفه، وياقته من الفرو الأذكن، تظهر بياض شعره الباكر، ينبش الحصى بعصاه كمن ملكه الملل! لقد عاد فثار في مخيلتي في هذه الساعة مرآه بدقة لا تقبل الجدل، فإني عندما رأيته يسير كئيباً حسيراً، شعرت لأول مرة بما كان فيه بؤس عتيد. فهل كان ذلك من تأثير محادثتنا بعد ظهر اليوم أو من الكآبة التي عرنتني من ضحكه وسخرته؟ أو كان لعبوسة الشتاء حولنا؟ حقاً فوجئت لأول مرة منذ عرفته بالإشفاق عليه يمازجه الحقد إذ كان يمشي ملتمساً الدفاء من شمس الشتاء الضعيفة، شديد

الانقباض، واضح التعب، في حال يرثى لها! كم من لحظات قضيناها هكذا! لكنه اتجه إليّ قائلاً، وقد شوّه الأسي محياه:

– أشعر أن حالتي سيئة، فلنعد... ولما أن ركبنا العربة استتبع متكلماً عن

صحته قائلاً:

– لم تعد لي في الحياة إلا أيام معدودة، أصبت... أتألم شديد الألم، ولولا والدتك لما عشت هذه السنين... ثم أخذ يتغنى بفضائلها مدفوعاً بهيامه بها، بينما كنا مسرعين بالعودة وقد بدأ الشفق يكسو السماء بلونه الأرجواني. نعم كان جميل غرامه بوالدي أكثر مني حنوًّا عليها إذ أطال في التزم بقدرتها على فهم لغة الوجدان_ وكثيراً ما أنست فيها فقدان هذه الشاعرية_ وفي دقة ذكائها، مع كونها قلما أدركت ما يبدو على محياي من سريري. ثم أضاف وهو الحائل بيني وبينها:

– أحبها الحب كله فإنك ستصبح ولا شريك لك في حبها...

فإذا كان هو من جرّوت على الظن بأنه مجرم فهو لا بد عالم أنه في احتمائه بذكرى والديّ إنما يضع أمامي العقبة الوحيدة التي قد لا أستطيع تخطيها والتي كنت أدرك بجلاء ومرارة أنها قد تكون أشد قوة من أفضح أنواع اليقين! فما فائدة إغراقِي إذن في البحث؟ ولكن لماذا أيضاً أتنازل عن المضي في التحقيق الذي أجره عبثاً؟ إلا أن الفرصة قد فاتت ولا سبيل إلى القهقري.

(13)

"أكنت جبناً" إني كلما فكرت فيما استطعت إنفاذه بهذه اليد التي تحمل هذا القلم، أسمع في حنايا قلبي صوتاً يصيح بي "كلا"! وإلا فكيف أفسر إذاً هجماتي عليه في المرة الأولى التي حاولت فيها تعذيبه في مكتبه بحديثي عن الجنيات وخطر الاشتراك في الجريمة. وفي المرة الثانية، وكنت جالساً إلى سريره، إذ قلت له، متفرباً في وجهه: "كلا، فالأستاذ ماسول لم ينسك..."، وفي المرة الثالثة في منزلي، إذ وضعت في يده الخطابات المتهممة؟ وكيف أفسر انقضاء أيام طويلة دون عمل بعد هذه الوقائع الثلاث؟ لقد أثبت نفسي أشد تأنيب لإضاعتي شهوراً دون أن أعلم ما به ألمس الحقيقة مع أن الدليل الذي انتزعت وأراه، جماداً كان أو إنساناً، قدمته لي الصدفة لا سواها، فلا فضل لي في إخراجه من حالك الظلمات التي كان ثاوياً فيها. لكن أكان ذلك خطئي؟ منذ اللحظة التي فيها آنس زوج أمني في نفسه من القوة ما يقيه الاندحار عند أول هجمة فاجأته بها مفاجأة، ماذا عليّ سوى اليقظة لاصطياد الأدلة وسبر غور قلبه؟ لذلك عدت إلى الفكرة الأساسية وهي بما أن الأدلة العملية تنقصني فعلياً تلمس البراهين العقلية الموصلة لاحتمال وقوع الجريمة الغريبة التي أتهم

بها هذا الرجل. وهو ما يدعوني إلى الإقامة بمنزل والدتي، بعكس عاداتي السابقة. لكن قد يكون في ذلك تعذيب لي وللسيد "ترموند"، إذ كيف يتحملني وهو يشعر أنه موضع الشكوك؟ وأنا، كيف أتحمّل وجوده مع ارتياحي في أمره؟ إذن... كنت حقًا كمن لدغته الأفعى في قلبه، كلما رأيتَه بجانب والدتي، مطمئنًا محبًا لها محبوبًا منها، محترمًا من الجميع، فأناجي نفسي: "أأكون هذا قاتلاً دنيئًا؟" فأتخيله على ما يجب أن يكون، شاحبًا، مقصوص الشعر، مغلول اليدين، متسلقًا المشنقة في برودة الفجر، مشيعًا بلعنات الجمهور، في ضيق التكفير عن جريمته وأمامه سكين المقصلة ماثلة سوداء في شحوبة السماء... لكنني بدلًا من ذلك، أراه موضع مواساة والدتي وحنانها ومداعتها ومناطق اهتمامها! هكذا كان هناؤها يؤذيني ولكن شغفي باكتشاف الحقيقة كان أقوى، إذ كانت شكوكي تثور ثورانًا حتى تبلغ بي درجة الهديان فتوطد في نفسي رغبة عتيده في الحيلولة دونه والخروج وذلك ليتجرع كأس العذاب برؤيته إياي. لكنه كان يتحمل بسهولة ومسايرة مدهشتين. فهل كان هو الآخر تحت تأثير شغف من نوع شغفي؟ أما الآن وقد انقشعت غيوم الإخفاء وعرفت قسطه في تلك المؤامرة المريعة، فأنا إذن الذي كنت أخضعه لتأثير شغفي المعدّب، لأن شبح الجريمة كان يعذبه، يساعده في ذلك وجودي، كما كان هذا الشبح عاملًا حيًّا في تخيلاتي المشؤومة الدائمة. فلم يكن هذا الرجل ليفكر إلا فيّ كما أنني لم أكن لأفكر إلا فيه. وهكذا

كان ما بيننا من الحقد يدفع كلانا نحو الآخر كما الحب بعاشقين، فإذا ما افترقنا، ثارت عواصف التخيلات الجنونية بأقسى شدة، أو على الأقل، كان ذلك بالنسبة إليّ، فكان وجوده وإن ألمني، يهدئ تلك العواصف القلبية التي كانت، وأنا عنه بعيد، تطير بي بين طرفي المستطاع إذ ما أكاد أعود إلى عزلتي حتى تتضارب المشاريع الحمقى في مخيلتي فأراني منقّصاً على عنقه صائحاً: "إنك لقاتل!" مكرهاً إياه بهذه الصرامة على الاعتراف كما كنت أرى نفسي مقدماً هذه الأدلة إلى الأستاذ "ماسؤل" الذي يقتنع بها فيعود إلى استتباع التحقيق من جديد، كما أراه يجوس خلال شارع "لا تور موبور"، كذلك كنت أرى نفسي مرشياً اثنين أو ثلاثة من اللثام فيحملوا زوج أمي قهراً فيدخلوه منزلاً منعزلاً في الضواحي ليبقى فيه حتى يعترف بجريته. هكذا كانت مخيلتي تقذف بي في هذا الهديان الذي جرتني إليه شغفي، وقد زاده حدة شعوري بعجزتي. أما هو فعندما لا أكون معه. لا بد أنه كان يجتاز ساعات كهذه يتخيل فيها ألف وسيلة ثم يرجع عنها مناجياً نفسه: "ماذا يعرف؟" ثم يجيبها: "إنه يعلم كل شيء... كلا، لا يعلم شيئاً..." ثم يجيبها: "إنه يعلم كل شيء... كلا، لا يعلم شيئاً..." "علام عوّل؟" يستنتج أنني سأفعل كل شيء، بل إني لن أفعل شيئاً. أما عندما نكون معاً، كانت الحقيقة تترأى أمامنا فتدهور كثيراً من هذه التخيلات. إذ كنا نجلس، يدرس كل منا الآخر، كوحشين ينقضان على بعضهما. ولكن كلامنا كان يدرك مركز الآخر غير قادرين على

الجهر، لا هو بتريبه، ولا أنا بشكوكي، لكننا نتحقق أنا لم نتقدم فتيلاً منذ محادثتنا الأولى. أما من جهتي فهذا الوضوح وإن أياسني إلا أنه هدأني نوعاً ما إذ خفف عني عبء وخزات ضميري لتقصيري في واجبي. لكن ماذا كنت أستطيع؟

ما أمرٌ ذكريات تلك الفترة التي أضعتها عبثاً! فإني، حتى شهر مايو من عام 1879، كنت عاكفاً على رؤية زوج أمي كل يوم تقريباً، فأكون أمامه ممزق القلب، وفي غيابه فريسة لأسوأ عواصف مخيلتي. وبذلك كان عملي محصوراً في دراسة خلقه وتحليل عقليته بحماس يضعف مرةً ويشتد أخرى، بحسب ما كنت أتصيده أو لا أتصيده من تفصيلات صائبة. فكنت أتعلق بأقل الأشياء لأنها أقل تضليلاً وأكثر احتمالاً للوصول إلى ما تخفيه فطرة هذا الرجل... كنا نسير متنزهين في الغاب صباحاً ممتطياً كل منا جواده، عدة مرات في الأسبوع، على خلاف عاداتنا الماضية. كان يحضر عندي أو كنا نتقابل على غير ميعاد منجذبين نحو بعضنا بغريزتنا المشتركة العاتية. وبينما كنا نسير متحدثين في أمور مختلفة، كنت أراه يسوس جواده بقسوة تارة، مع ما في ذلك من مخاطرة، وبدرية عظيمة، تارة أخرى. كانت له فطرة الوحوش العتيدة، إذ كان يسيء لدرجة الطغيان معاملة جواده، الأمر الذي يندر عند فارس درب. فكنت أناجي نفسي: لا بد أن مثله في ظلمه للخيل كمثلته في حياته، يخضع من حوله إلى إرادته. ولأنه من الحقد بحيث لا يعفو، كان محبوباً قليلاً ولكن مخوفاً مهيباً. كما كان

يخفي وراء ظاهرة الأدب واللياقة قوة خارقة بدت خلال الحرب فقد دافع عن باريس دفاعاً مجيداً. وأما صرامته مع جواده فقد أتاح لي الحكم بأن الظلم من غريزته وأنه لا يعبأ بشيء في سبيل إرضاء شهواته. فلإني كنت ألمح من حديث شجاعته التي بذلها في عام 1870، عقداً أمضاه مع نفسه بأن يتغلب على ضميره حتى لا يبدو أمام نفسه إلا بما كان عليه، لا بما هو عليه الآن، إذا كان حقاً قد اقترف الجريمة. وقد كنت أسائل نفسي أحياناً: هل كانت هذه الشجاعة مجرد حدث من أحداث غريزة الوحشية التي تحققت فيها، أم أحبولة يريد بها تضييد حالة اليأس التي كان فيها وهو في جمال هنائه؟ ولكن، من أين تولاه هذا اليأس؟ أمنشؤه الوحيد صحته المتهدمة؟ كنت أتفرس في تكوينه الجسماني، بينما كنا نركض بجوادينا، باحثاً عن مشابهة بينه وبين الأدلة الغامضة التي درستها في أسفار مظاهر المجرمين الخارجية فأرى أن نصفه الأعلى جد كبير بالنسبة لساقيه وذراعيه عظيمي النمو وفكه الأسفل قوياً وإبهامه طويلاً نوعاً ما. وقد سبب اهتمامي بطول إبهامه اعتياده إقفال يده عليه كمن يخفيه. على أنني أدركت أنني لن أستطيع استنتاج شيء حاسم من ملاحظات كهذه فتركتها لتفاهتها. ولكنني ما لبثت أن عدت إليها لأهمها بملاحظات أخرى قد تجعل لها قيمة فقد أدى بي هذا البحث إلى النيش في وراثته السيد "ترموند" فاهتديت إلى أن جده من جهة الأم قد انتحر بغدارة وأن أخاه قد انتحر غرقاً بعد أن أضاع ثروته وطرد من الجيش وضل في مهامه مخزية

وأنه قد أملت بهذه العائلة كوارث مفاجئة، كم من مرة عندما كنا نسير راجلين صامتين كنت أقلب هذه الأفكار الجنونية في مخيلتي بل وأشد منها جنونًا! وعند عودتنا كنت أفطر أحيانًا عند والدتي وأحيانًا أعود إليها بعد أن أتناول شيئًا يسيرًا وحيدًا بمنزلي. وكان من النادر أن نكون، أنا والسيد "ترموند"، وحيدين بمنزله. وما الفائدة الآن، ما دام المجرم الذي أتعسف في تأثره قد شعر ولم يعد لي حظ انتزاع سره بمفاجأة؟ لذلك كنت أفضل أن أدرسه أثناء يتحدث أمامي إلى الغير فأزداد يقينًا بمبلغ سلطانه على نفسه. كنت في طفولتي وفجر شبوبيتي، أمقت هذه المقدرة على الإخفاء مقتًا إذ كنت أشعر بتفوقه عليّ، بينما أنا فريسة لوساوسي غير قادر على شيء من الهدوء الذي يغطي التأثيرات الهائلة. أما الآن فإني كنت أشعر بنوع من الفرح إذ ألاحظ قدرته على الملق. فقد كانت عادة الإخفاء فيه أشبه بغريزة فلا يعرف أحد من أمره شيئًا حتى ولا زوجه، كما كان يحسب حسابًا لأبعد النتائج التي تحدثها كل جملة ينطق بها. ولدقة مراقبته نفسه لا يستطيع أحد أن يدرك أنه ذلك المخلوق الغامض. لقد استجمعت مختلف أمور هذا الخلق مقارنًا بين هذا الإخفاء وتلك الحماسة التي كنت أنستها فيه فبدأ لي مخلوقًا جد خطر، فهو يكثر من الاستفهام أو يتكلم عن روية وإبهام، إلا في حالات نادرة كالحالة التي كان عليها يوم تنزهنا معًا، إذ ظننته يتناسى نفسه، فقد كان يضحك ضحكًا عصبياً مسرفًا من الحديث مدليًا بنظريات سفيهة تقريبًا، ذاكرًا أمورًا أزعجتني،

أنا نفسي، فضلاً عما تبينته من وقوفه المدهش على أدق أمور الطب الشرعي. فإنه بمناسبة قضية هامة كانت قيد التحقيق، خلال مناقشة حادة تدخل فيها كثيرون، فرط منه تاريخ يوم القبض على الطبيب الشهير "لابوميري" فحققت الرقم فوجدته صحيحاً! يا له من شاغل غريب بشؤون الجرائم التي يتفق كثيراً مع المعلومات التي عرفتھا من الأستاذ "ماسول"! أو ليست هذه هي الفكرة الوحيدة الملازمة التي يقول ذلك القاضي الخبير إنه لاحظ في كثير من القتلَة إنها هي التي تجذبهم إلى الأماكن التي اقتصروا فيها جرائمهم وإلى تتبع جثث ضحاياهم ليروها في الأماكن التي تعرض فيها على الجمهور، وهي أيضاً التي تدفعهم إلى الشغف بمعرفة من هم موضع ريبتهم وإلى قراءة الصحف التي تحوي حديث جرمتهم قراءة دقيقة، وإلى تتبع قضايا الجرائم الشبيهة بجرائمهم! وكان زوج أمي يقع ساعات في صمت رهيب مدمناً على التدخين نهائياً والمورفين ليلاً بالرغم من نواهي الطبيب، فما هي تلك الآلام التي كان يحاول التغلب عليها بإفراطه في هذه المواد الملهية المخدرة؟ أكان ذلك لشدة وطأة مرضه أم بسبب تلك التخيلات التي كانت تساورني عند استلامي لنظرياتي المفجعة؟ وكذلك كانت تمر به لحظات مسحوقاً من شدة الألم حتى لا يأبه بوجودي. وقد فاجأته وحيداً في هذه الحالة مرتين أو ثلاثاً وقت الغروب فكنت أتفرس فيه وأنا على وشك أن صيح به: "اعترف، اعترف، وكفى إخفاءً!" وقد لا يدهشني إذ ذاك لو سلم نفسه،

فيترك سره يفلت، فيجيبني: "إن ما يساورك لحق"! لكنني أعود فأشعر بضعف أدلتي فأناجي نفسي: "وإذا لم يكن آثمًا! فأوثر الصمت فريسة لحمى الشك الذي كان، منذ أسابيع، يسحقني. أما هو فقد خرج من صمته فحدثني عن والدتي مثيرًا من جديد صورتها بيننا. فلماذا؟ هل كان يذكرها حزينًا لأنه يظن، لشدة مرضه، أنه سيحرمها إلى الأبد؟ أو كان يحتمي بذكرها لوثوقه من عدم احتمالي تعريضها لآلام الحقيقة؟ إني أرجح هذا لأنه لم يكن يحتمل الإهانة التي أوجهها إليه بنظراتي وتورياتي وما تنطوي عليه هذه وتلك من وعيد، مع شجاعته وقسوته الفطرتين، لو لم يكن يريد، مهما كلفه ذلك، أن يحول دون والدتي وحادث يقع بيني وبينه، مع إيقانه بعجزني عند تقديم الحجة الدامغة فضلًا عن ضنه بنفسه أن يتهم أمامها وهو بها هائم، لذلك آثر احتمال الأم. ومهما يكن مبلغ ترمي لشعوري بحبه لها فإنه كان عليّ قبول هذا الدليل وعلى الأخص في نظرية الجريمة. على أي مع إدراكي بأن علينا كلينا - بالرغم مما بيننا من حقد - أن نتضامن في عدم تعكير هناء هذه الخلوقة وهي موضع إعزازنا، إلا أن التباين بيننا كان عظيمًا، لأنه وإن شعر بالغيرة لتعلقني بأمي فيني كنت أفزع كلما تذكرت أنها كانت تحبه مع ما يحتمل من تلويث ضميره بدم أبي!

كان يحبها! ومن أجلها أرشى آخر على سفك دم أبي. فهي إذن التي يجب أن تكون سبب فقدانه، تلك التي كانت فرحة تنظر إلينا نظرة الحنو ليلة كنت جالسًا إلى سريرته وهو مريض، فإن ما يبذل من

جهد شاق استبقاءً لطمأنينتها وما يتخذ من مختلف الاحتياطات لستر ما يخشى احتمال ظهوره من العوارض، كل ذلك مؤدّب به إلى الفناء، لا فرق فيه بين أحاديثه الحكيمة إليها وذلك العطف الكاذب الذي كان يظهره لها. ولولا تظاهرها، أنا وهو، بالحب لبعضنا لما أفضت إليّ، هي، بحديثها ولما عرفت ما عرفت وهو ما وضع حدًّا فجأةً لتلك الحرب الصامتة التي كنت متسلحًا فيها بضعفي...

إن ما أدركه، كلما رأيت حياتي بمأمن مما وقع من الحوادث، هو أن هناك منطقيًا سديدًا للظروف يشرح جميع نتائج أعمالنا حتى أن نجاح مقاصدنا الإجرامية يحمل في طياته ما به يسحقنا يومًا ما. فإني كلما فكرت في تحليل ذلك بشيء من التوسع تذكرت كيف أن أقوى دليل لم أكن أستطيع التقهقر بعده، وكلما فكرت في ذلك أصابتنى حمى مفرعة فأشعر كأن أشد رياح القدر تلمح جبينى. نعم، إن ذلك ليفزعني لأني، أنا الآخر ملطخ اليد بدم الجريمة! لكنه، في الوقت نفسه، يطمئنني لأني لم أكن فيما فعلت إلا كعامل يؤدي عملاً لا مفر منه، أو كأسير يدرك المسؤولية ولكنه في أسر مولى لا يقاوم...

ما أتعسك أينها الأم لوعرفت! فإنك كنت أيضًا أداة القضاء القاتلة، ولكن أداة عمياء كسكين تقبل غير مدركة أنها تقتل! أما أنا فقد رأيت، فعرفت، ففعلت... لقد احتفظت بقوة الميثاق الذي قطعته على نفسي، أن أعترف تفصيلًا بتاريخى، على حقيقته دون أن أحكم على

نفسى... وهأنذا يعروني التردد حين تقترب ذكرى الفاجعة الأولى والأخيرة في حياتى... يالجبانتى! يالجبانتى! فالوهم يعود فيتولانى فيصيبنى ذلك الدهول الذى ينتابنى كلما ذكرت أنى أتيت ما أتيت وأنه أصبح ثابتاً فى تاريخى... لكنى عاهدت نفسى ولا مفرّاً من الوفاء... حقاً، لقد اقترفت الإثم بيدي هذه التى تحمل الآن هذا القلم. نعم، إن يدي الملوثة بالدم، بوصمة لا تمحى، هنا، على هذه الأصابع التى تتقلص ولكن عليها أن تطيعنى فتسطر التاريخ حتى النهاية.

(14)

انقضت ستة أشهر على وفاة عمتي، على ذلك اليوم الذي دخلت فيه مكنتي وحنون الشكوك يحيط بي من قراءتي خطابات أبي، لأقوم بدور الطبيب الذي يفحص العلة ويبحث بإصبعه موضع القرحة. فإذا لم أكن، حتى اللحظة التي رأيت فيها زوج أمي مسحوقاً في عربته، قد حصلت على دليل حاسم فهل كنت لأتنكب الجهاد في جو أسود كدت أختنق فيه؟ لم أكن أتوقع حلاً للمعضلة التي وضعت أمامي وفيها تعذيبي، عندما جرت بيني وبين والدي محادثة هائلة ساحقة ما يزال قلبي يكاد يتقطع لذكرها... كنت أذكر تواريخ خالدة. فإذا كان يوم 25 مايو عام 1879 ينمحي من ذاكرتها فإن "أندريه كورنيليس" الذي يكتب هذه السطور بشديد الاضطراب، سيفنى هو نفسه من أعماق قلبها... فإن زوج أمي وكان على وشك السفر إلى "فيشي" قد أصابته نوبة من مرض الكبد الجديدة هي الأولى بعد نوبة شهر يناير التي أصابته غداة محادثتنا الهائلة وكنت موقناً ألا دخل لي في هذه النوبة الجديدة حتى ولا بصفة غير مباشرة لأن النضال الذي كنا متورطين فيه صامتين، دون شهود، لم يظهره أقل عرض جديد. ولذلك كنت أعزو هذا الارتباك لاستفحال مرضه المزمن.

وإني لأذكر ما كان يخامرني في ذلك اليوم، يوم 25 مايو، في الساعة الخامسة مساءً بينما كنت صاعداً سلم منزله. كنت أتمنى أن تكون صحته متحسنة، أولاً لأنني كنت أرى والدي، منذ أسبوع، ككئيب وثانياً لأن سفره إلى "فيشي" كان يفصلنا فأتخلص من اضطراباتي وآلامي التي حرمتني لذة الكرى فلم أكن أنام إلا بمخدر فإذا نمت فنوماً مشوباً بهواجس بشعة في صحبة دائمة مع أبي، عالماً أنه ميت. كما كان ينتابني كابوس كنت أخشى، في الليل، ترده المتواتر، كنت أرى نفسي في شارع أهل بالناس، واقفاً، ذاهلاً، فأسمع خطوات رجل يقترب مني، هو "ترموند" فلا أميزه مع وثوقي أنه هو، فأريد الانصراف فأجد رجلي من رصاص فأريد التحول فأشعر بعنقي متصلباً... فيقترب مني فيصبح عدوي ورائي فأسمع تنفسه فأتحيل أنه سيضربني فيلمس بذراعه كتفي فأخال يده مسلحة "بمسلة" طويلة تبحث عن قلبي فتدخلها فيه ببطء ثم أفيق من ذهولي فريسة أسى لا يوصف. وطالما تولاني هذا الكابوس، منذ أسابيع، حتى كنت أنتظر بنافد الصبر يوم سفر زوج أمي، وقد أُجل ريثما يتملك صحته، لوثوقي أن هذا السفر يهدني ولو فترة أتنفس فيها دون أوبخ نفسي على ضعفي. فإني لم أكن أنس في نفسي القوة على النزوح إذ كنت دائم الانجذاب إلى رؤيته، كنت أمقتها، بينما أسعى إليها بشغف قاهر.

هذه هي الأفكار التي كانت تخالجني وأنا مرتق السلم الموصل لحجرة والدي. فلما أجابني الخادم رداً على سؤالي، بأن حالة زوج

أمي متحسنة دخلت متشجعاً تلك الحجرة التي هي موطن أشد ذكرياتي حزناً. كم كنت أبعد من أن أتنبأ أن هذه الزيارة سيكون لها أخطر شأن في حياتي! ألفت والدتي جالسة إلى مكتب صغير مسندة جبينها إلى يدها اليسرى وبيمينها قلمها الذهبي المرصع بلؤلؤة وكانت مستغرقة الفكر ذاهلة حتى أنها لم تشعر بدخولي، فما هي، يا ترى، تلك الشواغل التي لا بد أنها كانت من شدة الوطأة بحيث أذهلتها؟ لم هذه الكآبة البالغة وقد فطرت على البشاشة والعدوذية؟ ماذا بها؟ وإذا كانت صحة زوجها متحسنة فلماذا تولاها الغم؟ أهي شاعرة بالرواية الفاجعة التي مُثِّل بقربها، بمنزلها، منذ شهر؟ أو اضطر السيد "ترموند" للشكوى لديها من كثرة تردددي الذي يعذبه؟ لكن، ليس هذا. لأنه إذا كان قد أدرك ما بنفسه، منذ أول يوم، كما كنت أظن غير واثق، فلا يستطيع أن يقول لها: "يشك أندريه أي قاتل أبيه..."، أو يكون الطبيب قد أنبأها أن وراء ظاهرة التحسن في زوجها خطر الموت؟ وعند هذه الخاطرة شعرت بفرح تلاه في الحال ألم، فرحت أنه قد يبيد من عالم الحياة. وأملت لأنه، وهو مجرم، يموت قبل أن أثار لأبي. لأني بتردددي وشكوكي، سمحت لشغف الانتقام الوحشي بالتعاطم في نفسي حتى لم يعد رضيني إلا أن أكون، أنا نفسي، سبب موت هذا الكائن الممقوت.

إذن كنت ظمآن لهذا الانتقام ظمأ كلب ركض يوم صيف كاملاً تحت الشمس المحرقة! كنت شغوفاً بالتمرغ في ذلك الانتقام كما يتمرغ ذلك الكلب في الماء حتى ولو لم يصادف غير مستنقع...

مكثت طويلاً أتفرس في محيا والدتي وإذا بها تنهدت فجأة تنهداً عميقاً صارخة: "يا لله، ما أشده بؤساً..." ثم رفعت وجهها وقد غمرته الدموع فرأنتني فصرخت صرخة دهش ضعيفة فاقتربت منها فسألتها:

أمتألمة يا والدتي؟ ماذا بك؟

لكن خوفي من إجابتها جعل صوتي مضطرباً فجنوت أمامها كما كنت أفعل في طفولتي ثم أمسكت يديها فغمرتها بقبلائي. ولكن يا لشدة أسفي! فقد صادف في هذه اللحظة أيضاً ذلك الخاتم، دليل زواجها، وكنت أمقته كأما هو إنسان. على أن هذا الشعور المرير لم يمنعني أن أقول لها بطفولة:

— إذا كان بك آلام، فلمن تفضين بها إن لم يكن إليّ؟ أئني لك أن تجدي من هو أكثر مني حباً إليك؟ كوني صديقتي. ألا تشعرين أنك مدينة بذلك لفلذة كبدي؟ فخفضت رأسها مرتين وأشارت بما يفيد عجزها عن الكلام ثم انفجرت منتحبة. فسألتها:

— هل من دخل فيما يحزنك؟ فهزت رأسها سلباً ثم سكتت من جديد. ثم، بعد جهد، قالت لي مداعبة شعري بصوت متأثر:

— إنك لرفيق يا ولدي "أندريه"...

ما أذها كلمات نعمت بسماعها، بعد أن حرمتها، وطالما تمنيتها، كلمات مصدرها القلب، كانت بلسماً لجروحي وبرهاناً على

أنها ما زالت تحبني... ثم عدت فألحفت في سؤالها مستعملاً، لأحوز رضاها،
كلمات عانيت مرارتها:

– هل حال مريضك العزيز تزداد سوءاً؟

فأجابتنى مشيرة بأصبعها إلى غرفة زوجها:

– لا، بل هو في تحسن وها هو نائم الآن. فقلت لها:

– أمي العزيزة، أرحيني، ثقي بي، فلأشاطرك بكاءك ولأساعدك في بلواك...

يشق عليّ ألا أعلم أنك ألمه إلا مفاجأة!

هكذا واصلت الضغط بأسئلتني. ولكن ماذا كنت أرجو أن أنتزع من هذا
الفم الذي كان يضطرب ولا ينطق؟ لكنني كنت شغوفاً بأن أعلم مهما كان
التمن لأني لم أكن أستطيع احتمال غوامض جديدة وعلى الأخص مع ثقتي بأن
لزوج أمي دخلاً في حزنها وأنا أنا وهو قد نكون سبب بلبلة قلب هذه
السيدة. ومما أني لست سبب كآبتها كما قالت فأليه هو إذن قد يرجع السبب
الذي لم يكن صحته. فهل فاجأت هي الأخرى شيئاً من الأدلة؟ وهل خامرها
الشك المريع؟ وما كدت أفترض هذا حتى عرتني الحمى فازددت إلحافاً عليها
فأنست من ميلها برأسها نحوي واضطراب يدها على شعري وسرعة أنفاسها
أنها قبلت، فقد أجابتنى:

– أأثق أن هذا السر سيبقى دفيناً في قلوبنا حتى الممات؟

فأبدت حركة عتاب فخرجت وقبلتني في جبيني طويلاً كأنها أرادت أن تمحو ما عراه من غيوم تريبها الظالم، وقالت:

– عفوًا فقد أخطأت... ولمن أفضي بنجواي إن لم يكن إليك؟ وممن سواك أستمد النصيحة؟ آه! لو كان يتقدم إليه؟
فسألتها:

– من؟ من تعنين؟ فقالت لي بعظمة تقريبًا:
– أي "أندريه"... أتقسم لي أنك لن تبيع ولا تلميحًا بما سأسرك به؟ فقلت لها بعد أن كررت حركة العتاب:

– إني أقسم لك بالشرف. فقالت:
– وأنت لن تذكر قط شيئًا من هذا إلى...
ولم تنطق بالاسم ولكنها أشارت إلى حجرة زوجها. فأجبتها: "أبدًا، أبدًا!"
فقالت:

– أتعلم شيئًا عن أخيه "إدوارد ترموند"؟ وكان صوتها منخفضًا كأنها تخشى كلماتها فأدركت من تحول عينها نحو باب حجرة زوجها المغلق أن الموضوع يتعلق بشقيقه. وكنت أعرف تاريخه معرفة مبهمّة إذ سبق أن فكرت فيه عندما كنت أدرس عقلية عائلة زوج أمي، كنت أعلم أن "إدوارد ترموند" بدد في بضع سنين حصته في الميراث وهي هائلة تقدر بمليون ومئتي ألف فرنك. وأنه قيد نفسه

في العسكرية فاستمر على حياة الفحش وأنه قد حرم المساعدة المالية من آله وعلى أثر خسارة في اللعب اقتترف جرمي السرقة والتزوير ثم لما أن رأى نفسه على أبواب الفضيحة هرب من الجندية ثم عاقب نفسه إذ انتحر غرقًا في نهر "السين" بعد أن استغفر أخاه بكتاب تثبت كلماته أن هذا الشرير كانت ما تزال فيه بقية من الأدب، فسدد زوج أمي المال المختلس وأسدل الستار على هذه الفضيحة. نعم، كنت قد عرفت هذا التاريخ من خادمي العجوز في طفولتي ووجدت أثره في مراسلات أبي. لذلك لما أن وجهت إليّ والدتي سؤالها وهي متأثرة توقعت أنها ستكلمني عن الآلام العائلية التي يعانها زوجها وهي لا تهمني. فسألتها يائسًا:

— إدوارد ترموند؟ الذي انتحر؟ فأجبت بصوت أكثر انخفاصًا:

— لم ينتحر، بل ما يزال حيًّا! فكررت بغير قصد قولها: "بل ما يزال حيًّا! كررت هذه الكلمات دون أن أدرك أية علاقة بين وجود هذا الأخ والدموع التي انهمرت من عينيها، فاستتبت بصوت أكثر ثباتً وكأما قد سري عنها:

— ها أنت قد علمت بسر ألمي، فإن هذا الأخ اللعين هو جلد "جاك". هو الذي يقتله يومًا فيومًا بما ينفذ فيه من رعب مريع... أما ذلك الانتحار فليس حقيقة، فأمثال هذا الشقي لم يؤتوا من الشجاعة ما يسمح لهم بالإقدام على الانتحار... وأما ذلك الخطاب فقد أملاه عليه "جاك"، إذ

ذاك لينجيه من الليمان بعد أن مهد له سبل الهرب وزوده بما يصلح به حياته لو أراد... مسكين هذا الصديق الذي كان يتمنى على الأخص أن يحفظ اسمه نقيًا من هذه الوصمة الشنيعة! فقد وجب أن يترك "إدوارد" اسم ترموند ليأمن عيون الأرصاء ولذلك نزع إلى أمريكا... لكنه سلك هناك نفس سلوكه هنا إذ بدد هذا الشقي في الحال المال الذي حمله والتجأ لأخيه من جديد لعلمه أن "جاك" لن يدخر تضحية في سبيل شرف اسمه، فرفض زوجي موافاته بالمال الذي طلبه فاستعان بسلاح التهديد، نعم، هدد "إدوارد" أخاه بأنه واقع بين أمرين: إما العودة إلى "باريس" ودخول الليمان، وإما الموت جوعًا في أمريكا... وأنه ليؤثر الليمان. فاستسلم "جاك" لمساعدته أول مرة... لأنه كان يحبه بالرغم من كل شيء، فهو شقيقه الوحيد. وأولئك الأشخاص كما تعلم، يضيعون من يضعف أمامهم... على أنه، في تهديده بالعودة، قد أفلح إذ ابتز من أخيه، اغتصابًا، مبالغ لا تتصور... وقد مضت سنون طويلة على هذا الابتزاز الممقوت. لكني لم أكن أعلم بهذا إلا بعد الحرب، إذ كنت أرى زوجي شديد الكآبة فأشعر أن المأ يأكله وأخيرًا باح لي بكل شيء وبأن ما هو فيه من آلام منشؤه خوفه عليّ أنا... فسألته: "وماذا تخشى منه عليّ؟ فأجابني: "ما أشنعه! إنه ليبذل كل ما في وسعه لينتقم"، ثم إن زوجي وكان يراني شديدة الوجع لقلقه، خضع لتوسلاتي المستمرة إليه بالمقاومة فأبى على أخيه كل مساعدة جديدة ومكثنا زمنًا لا نسمع شيئًا عن هذا الشقي... لكنه نفذ وعيده وها هو الآن في "باريس"...

كنت أصغي إلى والدتي باهتمام يتزايد. وأني لم أكن أرى في السيد "ترموند" ما تراه هي فيه من دقة الإحساس، أدهشني ما لأخيه الملوث عليه من السلطان. وكم من عائلة منيت بمثل هذه الآفة، فهل يضطرب حبل الهناء في تلك العائلات وتبلغ بها الحال لبذل الثمين حتى الصحة في سبيل التخلص من تلك الآفات؟ كذلك أدهشني أن السيد "ترموند" وهو ذلك الطاغية يخنع لتهديد هذا الملوث ويخرج الفضيحة التي يحدثها عقابه عما تستحقه من التقدير. ولماذا لا ينال هذا الوغد جزاء ما جنى من تزوير واختلاس؟ فهل أستطيع أن أفسر هذا الضعف في السيد "ترموند" بأنه شبيه بالخوف من خيانة العهود التي تعطي للآل وهم على سرير موتهم بصيانة شرف اسم العائلة؟ لكن هناك فكرة ثارت في نفسي لم يكن من المعقول إنفاذها وعلى الأخص مع وساوسي وحالتي النفسي، فكرة قاسية أخذت تتعاطم حتى اشتد خطرها فتولاني من فعلها شديد الذعر حتى أن والدتي اضطرت حيال ما رأته في من اضطراب خارق إلى الوقوف عن الاسترسال في حديثها إذ سألتني: "أتعب أنت يا أندريه؟" فتملكت عواطفها وأجبتها: "لا يا والدتي. هذا تأثر بسيط لأنني رأيتك تبكين سيزول..." فصدقتني وقبلتني بحنو ثم استتبع حديثها قائلة: "وفي الأسبوع الماضي طلب زائر غريب مقابلة زوجي بحجة أنه موفد من قبل أصدقاء لنا بلندن فأدخل في هذا البهو نفسه أمامي. وما كاد "جاك" يلمحه حتى ظننت من اضطرابه الخارق أن هذا الزائر هو

شقيقه "إدوارد". ثم أن الشقيقين اختليا ببعضهما في المكتب وبقيت وحدي كالميتة من شدة القلق، أسمع عجيج أصواتهما دون أن أتبين حديثهما ثم خرجا بطريق البهو فألقى عليّ شقيقه حين مروره نظرة جمد منها الدم في عروقي. وما كاد يأتي مساء ذلك اليوم حتى كان زوجي طريح الفراش... أتفهم الآن مبلغ بأسّي؟ أه! ليس اسمنا هو الذي يهمني... فقد طالما حاولت عبثاً إقناع زوجي بأن تلويث الاسم لا يضرنا إنما صحته هي التي تهمننا، وقد قرر الأطباء أن كل تأثر شديد يتنابه يفعل فيه فعل كأس من السم... أه! إنه سيقتل زوجي...".

فسألتها وأنا في الحقيقة لا أدرك ما أقول: "أرأيته؟"

— ألم أقل لك أنه مرّ من أمامي. فسألتها:

— وهل أنت واثقة أنه أخوه؟ فأجابت:

— اعترف لي "جاك" بذلك في المساء ولم أكن في حاجة لاعترافه فقد عرفته من

عينيه... من الغريب أن هذين الشقيقين مختلفان عظيم الاختلاف، فإن "جاك"

رقيق محترم شريف النفس... أما ذلك الغليظ، الثقيل الوغد، فليس إلا شريراً

ممقوتاً! لكن عيونهما متشابهة...

— وما هو الاسم الذي اختاره لنفسه في باريس؟

— لا أدري ولا أجرؤ أن أسأل زوجي عن ذلك. فلو علم بما أفضيت

إليك، مع ما هو عليه من الأفكار... ولكنك ستعرفه يوماً ما يا ولدي...

ثم أضافت بثبات: كنت منذ مدة طويلة أريد الإفشاء إليك بهذا السر لكني لم أجروء... وهما أنك أصبحت رجلاً وليس لديك ما يخضعك للإغراق في عاطفة الأخوة. فانصحنى، أي "أندريه"، ماذا يجب أن أفعل؟ فأجبتها:

— لم أدرك ما ترمين إليه. فقالت:

— نعم، لا بد من وسيلة في إبلاغ العدالة لتزجه في أعماق السجون دون ذكر ذلك بالصحف. أما "جاك" فيرفض لأنه أخوه... لكن، ألا نستطيع ذلك نحن؟ سمعتك تقول إنك ما زلت تقابل الأستاذ ماسول الذي عرفناه في نكبتنا. فلو سعيت إليه مستحبة نصيحة؟ آه أريد أن يعيش زوجي لأني أحبه كثيراً!

لماذا فزعت لمجرد توقعي بأنها قد تقابل ذلك القاضي مع أي لم أستطع العودة إليه منذ وفاة عمتي خشية أن يتنبأ بشكوكي؟ وكيف أستطيع التوصل إليه بحق حب والدتي لزوجها؟ لكني أجبتها:

لا تفعلني ما ليس من حقك، فلن يعفو السيد "ترموند" وقد يكون محقاً... وقد يكون في ذلك إفشاء لسره. فأجابت:

— إفشاء لسره؟ إن فيه نجاته! فقلت لها:

— وإذا أصابته من القبض على أخيه نوبة أخرى؟ أو خطر مرضه؟ وهكذا ابتدعت الحجة الوحيدة التي قد تقنعها. ما أغرب سخرية

القدر منا! هدأتها وأقنعتها ألا تفعل، في حين أنني قد خامرتني فجأة فكرة فظيعة هائلة هي "أن القاتل، أداة الجريمة المطواع بين يدي زوج أمي، هو هذا السافل وأن "إدوارد ترموند" و"ورشداًل" ليسا إلا شخصاً واحداً" يا له من تخيل هائل مفرع!

(15)

ما أفضع ما عانيت من الاضطراب طول الليلة التي تلت هذه المحادثة لتلك الفكرة التي ثارت في نفسي وكانت تأكل قلبي مع ما مرَّ بي من ليالٍ قضيتها ساهراً بينما ينعم سواي بلذة النوم! فلقد كنت كالسجين الحائر يتعلق "بقضبان" نافذة سجنه فتميد بين يديه فيظن نفسه ناجياً لكنه لا يلبث أن يهبط مدحوراً. رزحت طويلاً تحت إصر هواجسي عاجزاً عن مقاومتها، لذلك كنت آخر نفسي، عبثاً، بالهدوء وأنا في حجرتي حائر لم أذق طعاماً. ثم انقضى الليل والليل التالي وبدأ الفجر. وسطح النهار وأنا غارق في عجاج الافتراضات الجديدة التي أثارها في نفسي حادث فجائي بسيط وكانت وساوسي تعقد في نظري أبسط الأمور... لقد جربت وقع هذه العواصف النفسية فأصبحت أرى أن النجاة منها تنحصر في التمسك بالأدلة الحقيقية التي تشبه في ثباتها الصخور الراسخة لذلك أرجعت، في الحالة الراهنة، هذه الأدلة الواقعية إلى دليلين حصلت عليهما الآن: أولهما أنه ما يزال يوجد للسيد "ترموند" شقيق كان المقول إنه مات، وثانيهما أن هذا الشقيق ملوث، منفي، هارب من الجنديّة، معدم، وأنه له على أخيه، وهو شريف، غني، لا غبار عليه، سلطاناً يفزعه به. فأما الدليل

الأول فواضح، لأن من الطبعي ألا يكذب "جاك ترموند" خرافة الانتحار التي اختلقها هو وبها أنجى أخاه من الليمان، فلا يرضى أحد أن يعترف بأن أقرب الناس إليه لص مزور هارب... وأما الدليل الثاني فالتباين القوي بين ذلك السبب الذي اعترف به زوج أمي وقد تحمله والفرع الهائل المستولي عليه. فسطوة "إدوارد ترموند" على أخيه لا يبررها قد تهديده إياه بعودة لا ينجم عنها سوى فضيحة شائعة لا تلبث أن تخدم. لوالدتي أن تصدق هذا السبب لثقتها بنبل زوجها. أما أنا، فلا... لذلك رجعت لقانون الجندية فوجدت بالبند 184 أن "جنحة" الهرب من الجندية لا تسقط إلا إذا بلغ الهارب سن السابعة والأربعين. ومعقول أن "إدوارد ترموند" ما يزال تحت حكم القانون. لكن هل الرغبة في نجاة هذا الأخ الملوث من عقاب تأديبي تبرر ما هو فيه زوج أمي من خنوع طال عهده وعلى الأخص في ظروف اضطرابات صحته القاسية؟ لذلك كنت ألمح لتسلط أخيه عليه مبرراً آخر، ألمح اشتراكاً جنائياً مفزَعاً هائلاً بين الرجلين، قد يكون "جاك ترموند" استعمل أخاه أداة في قتل أبي. فلو صح هذا وكان بيد القاتل ما يثبتته لتحتم وقوفه مغلول اليدين أمام القضاء. أما كان يجب أن يوقظ أمي فزع زوجها فزَعاً هدم كبرياءه الوحشي بسبب ذلك التهديد؟

على أي كنت أعود فأكره نفسي على الهدوء باذلاً جهدي في تمحيص ما لديّ من أدلة الجريمة الطبيعية والعقلية لأرى ما إذا كان هناك ما يمنع أن يكون "روشداال" و"إدوارد ترموند" شخصاً واحداً،

اتفق الشهود على أن "روشدال" ضخم الجسم قوي، ووصفته لي والدي بأنه غليظ ثقيل. وقد مضى خمسة عشر عامًا بين مقترف جريمة عام 1864 وعاطل عام 1879 الذي قد كبر طبعًا، لكن ليس ما يمنع أن يكون هو نفسه. ثم إن والدي أكثر من الكلام عن لون حدقتي "إدوارد ترموند" مكررة أنه أزرق باهت كلون حدقتي أخيه، وبواب النزل الملكي ذكر، إذ ذاك، زرقه حدقتي المزعوم روشدال زرقه رائعة وأن الذي دعاه إلى ملاحظة ذلك هو التباين العظيم بين زرقه عينيه وسواد وجهه. كذلك التجأ "إدوارد ترموند" إلى أمريكا، فماذا قال الأستاذ ماسول؟ كأي ما زلت أسمعه يكرر أن القاتل أجنبي، أمريكي أو إنجليزي، وربما كان فرنسيًا أقام في أمريكا... إذن ليس ما يمنع، من الوجهة الطبيعية، أن يكون "روشدال" و"إدوارد ترموند" شخصًا واحدًا. فهل هناك مانع من الوجهة العقلية؟ كلا، لكنني، زيادة في الاقتناع، رجعت لتاريخ الجريمة في نفس اللحظة التي بدأت فيها مراسلات أبي جلية عن "جاك ترموند"، أعني في يناير 1864. وليكون حكمي خاليًا من تأثير الحقد، محوت الأسماء من فكري مفترضًا حادثة خفية مريعة، هام رجل شرٌّ في فطرته خميرة الإجرام، وحدة بالغة في أهوائه لا يأبه بالواجبات بل يسحق كل ما يعترض أمياله، هام ذلك الرجل بامرأة صديق حميم عالمًا أنها شريفة وأنها لو كانت طليقة من قيود الزوجية قد تحبه ولكنها ما دامت متزوجة فلن ينالها، فيلمح من صديقه الغيرة والكراهة وأنه بعد قليل سيغلق بابه في وجهه

فتخامره فكرة التخلص من هذا الصديق ليحقق حلمه، تخامره هذه الفكرة مراراً
ضد هذا الصديق وقد أصبح موضع مقتته حتى يعتادها فتسول له نفسه تحقيقها
فيفكر في كيفية إنقاذها... أو ليس له شقيق ساقط ليس مجهولاً موطنه فحسب،
بل ووجوده أيضاً؟ ما أعظمه أداة قتل هذا الشقيق الملوث، المعدم، المنحط الذي
يعبد أخاه لشدة احتياجه لما يمهده به من المال! ثم لا يلبث هذا العاشق أن
يتوطد عزمه على إنفاذ فكرته الشريرة فيستقدم أخاه إلى باريس. ولكن كيف؟
بخطاب أو خطابين يلمع فيهما بريق المال بينما تتخلل سطورهما شروط نيله
الخفية الحاسمة فيقبل الآخر فيستقل الباخرة إلى أوروبا بعد أن يحتاط إذ يذيع
حول سفره كثيراً من الأكاذيب. وهل ألين عريكة وأطوع من هذا الأخ المنبوذ
المجهول الثاوي في الفاقة، والذي يعيش، من زمن طويل، ضالاً لا وطن له ولا
آل؟ ثم يتقابل الشقيقان... وإلى هنا، لا شيء يخالف المعقول أو يتعارض مع
المراحل الطبيعية لقصد جنائي كهذا... أوصلني هذا الفرض إلى وسيلة الإنفاذ
مستمراً في التكييف، غير متحيز، يساوم الأخ الغني أخاه المعدم على إراقة
الدم مقدماً له المال بسخاء، مئة ألف، مئتي ألف، ثلاث مئة ألف فرنك! فماذا
يحول دون ذلك الساقط الجائع والقبول؟ الواجبات؟ وما قيمة الواجبات عند
رجل عاش خالغ العذار في حمأة السرقة؟ إني لأعرف مما كنت أقرأ من أخبار
الجرائم بالجرائد ومحاضر التحقيق _مدفوعاً بشغفي بالانتقام_ أن الرجل

يصبح قاتلاً إذا اعتاد الفسق واشتدت حاجته للمال. وإذن فهذا الشقيق وهذا أمره، لا يتعفف عن الإجرام. كم من طعنات خناجر مدى وطلقات نارية ونقط من السموم تسكب في الكؤوس يقترفها أولئك الأشرار في أخرج مواقف الخطر وهم بعد غير موقنين بالكسب لا لشيء إلا لبيعثروا ما يجنون من المال بإجرامهم في يؤر الفساد... أو أن هذا الرجل كان يخاف المقصلة؟ لو كانت في قلوب أولئك الأشرار الفاسقين رهبة لما أقدم واحد منهم على القتل وقد عاشوا في الفسق طويلاً، لا يعرفون للخوف معنى ولا يحسبون للعواقب حساباً، غير خاضعين إلا لأهوائهم وما درجوا عليه حتى أصبحت قوى الشر فيهم طاغية تجتاح ما سواها. وهل أوقفتم عن جرائمهم تلك الفواجع من أم تموت وأطفال يقعون بين براثن الجوع ونساء تترمل يائسات؟ وهل يخشون تلك الأشباح المفجعة من المحكمة إلى السجن إلى المقصلة عندما يزهقون الأرواح، ظامئين إلى المال؟ المقصلة بعيدة وباب الماخور في زاوية الشارع والشرير يقتل السري كما يذبح القصاب بهيمة، ليدخل الماخور مفعم الجيوب حيث يمنع عينيه بمشاهد الدعارة ويروي غلته من الخمر، إن ذلك جميعه لسبيل الجريمة الدائم. آه! لقد آلمتني شديد الأم هذه الأفكار ولم أطق أن يهدر دم أبي لمال يبذر في حانات سان فرنسيسكو أو نيويورك حتى كدت أفقد قوة التكييف ووقعت في هذيان أراني مخدعاً خاصاً شبيهاً بتلك المخادع التي كنت مررت بها وكلها متشابهة رجسة في كل بلد.

المنضدة معدة وقطيفة الأريكة ملوثة والمرأة محفورة عليها حروف بهاس الخواتم والبيانو مفتوح تُعرف عليه أغنية السفلة والشمبانيا في كووسهما والفتاة تضحك متهتكة متبذلة وبجانبها الرجل... وكأني أقول لتلك الفتاة: كلا! لا تأكلي من هذا الطعام ولا تحتسي من هذا النبيذ ولا تتركي نفسك تلوثك يدا هذا الرجل وارفضي هذا المال فهذا كله ملطخ بالدم... إن هذا الرجل الذي يقبلك، والذي يشتهيك، والذي دفع لك الثمن، إنما هو قاتل، قاتل، قاتل! لكنني وقد رأيت نفسي، واجمًا مضطربًا طائر الصواب فريسة للتأثير الذي يتولاني لو رأيت المشهد المشؤم _الذي قد تخيلته مع ذلك في ملح البصر_ لجأت إلى صورة أبي فتأملت فيها طويلًا وكلمته، كأنها هو سميع، متوسلاً إليه أن يعينني، فأنست في نفسي، ليس الهدوء ولكن القوة على معالجة ذلك الافتراض الوحشي ومناقشته بدقة فرأيت، بادئ الأمر، أنه شبيه بما يثيره الكابوس في مخيلة المريض، فإن استخدام أخ أخاه، بإغرائه بالمال، في قتل رجل ليتزوج امرأته، يدخل في نطاق الأمور التي يبعد تصديقها... لكنني عدت فوجدت أن ليس في جريمة وقعت ما يبعد تصديقه فإن القاتل، إذا وطد عزيمته على القتل، لا يأبه بالفروض الاجتماعية. وعند هذا انبعثت في مخيلتي أمثال عديدة من جرائم اقترفت في ظروف تشبه ما أناقشه من حيث الاستثناء والغرابة أو على الأقل، احتمال الوقوع. لكن عقبة اعترضتني، فإنه إذا كانت هذه الجريمة المعقدة محتملة، فلماذا كنت أول من خالجه الشك؟

ولماذا لم يبحث الأستاذ ماسول، ذلك الذكي الدقيق الماهر، من هذه الجهة، عن تفسير لهذا اللغز الدموي الذي حار في إدراك كنهه؟ لكن هذا يرجع، بكل بساطة، إلى أن هذا المستشار لم تأت هذه الفكرة. وليس يهم أن يخالجه شك من هذه الناحية وإنما يهم معرفة إن كان هذا الدليل صادقاً. ثم ما هي الأدلة التي كانت تستدرج الأستاذ "ماسول" لاقتفاء هذا الأثر؟ لو فحص بدقة داخلية والدي لوثق من عفة والدي، فقد رأي حزنها الصادق ولم تقع في يده خطابات أبي وهي التي ينبعث منها أئينه لغيرته على زوجه وهيام ذلك الصديق المائن بها. وهل فات "جاك ترموند" أن يتواجد في غير مكان الجريمة من الوجهة الشعورية كما احتاط لذلك من الوجهة الجسمانية إذ أنه كان يتحدث وقت وقوعها إلى والدي؟ ثم لنفترض أن القاضي بحث من هذه الجهة وأنه منذ الأيام الأولى ظن الخيانة بذلك الرجل فكان يتعين البحث عن الشريك في الجريمة، بما أن وجود السيد "ترموند" بمنزلنا وقت وقوعها أمر محقق. وهب أن بحث الأستاذ "ماسول" أوصله إلى التفكير في ذلك الشقيق المختفي فكيف كان يتاح له اقتفاء آثاره؟ وإذا كان "إدوارد" و"جاك" شريكين، فلم لا يكون أول همهما _طبعًا_ ابتداء مراسلة تعضل مراقبة البوليس؟ ألم ينقطعاً زمناً عن كل مراسلة بعد ذلك؟ وماذا كان يضطرهما للاتصال بطريق المراسلة و"إدوارد" لاه في تبذير ثمن جنائته و"جاك" منشغل في التحيل لامتلاك قلب أمي؟ ليكن هذا أيضاً ولكن إذا كان الأستاذ "ماسول"

ينقصه المستند الأساسي لجهله غرام "جاك ترموند" بامرأة القتل؛ على أن عمتي نفسها كانت عليمة بهذا الغرام إذ كان بيدها الحجة الدامغة على تريب أبي. فلماذا لم تفكر هي فيما أفكر فيه أنا الآن؟ لكن ماذا يثبت لي أنها لم تكن فكرت فيه وقد افترستها الشكوك هي أيضاً، فعاشت وماتت في ميدانها؟ لا بد أنها راعت والدتي وإن لم تأنس من نفسها جرأة على الصفح عنها بسبب ما انتاب من الآلام شقيقاً تعبه ولأنها لو اتخذت وسائل ضد والدتي لكان عملها ضدي، لذلك حرّمت على نفسها أي عمل. وهب أنها جرّوت عليه، فكيف كانت تستطيع البت وهي أمام استنتاجات غامضة مع علمها بمكان زوج أُمي حين اقرار الجريمة وجهلها مكان "إدوارد ترموند"؟ أما أن أكون أول من علل قتل أبي بما أعلله فلأني، دون سواي، حصلت على أدلة جديدة عن الجريمة وكون الافتراضات التي بنيتها عليها ليست حمقاء. وهناك اعتراضات أخرى، إذا كان زوج أُمي قد انتفع بأخيه أداة في القتل، فكيف باح لزوجه بوجوده؟ لكن جواب هذا السؤال ظاهر، فإنه بفرض وقوع الاشتراك، يتحتم الحصول على الدليل وهو الخطابان أو الثلاثة التي كتبها "جاك" لأخيه يستدعيه بها لأوروبا ويرسم له الخطة، ولا بد أن "إدوارد" قد احتفظ بها كسلاح يسيطر به على أخيه وليهدده بتسليمها لوالدتي. فإبلاغ والدتي بوجود "إدوارد" وهو ما فعله زوجها إنما كان اتقاءً لهذا التهديد، حتى إذا أصر القاتل على تسليم هذا الدليل القاطع المشترك لأرملة القتل التي

أصبحت زوج المحرض على القتل، فقد يستطيع، على الأقل، إنكار هذه الخطابات مدعيًا بأنها مزورة بقصد الانتقام منه. مبرهنًا على براءته بأنه لم يخفِ عنها وجود أخيه. ثم، بفرض أن الجريمة اقترفت بالوسيلة التي صورتها. فلم لا تكون وخزات الضمير قد سببت انفجاره بهذا السر لزوجته بعد أن أدرك أنه لم يفتها، وهي العطوف القلقة، ما هو فيه من عذاب. وهي تحبه وتعرف أنها موضع حبه؟ فكم من غيوم غشيت جبينه لم يكن يبدها وجودها بجانبه وكم قرأت من أحزان في عينيه لم تكف شفقتها لتحويلها إلى هناء! ومن يدري إذا كان قد عرف فعل الغيرة، وهي أفظح الآلام، وخشي سلطانها على زوجته بسبب إخفائه عوامل اضطراباته وكآبته الشديدة فاضطر لمكاشفتها بشيء من الحقيقة تهدئة لروعها واجتنابًا لما قد يصيبها مما يؤنبه عليه ضميره؟

لا تباين إذن بين القليل الذي كشفه لوالدي من سره وبين ما افترضته من اشتراك الشقيقين... وقد كنت أدرك أيضًا أنه، فيما باح به، لم يستطع التأكيد عليها بإخفاء الأمر عليَّ إخفاءً، لولا فرصة تأثر والدي وإلحافي بل ولولا حضور "إدوارد ترموند" المفاجئ الذي أضع رشاد المسكينة، لجهلت ذلك إلى الأبد... ولكن كيف نعلل حماقة السيد "ترموند" في رفضه المال على أخ في حضيض الفاقة جدير بإتيان كل سيئة؟ قد وصلت في هذا أيضًا إلى افتراض السبب، فلقد كان زوج أُمي يرى نفسه بمأمن من جهتي كما أنه بمأمن

من العدالة لسقوط العقوبة، لكنه كان مريضاً، فهلاً يكون طبيعياً أن يسترد، بأي ثمن، تلك الأوراق التي قد تستعمل بعد موته، وهي بين تينك اليمين الشريرتين، سلاحاً للمساومة ضد أرملة وتلم ذكراه في قلب التي دفعه حبه لها إلى اقرار الجرمية؟ لذلك توقع أن أخاه لن ينفذ وعيده دون أن يلجأ لمحاولة أخيرة، أن يحضر إلى باريس فيتقابل الشقيقان بعد فراق سنين طويلة. فيطلب منه أخوه ما لا فيعطيه إياه للمرة الأخيرة وفي مقابلة يسترد تلك الأوراق التي هي البرهان الوحيد الذي ينير ظلمات تلك الجريمة الخفية.

لكن فات زوج أمي أن أخاه قد يحضر إلى منزله فيدخل في البهو أمام والدتي وأن الهزة التي تعرفوه وهي جد شديدة تصيبه وقد أنهكه مرض الكبد، بنوبة بالغة. "إن في طيات الحوادث من مفاجآت المجهول ما يعاكس مهارة المتبصر اليقظ"، فإني عندما أذكر أن التفاتي في المكر ومراقبة الإنسان نفسه وغيره مراقبة مستمرة أوصلت إلى هذه النتيجة، كنت أشعر، من جديد، بلفحة القدر تصيبنا جميعاً، ما لم تكن هذه الافتراضات رواية متجلية في رأسي الذي قد استولت عليه الحمى وشغف الانتقام الذي يفترسني! ومهما تكن هذه الافتراضات حقيقة أو خيالاً فإنها قد مثلت أمامي ولن أستطيع البقاء على الجهل أو الشك. على أن هذه التحليلات المختلفة التي منها ما يدعم تكييفي ومنها ما يفنده، أوحى إليّ بدليل حاسم، عرفت، خطأً أو صواباً، إمكان وقوع تآمر قد يكون فيه "إدوارد ترموند" أداة أخيه في

الجريمة، فإذا صدق ظني، فقد وجب أن أتعسف في اقتفاء هذا الأثر ولو أودى بي ذلك إلى احتقاري نفسي واعتباري نفسي أجنب الجبناء. وبما أني أسرفت من الوقت بين هذه الهواجس المؤلمة فقد وجب العمل لبلوغ الحقيقة.

انقضت الليلة وأنا فريسة هذه الهواجس حتى اختلطت أشعة مصباحي المحزونة بأشعة الفجر الباهتة ففتحت النافذة فأقسمت علناً أمام أشعة هذا اليوم الجديد أني سأبدأ فيه القيام بفروضي التي أخذتها على عاتقي وألا أتوانى لحظة حتى أستطيع مناجاة نفسي "بأنني أصبحت موقناً..." ووطنت العزم، في الوقت نفسه، على التغلب على عاطفة المشاعر الحقاء التي عذبتني وعلى تحديد فكري في هذه النظرية وهي: أهنالك وسيلة للتحقق مما إذا كان "إدوارد ترموند" هو نفسه المزعوم "روشدال"؟ لم أكن أستطيع أن أرتكن في ذلك إلا على نفسي دون سواي، على ينابيع ذكائي وإرادتي. وإني لمدين لنفسي بفضل عدم الهرب من مهمتي بإلقاء عبئها على العدالة ضناً بالدي أن ينتابها الألم من جراء ذلك وعلى الأخص بعد أن عاهدت نفسي ألا تصيبها، من يدي، هذه الضربة القاسية، أن تعلم أنها كانت خلال خمسة عشر عاماً زوجاً لقاتل. فإنه لكي تظل جاهلة تلك الفاجعة الجنائية، وجب أن تبقى المعركة محصورة بين زوجها وبينني. لكن، "وإذا وجدت زوجها آثمًا؟" وعند هذه الفكرة التي لم تعد غامضة ولا مستحيلة وقد تصبح حقيقة لا

تفند، اليوم أو غدًا أو بعد بضع ساعات، بدا لي مشروع هائل. إلا أنني أرجأت البحث من هذه الواجهة حتى يحين وقته وعدت إلى نظريتي الحاضرة أحللها، وهي: كيف أتحقق أن "إدوارد ترموند" هو نفسه المزعوم "روشدال"؟ إن انتزاع هذا السر من زوج أُمي لمستحيل. فقد حاولت منذ شهر أن أجد مكان ضعف في درع تكتمه الذي تكسرت عليه نصالي، فلم أفر بشعاع من الأمل. وإني لو أتيت لي جميع وسائل التعذيب لدى محكمة التفتيش، لما استطعت أن أفتح شفتيه فأستلب من هذا الوجه المعذب الغامض فتيلًا من الاعتراف. إذن، لديّ الآخر. ولكن لأصوله فأرديه، يتعين أن أعرف بأي اسم وبأي عنوان اختبأ في باريس. ولم أكن في حاجة لكذ ذهني في ابتداع وسيلة محققة في الاهتداء عليه، إذ كان يكفي أن أتذكر نفس الظروف التي عرفت فيها وصول "إدوارد ترموند" لباريس. فإن أخاه سيبدل بالتأكيد قصارى جهده ليقنعه بالنزوح، إمّا تفاديًا من ذكرى اشتراكه في جريمة دموية أو خشية فضيحة مألوفة. وإذن فلا بد سيقابله إما في بقعة خالية وإما أن يذهب إليه في المحل الذي اختبأ فيه. أما في المنزل فلن يكون ذلك لوجود والدتي والخدم. لذلك عولت على أن أرسل وراءه من يتأثره. فإذا قابل "جك" أخاه في مخبئه وصلت إلى غرضي سريعًا. أما إذا قابله في بقعة خالية فيني أزود رسولي بأوصاف "إدوارد ترموند" كما تلقفتها من فم والدتي فيقتفي أثره حتى يعود إلى مستقرة بعد أن ينتهي من مقابلة أخيه.

أعد الجاسوسية سفالة كما أعد هذا الشرك الذي أنصبه لزوج أمني دناءة ولكن ليس للمرء في القتال اختيار سلاحه خصوصًا ولا بد لي من أن أتنبك للوصول إلى الغرض الذي بدأ نبراسه ينير بصيرتي كل ما يسبب الأذى لوالدي... لكنني عدت لنفسي أسألها: "وما العمل إذا عرفت الاسم المستعار لإدوارد ترموند وعنوانه وليس لي ما للشرطة من سلطة القبض عليه ووضع اليد على أوراقه، تلك السلطة التي تستطيع إطلاق سبيله بمعاذير كثيرة عند انتهاء التفتيش؟ إني لأذكر كم تخيلت من خطط حاذق رفضتها جميعًا. لذلك انتهيت إلى التعلق بالأدلة الثابتة، لو فرض أن هذا الرجل هو قاتل أبي فمن المستحيل ألا يظل مشاهد حادث القتل بجميع ظروفه حيًّا في مخيلته إذ لا بد أنه قد تمثل له، أثناء ساعات شوؤه، وجه ذلك القاتل الذي أشبهه كثيرًا. وعند هذا تذكرت المحادثة التي جرت بيني وبين زوج أمني في هذه الحجرة عينها وذكرت ما قتلته إليه وهو "أتظن أن هذا الشبه يوقظ في مخيلة القاتل شيخ فريسته"؟ فلماذا لا أستغل هذه المشابهة؟ لم يكن عليّ إلا أن أتقدم إلى "إدوارد ترموند" فجأة فأبادئه بالكلام عن ذلك المزعوم "روشدال" الذي لا بد أن ترن مقاطع اسمه في آذانه رنين الناقوس. نعم، يجب أن أدخل حجراته الحالية كما دخل أبي في حجرة "النزل الملكي" وأن أسأله بالاسم الذي سأله به أبي بينما أريه وجه فريسته نفسها. فإذا لم يكن آثمًا اعتذرت بأبي دققت بابه ضلة وإذا كان مجرمًا فسيعتريه خلال بضع لحظات أشد فزع جنوني. فأية عوامل قد تفعل فيه عندما ينمحي

عنه ذلك الفزع؟ عاملان لا ثالث لهما، خوف العقاب وحب المال. إذن يجب أن أذهب إليه مدرعًا بالسلاح والمال الوفير وأن أفرض عليه أحد أمرين، إما أن يبيعي الخطابات التي أتاحت له الاستبداد بأخيه سنين طويلة أو ألهب رأسه. فإذا أبي أن يسلمني الخطابات؟ ولكن أيتردد مثل هذا الشرير؟ قد يقبل المساومة وقد يعطيني الخطابات التي تكره زوج أمي على الاعتراف بالقتل. وإذن؟ إذن سيسافر كما سافر من قبل من "النزل الملكي" مدخناً لفافته وقد دُفع له ثمن خيانته لأخيه كما سبق أن دُفع له ثمن غدره بأبي! نعم سأتركه ينزح بما أن قتله بيدي سيكرهني على إفشاء جريمة أردت أن تبقه مطوية مهما كان الثمن. "إيه يا أمي، كم كلفني هناؤك فوق ما أحتمل!" ثم انتحيت قليلاً ثم عدت إلى صورة القتل فخيّل إليّ أنه يأمرني ألا أمس قلبك التي طالما أحبها، حتى ولا بدافع الانتقام. فأجبت أبي: "لأطيعنك"، وفي الوقت نفسه تركت إلى الأبد، هذه الناحية من فكرة انتقامي كان هذا عليّ شاقاً وهيئاً في الوقت نفسه ومع كل فهل كنت أضمر الحقد على هذا الشقي؟ حقاً أنه قتل، ولكن كأداة سافلة في يد غيره. أما ذلك الغير فلن أتركه يفلت، فهو الذي فكر في الجريمة فدبرها فساوم عليها، نعم، لن يفلت ذلك الذي سلبني كل شيء، من حياة أبي إلى عطف والدي، ذلك الآثم الحقيقي بل الآثم الوحيد. نعم، قد يقع بين برائتي وسألذ بتدبير خطة الانتقام منه وتنفيذها دون أن تشعر والدي بحسيس لهذه المعركة التي سأخرج منها منتصراً.

كنت بذلك موقناً وخمرة شغفي بالتعذيب الذي سأجرع هذا الرجل الممقوت كأسه المرير كانت تسكرني سلفاً. ولا غرو فنار الانتقام تلتهب بين جوانحي إذ فيه تضميد لعذابي الطويل... فقلت في نفسي: "إلى العمل، إلى العمل!" مرتعداً فرقاً أن يكون "إدوارد" قد نزع مزوداً من أخيه بثمن صمته، فيخيب رجائي. وما وافت الساعة التاسعة حتى بدأت تجسسي الممقوت الذي كنت أستكره، إذ كلفت وكيلي ببيع أسهم قيمتها مئة ألف فرنك وانقضى ذلك اليوم واليوم التالي وأنا فريسة ملل بالغ. كذلك لم أجرؤ على زيارة والدتي خشية أن تدرك من عيني ما يداعبني من أمل جنوني فتتحدث به إلى زوجها ولو بغير قصد، كما أنارت بصيرتي بجملة، بل بكلمة. وقبيل ظهر اليوم الثالث، علمت ممن أرصدتهم عيوناً على زوج أُمي، أنه استقل عربة بعد أخرى، متجهاً نحو "الجران أوتيل" ليقابل زائراً وفد من أمريكا، ونزل بهذا الفندق باسم "ستانبوري" بالحجرة رقم 353، بالطابق الثاني. فما وافت الساعة الثانية حتى كنت صاعداً سلم النزل متسلحاً بغدارتي وبالمال الذي أرصدته لشراء تلك الخطابات مصرّاً على ألا أراجع إلا ظافراً بثمرة جهادي... فهل كنت مقبلاً على أعظم حوادث حياتي هولاً، أو هي محاولة تقنعي مرة أخرى بأي كنت ألعوبة مخيلت؟ لكني، مع ذلك، أكون قد أدت واجبي كاملاً.

(16)

وصلت إلى الطابق الثاني فوجدت لوحة صغيرة في زاوية دهليز طويل مكتوباً عليها: "من رقم 300 إلى رقم 360" ووجدت في الدهليز خادماً يمر مصفراً وفتاتين تضحكان في مطبخ قريب من آخر السلم وسمعت ضوضاء عظيمة في باحة النزل فوجدت الفرصة ملائمة لتنفيذ مقصدي إذ أن الرجل ل يستطيع الهرب من نزل كهذا مكتظً بالناس... فأخذت أقرأ أرقام الحجر حتى وجدت نفسي أمام الحجرة التي كان يقيم بها "إدوارد ترموند" فألقيت المفتاح بالباب، كأما الصدفة كانت تهون عليّ إنفاذ عزمي بأكثر مما كنت أومل. هذا التفصيل البسيط يظهر ما كان فيه من قصدت إلى مفاجأته من الاطمئنان فهلا كان يجب أن يتوقع وجودي؟

وقفت لحظة أمام هذا الباب المغلق وكنت قد وضعت يدي اليمنى في جيبي محكمًا أصابعي على زناد غدارتي وفتحت الباب دون استئذان فسمعت صوت رجل يقول: "من أنت؟" وكان يقرأ جريدة مدخناً مستلقيًا على مقعد ذي مسندين واضعًا رجليه على مائدة وظهره إلى المدخل. سألت هذا السؤال غير مكلف نفسه مؤونة الوقوف ليرى من فتح الباب، لوثوقه بأنه أحد خدم النزل. فلم أترك له فرصة أن يكمل فيها اتجاهه إليّ وسألته:

– السيد روشدال؟ وما كدت أفوه بهذا الاسم حتى وثب واقفًا دافعًا المقعد ملتجئًا إلى الجهة الأخرى من المنضدة ناظرًا إليّ بوجه مُتلفٍ وأخذت عيناه تتسعان اتساعًا فظيغًا وواضحتين في ذلك الوجه الذي تحيط به لحية كانت فيما مضى، شقراء والآن وخطها المشيب، وقد انفغر فوه واصطكت ركبته. ولا غرابة فهذا الجسم الكبير القوي قد عرته إحدى هزات الخوف الجنوني الذي يشل جميع قوى الحياة.

لكنه في فزعه لم يفه إلا بصرخة واحة هي: "كورنيليس!" هذا البرهان، وهو ضالتي المنشودة منذ أشهر، هأنذا قد نلتته! وإني وإن شعرت، في تلك اللحظة، بجميع ما فيّ من ينابيع الحياة متوترًا، إلا أنني كنت نافذ الذكاء ثابتًا متملغًا عواطفي بينما كان خصمي صريعًا، لم يكن له ما لشريكه في الجرم من فطرة ضبط النفس إذ أن اسم "روشدال" ومشابهي لأبي وهذه المقابلة الفجائية، كل ذلك قد أرداه. ولأني إذن لم أضل فيما دبرت، لمحت بسرعة المخيلة الخارقة التي تصحب العمل أنه يجب أن أتبع هذا الهجوم الذي أربكت به عقله بهجوم آخر يشل جسمه فزعًا وإلا انقض عليّ في حركة الدفاع التي قد تتلو هذا الفزع وقد يصرعني ويفر كالمجنون مخاطرًا بالوقوع بين أيدي الخدم الذين يرونه فأرًا حيران، وإذن... لكني، وكنت مصوبًا غدارتي على ذلك الشرير، قلت له بعد أن ناديته باسمه الحقيقي، تأكيدًا له بأني أعلم بكل دقيقة من أمره: إن أتيت حركة يا سيد "إدوارد ترموند" قتلتك لأنك قاتل... ثم أمرته بالجلوس فأطاع بغير تعقل.

وكان لي عليه في تلك اللحظة سلطان مطلق كنت أظن أنه سيزول حاملاً يثوب إلى رشاده. ولكن، بفرض أن بقية المحادثة انقلبت ضدي الآن، فهل هذا يمنح أي أصبحت موفئاً؟ كنت أريد أن أعرف إذا كان "إدوارد ترموند" و"روشال" ليسا إلا شخصاً واحداً، وقد وثقت من ذلك بهذا البرهان الحاسم. إلا أنني كنت ما زلت محتاجاً لانتزاع البرهان الآخر الذي سيوقع زوج أمي في قبضة يدي. وهو آخر وجه للمعركة. فلمحت كالبرق جميع ما تحويه الحجرة التي كنت فيها محبوباً مع عدوي فرأيت على السرير، عن يساري، عصاة مرصعة وقبعة ومعطفاً، وعلى المائدة قبضة يد فولاذية وغدارة. وإلى اليمين المغسل "لافابو" و"البوريه" وعليه خنجر بين أدوات الزينة وبجانبه صندوق وراء باب مقفل ودولاب امرأة وراءه باب آخر مقفل أيضاً وهو نفسه محصور بين النافذة والمائدة تحت تهديد غدارتي المصوبة عليه فلم يستطع لا الفرار ولا التمكن من وسيلة للدفاع عن نفس، دون الوقوع معي في عراقك ترديه فيه نار غدارتي. على أنه إذا كان كبير الجسم قوياً، فإني لست طفلاً ولا ضعيفاً فقد بلغت الخامسة والعشرين من العمر بينما بلغ هو الخمسين عاماً، فلي جميع القوى الأدبية ولا بد لي إذن من الانتصار. فقلت له بينما كنت أجلس دون انقطاع عن تسليط غدارتي عليه:

– لتحدث إذن... فأجابني بوحشية:

– "ماذا تريد مني؟" وكان صوته مكتومًا أبحَّ وقد سعد الدم في وجهه
ولمعت عيناه اللتان تشبهان عيني أخي، عادت إليه الوحشية، بعد أن دهش
لبقائه حيًّا مع ما عانى من خطر مريع. فأضاف مهددًا بقبضتي يديه:
– "هيا، اقتلني بما أتي وقعت لنضع حدًّا..." ولمَّا لم أجبه وكنت ما زلت
مصوبًا عليه غدارتي، صاح قائلاً:

– "آه! قد أدركت، أنت الابن... وذاك السافل باعني إليك تخلصًا مني... قد
سقطت العقوبة ولذلك يرى نفسه في مأمن، ولكن هل اعترف لك أيضًا بأنه
شريك، ذلك الرجل الشريف الذي أملك برهان اشتراكه؟ أظنني تاركك تقتلني
دون إفشاء؟ كلا! لأصبحن فيقبض علينا ويعلن كل خفي... سيضيع، هو أيضًا،
الشريف". وكان يكرر كلمة: "الشريف"! فقد ملكه الغضب وكنت أرى شفتيه
تفتحان ليصرخ صرخة الاستغاثة! والأدهى أن الغضب تملكني أنا الآخر... إذ كنت
أرى يده الوحشية تجول ضالة على المنضدة، باحثة عما ترميني به، نعم فلقد كان
هو قاتل أبي... ولو زاد به الغضب درجة لقتلني أنا الآخر، وكنت على وشك
أن أرديه قتيلاً بطلقة من غدارتي فأروي غلتي، لكنني رأيت، في لحظة هذيان
سريعة، كأنه قبض عليّ فاضطرت لإفشاء كل خفية فانتابت الآلام والدي،
لكن لحسن حظي مرت به هو الآخر لحظة تبصر. ولا بد أن خطرت بفكره

خاطرتان، الأولى أن أخاه لم يبلغني عن الحقيقة كاملة وذلك ليوقعه فريسة انتقامي والثانية أني، ومقصدي الانتقام لأبي، لم تكن تبدو عليّ الرغبة في الإسراع. وبذلك مرت بنا فترة سكون قصيرة سمحت لي بامتلاك جميع حواسي فقلت له بثبات أذهله:

– "أنت مخطئ يا سيدي". فنظر إليّ ثم أقفل عينيه مقطباً جبينه بما أدركت منه أنه لا يتحمل النظر إليّ لمشابهي لأبي. فاستتبت بأكثر رباطة لأحول هذه المحادثة المريعة إلى محادثة أعمال:

– "لم أحضر للقبض عليك ولا لقتلك"، ما ألم تضطرنى لذلك أنت، كما خشيت أن تفعل منذ لحظة... إنها جئت مساوياً بشرط أن تصغي هادئاً مثلي... ثم سكتنا كلانا. وسُمعت ضوضاء خطوات وكلام وضحك بالدهليز أمام الباب تقريباً فكان هذا كافياً ليذكرني بضرورة امتلاك عواطفني وليذكره بأن تعسفه لعب بالنار فإن طلاقة يصرخ أحد الواقفين بالدهليز على أثرها فيدخل الحجرة ونحن على هذه الحال... لكن "إدوارد ترموند" كان قد أصغى إصغاءً، فارتسم على وجهه شعاع من الأمل أظهر على محياه ارتياباً غريباً، فأجاب بصوت مكتوم ولكن هادئ:

– "قرر اشتراطاتك". فألحفت بجلاء لأزيده اقتناعاً بصدق طويتي:

– "لو كنت أريد قتلك، لصرت في عداد الأموات". ورفعت غدارتي. "ولو كنت أريد اعتقالك لما اهتممت بالحضور شخصياً

إذ يكفي اثنان من الشرطة. ولا تنس أنك هارب وأنت ما تزال تحت سيطرة القانون". فأجاب بكل بساطة:

— "حقًا". ثم أضاف، مستتبّعًا تقديرًا في نفسه له أهميته الحاسمة في محادثتنا: "إن لم يكن جاك الذي باعني...".
فاستتبعت قائلًا متعمدًا إهمال ما قال:

— كنت وما زلت في قبضتي ولم أتخذ ضدك شيئًا... فإذا أنا ادخرتك بالأمس أو اليوم أو الآن فلسبب قوي، فنجاتك موكوله إليك"، فأجابني مشيرًا لمسدسي بأصبعه وكان ما يزال بيدي ولكن غير مصوب عليه:

— "وتريد أن أصدقك؟ كلا، كلا..." ثم أضاف بلهجة قوية كشفت فيه الضابط القديم: "لست ممن تخدعهم هذه الأحابيل...". فأجبتة بغاية البرود:

— إليك السبب القوي الذي يمنعني من قتلك كما يقتل الكلب، لا أريد أن تعلم قط والدتي، أي رجل تزوجته في شخص أخيك... أفهمت إذن لماذا قررت أن أتاركك تذهب طليقًا؟ فإذا كنت مع ذلك مستعدًا... لأنه حتى ولا اهتمامي بوالدتي يمنعني، إذا تولاني الغضب. ولا تنس أن عقوبة جناية 1864 ما تزال قائمة بفضل عناية القاضي. فأنت، برفضك، مخاطر بحياتك. هاك ما عرضه عليك: "قد نجحت خلال عشر سنين، في ابتزاز الأموال من أخيك بطريق التهديد،

لأنني لا أظنك تهز فيه عاطفة الإخاء، أليس كذلك؟ "لما حضرت من أمريكا متنكرًا تحت اسم روشدال، لا بد أنه زودك ببعض تعليمات... وقد احتفظت بتلك الخطابات... فأقدم لك مئة ألف فرنك، ثمناً لها".

فأجابني بنغمة تشعر أنه تملك عواطفه مؤقتًا:

– لم تريد يا سيدي أن أصدق عرضًا كهذا؟ فبفرض أن هذه الخطابات حقيقية وأني محتفظ بها، لماذا أسلمها إليك وهي مستند؟ ومن يضمن لي ألا أعتقل، بمجرد وقوعها بين يديك؟ ثم زاد وقد حملق في وجهي: "آه! لم تكن تعرف شيئًا؟ هذا الاسم... هذه المشابهة... ما أعباني، فقد لعبت بي..." ثم تولاه شديد الغضب من جديد، فصاح متوعدًا: "لأقتص منك". وفي الحال، ولم أكن مصوبًا عليه غدارتي، دفع المنضدة عليّ بأقصى شدة حتى كدت أصرع لو لم أقفز إلى الوراء. لكنه وجد الفرصة فانقض عليّ وضغط على جسمي، ولحسن الحظ أوقعت شدة هجمته الغدارة من يدي بحيث لم أستطع استعمالها، وإلا لقتلته بها بحكم الغريزة. ثم سبت بيننا معركة، لم نفه خلالها بكلمة. فإنه بهجمته كان قد ألقى بي إلى الأرض، لكنني كنت قويًا وكثرة اشتغال فكري بالأمر المخطرة التي أفنيت فيها شبابي، دفعتني إلى مضاعفة جميع قواي. وأكسبتني مهارة عظمى في استعمالها. كنت أشعر بأنفاس ذلك الشرير تهب على وجهي وجسme على جسme وعضلاته على

عضلاتي، وكنت أستم رائحته. فضاعف الحقد قواي وفي الوقت نفسه أتاح لي خوفي من أن تسمع حركاتنا، الهدوء الذي فقدته هو. فبعد بضع دقائق من تضيقه الوحشي عليّ، ولما أن شعر بالضعف عضني بوحشية في كتفي عضة أطارت صوابي فخلصت إحدى ذراعي وقبضت على عنقه مخاطراً بخنقه فأرديته تحتي وأخذت أضرب برأسه الأرض لأسحقه فبقي برهة خامداً فظننت أنني قتلته فالتقطت غدارتي وذهبت نحو المغسل لأخذ ماء أبلل به جبينه. فرأيت نفسي في المرآة ممرض الوجه ممزقة ياقاتى ورباط رقبتي فارتعدت كأما رأيت "أندريه كورنيليس" آخر. فتقززت من هذا الحادث الممقوت. وما كدت أشرع في غمس المنشفة بالماء حتى تنبه عدوي. لكنني كنت مصراً على الانتهاء من أمره، هذه المرة، مرتاح الضمير بوفائي بعهدي نحو والدتي. ثم اعتدل الشيرير جالساً تقريباً ناظراً إليّ. فتقدمت نحوه مصوباً غدارتي على جبينه وقلت له:

— ما تزال لديك الفرصة، أعطيك خمس دقائق للبت فيما عرضته عليك، الخطابات مقابل مئة ألف فرنك وإطلاق سراحك وأقسم لك. وإلا فطلقة تلهب رأسك، أقسم لك أيضاً... أردت تركك لتظل والدتي جاهلة. لكنني لا أريد فقدان الانتقام من الجهتين... فإذا تحركت قُتلت... فأعتقل... فتبحث أوراقتك فيُعثر على الخطابات، فيُعلم أنني محق في تحطيم رأسك، فتجن والدتي من الألم... لكنني أكون

قد انتقمتم... لديك خمس دقائق فقط. وكان يبدو عليّ الإصرار. فنظر القاتل إلى وجهي ثم إلى الساعة وأراد الإتيان بحركة لكنه رأى أصبعي ينحني على الزناد، فقال:

– "سلمت نفسي". فأمرته بالوقوف فأطاع، فسألته: أين الخطابات؟ فقال متوسلاً كالطريدة والجبن مرتسم على وجهه القذر:

– أتتركني طليقاً أسافر إذا أخذتها؟ فأجبت:

– "قد أقسمت لك بذلك". ولما أن لحظت في عينيه قلقاً بالغاً، أضفت:

"وأقسم لك مرة أخرى بذكرى أبي...". ثم عدت فسألته: "أين الخطابات؟" فأجابني مشيراً للصندوق:

– "هناك". فرميته بمحفظة أوراق النقود قائلاً: "هاك المال".

فهل لغمّة بعض الكلمات أو لما يرتسم على المحيا تأثير أدبي يسحر النفس أو أن ذلك التأثير راجع لطبيعة قسمي، أو أنه كان لإدوارد ترموند من قوة الفكر، حتى في لحظة اضطرابه، ما يقنعه بالركون في نجاته لصدق طويتي؟ على أنه لم يتردد لحظة، فتح الصندوق، وكان محزوماً بالحديد، وأخرج منه علبة مقللة ففتحتها وأخرج منها ظرفاً كبيراً رماني به كما فعلت معه. فأخذت أفحصه، غير خائف أن يخرج من الصندوق سلاحاً يقتلني به. فوجدته يحوي ثلاثة خطابات عليها تاريخ البريد في شهري يناير وفبراير عام 1864، اثنان منها صادران من باريس إلى نيويورك والثالث من باريس إلى ليفربول، فسألني:

– "أهذا كل ما تريد؟" فأجبت:

– "لا، بل يجب أيضًا أن تسافر الليلة بأول قطار دون مقابلة أخيك ولا

التحرير إليه. فهل تتعهد بذلك؟" فأجاب:

– "أعدك به. ثم ماذا؟" فسألته:

– متى كان يجب أن تقابله؟ فأجاب هزأً كتفيه:

– يوم السبت... كانت قد تمت المساومة بيننا. لكنه أرجأ الدفع ليوم سفري

للهاجر ليثق بأني لن أتأخر هنا. لكن قضي الأمر وعليه التبعة. فوقفت قائلاً مهدداً:

– وداعاً، إذن. واجتهد ألا تخاطر بعد الآن بمقابلتي أو بمقابلة مخلوق أحبه.

ثم تركته جالساً وخرجت. وما كدت أبلغ الدهليز حتى خاننتني أعصابي فجأة بعد

هدونها المدهش أثناء المعركة فخارت قدمي حتى كدت أقع، إذ كيف أبرر

اضطراب ملاسبي؟ فرفعت ياقتي مداراة لرباط رقبتي وقميصي الممزقين ونفضت

قبعتي ومسحت وجهي ونزلت السلم بخطى جاهدت أن تكون ثابتة فنظر إليّ

بعض الخدم دهشين من حالتي لكنهم لحسن حظي لم يحاولوا معرفة السبب.

كننت أخشى أن يجر عليّ ارتبائي أخطر النتائج فاخرقت الساحة فرعاً أن يقابلني

أحد معارفي، وما كدت أتخطى باب النزول حتى ألقيت بنفسي بأول عربة قابلتني.

وهكذا انتصرت برّاً بوعدتي.

ماذا أفعل بهذه الخطابات التي اشتريتها غالية بتضحيتي في سبيلها انتقامي من أحد المجرمين والتي ترهق زوج أُمي وتوقعه في قبضتي كما أخضعته، زمناً طويلاً، لأخيه.

بدأت أقرؤها في العربة، في طريقي لمنزلي، فوجدت أولها مسهباً يُذكر "إدوارد ترموند" بأخطائه الماضية وبما وصل إليه من شقاء يعز انتشاله منه وضمن ما جاء به وسيلة غير محددة تكسبه ثروة يصلح بها شأنه، شرط نيلها الأساسي أن يخضع هذا المنفي خضوعاً أعمى لأخيه وأن ينتقل إلى حي آخر، معلناً معارفه بمبارحته نيويورك، وأن يغير اسمه ويبقى في انتظار خطاب آخر، وجلي أنه قبل لأن "جاك" أمر هذا الشقي في خطابه الثاني بالحضور إلى ليفربول حيث يجد تعليمات أخرى هي موضوع الخطاب الثالث الذي انحصر في تحديد موعد عاجل، في باريس، في الساعة العاشرة مساءً، لمقابلته بشارع سحيق منعزل هو شارع "جوسيو" المقابل لشارع "جوي ده لابروس" خلف حديقة النباتات وكلا هذين الشارعين قفر كأنهما من الريف.

لم يذكر شيء بالخطابات عن الخطة التي رسمها "جاك" وكانت موضوع أول مقابلة له بأخيه بعد فراق عدة سنين. وبفرض أي لم أكن قد حصلت على الاعتراف الذي انتزعته من المزعوم "روشال" بفضل فزعه وذهوله، فإن في اتفاق تواريخ الخطابات واستدعاء "جاك" أخاه لأمر خفي وقتل أبي، برهاناً لا يفند.

قرأت هذه الخطابات المتهمة مرارًا وتكرارًا كما فعلت من قبل بخطابات أبي فوضحت لي جلية تلك المؤامرة البشعة التي سببت يتمي. فقد سبق لي أن عرفت شارع "جوسيو" الذي فيه أغوى "جاك" أخاه غوايته المشؤوم. لأن زميلي القديم في التلمذة "جوزيف ديدو" قطن مدة طويلة بمسكن صغير على قيد خطوتين من هذا الشارع وكثيرًا ما زرته لأقضي معه بضع ساعات ثم نتناول الطعام في أحد المطاعم هناك حيث كان يسرنا أن نشرف من نوافذه على مياه "السين" الخضراء والبحارة ومواكب البواخر. نعم، كم من مرة وطئت قدماي، وأنا جذل، أرض ذلك الشارع الذي تنزه فيه ذاك الشريران أثناء مقابلتهما الإجرامية! كنت أتمثلهما ذاهبين، آيين فيه، وأسمع خطوات أقدامهما وأتميز صوتهما وعلى الأخص ذلك الذي قضى أن يتزوج أمي يقول بنغمة الساحرة كلمات ناءت بشؤم نتائجها على سني حياتي. فقد مات أبي بفعلها وكذلك ماتت عمتي ضحية الأحران التي سببتها، تلك الأحران التي سببتها، تلك الأحران التي عذبتني. حقًا فإن آلامي المتواصلة لم تكن إلا نتيجة مؤامرة دينك الوجوديين في ذلك الشارع... كذلك كنت أتمثل اضطراب وجه ذلك الوجد اللثيم الذي أثرت عضته تأثيرًا عميقًا بكتفي الأيسر حتى كنت أحركه بألم. كما كنت أتمثله وقد بارحت حجرته، يصلح هندامه ويحزم أمتعته وينادي الخادم فيدفع له الحساب من مالي، ثم يستقل عربة قاصدًا بالتأكيد محطة الشمال لقربها من الحدود حيث يركب أول قطار، فأندم على

إفلاته من يدي، فيتولاني الغضب، فأقول في نفسي: "إنه ما يزال قريبًا وما تزال الفرصة سانحة... فهل أسرع فأخطر الشرطة وأزودها بأوصافه لتعتقله؟" لكنني أقسمت له بأبي سأتركه يسافر"، "لكن ما قيمة الإقسام حبال لص؟" لكن سيعتقل، سيعتقلان، ووالدي؟ والدي؟ إني منذ أيقنت بالحقيقة المشؤومة أصبحت أحنق كلما تذكرتها. ففي هذه اللحظة، حيث أتخيل القاتل فأراً، أوبخ نفسي إذ ضحيت نصف انتقامي في سبيل راحة هذه الأم التي أحبها. فناجيت نفسي ساخطاً: "فتتألم عقاباً لها على عدم بقائها أمينة لذكرى الميت... ثم ما لبثت أن خجلت من ضلالة كهذه كأني أجرمت... فإنها لن تتحمل وقع هذه الحقيقة بعد أن قضت زوجاً لهذا القاتل خمسة عشر عامًا. بل لن أتحمل، أنا نفسي، وخزات ضميري من إفشاء هذا الأمر البشع إليها. كلا، ولينج ذلك اللص!" لكنني، بالرغم مني، كنت أرقب الساعة فأرى أنه كلما مرت ثانية، قرب ذلك السافل من النجاة. فساءلت نفسي: "تري أية طريق سلك؟ لا بد أنه سافر إلى إنجلترا" فتخيلت قطاراً يسير في الليل وفرضة واسعة ومسافرين يتزاحمون، ثم تصفر الباخرة طويلاً فتتحرك مسافرة... وأن الوغد سيكون بعد بضع ساعات، في لندن، تلك المدينة الواسعة، طليقاً، آمناً، فصرخت مرثمياً على الأريكة، شديد اليأس: "أي أمي... أي أمي، إن ما ضحيت في سبيل راحتك لعظيم!" ثم وقفت فطردت بشدة صورة هذا الشرير لأحل محلها صورة الآخر، صورة أخيه. فإن هذا لن يفلت مني. وإذا

كان الانتقام طعامًا يؤكل باردًا، كما يقول المثل المفجع، فلديّ من الوقت ما يسمح له به منه. نعم لن يفلت مني، وقد جعلته جريمته وزواجه بامرأة ضحيته، أسيري. فإني أعرف مكانه وأستطيع أن أقابله كل يوم، فأثير معه خصامًا أنفذ منه إلى مقصدي. أي مقصد؟ هو ذلك الذي قد خامرني ورأيت فيه سلفًا، التعويض الكافي على سماحي لأحد عدويّ بالنجاة. قد تكوّن فجأة هذا المقصد في رأسي بعزم لا يتزعزع، إذ سمعت نفسي أصرخ كالمجنون مكرراً: "لأقتله، لأقتله" وكأما ثلثت في حالة هذيان فجائيّ مرأى جثته هامدة وعينيه اللتين طالما أرهقتني نظراتهما وقد انطفأ نورهما وفمه الذي ساوم وقد صمت وجبينه الذي تأصلت فيه الجريمة وقد جمد ويده التي سطرت الخطابات وقد شلّت، فلن يتحرك بتأتًا، هذا الجسم الذي كان موضع مقتي. وهكذا جعلني شبح الحقد أثب فجأة بلذة غريبة فصحت مرة أخرى: "لأقتله..." لكنني ما لبثت أن عرض لي هذا السؤال الذي لا مفر منه: "وبأية وسيلة؟" لأني لم أضح انتقامي الأول لأصيب هذه المسكينة بآلام أشد نكيرًا، بانتقامي من الثاني. لذلك كان لا بد لي أن أتخذ في انتقامي من هذا الثاني احتياطات تضمن لي النجاة من العدالة كما احتاط لنفسه في قتل أبي... وبالإيجاز، لا بد لي من قتله... قتله؟ إن معنى هذه الكلمة قتل رجل غيلة. ومهما يكن الشرك الذي أنصبه إليه، كأن أقتله بالسم، وريدًا رويدًا، أو أتربص إليه في ركن فأقتله بخنجر أو بغدارة فالمنعنى واحد، هو قتله غدراً. أأقتله

فأصبح، أنا أيضًا، قاتلاً؟ لقد ثار فجأة، أمام عيني كل ما تحويه هذه الكلمة من ندالة وانحطاط، حتى استبشعت الانتقام لأول مرة وطالما تمنيتيه ونذرت نفسي، منذ طفولتي إليه، إذ هو علاج بؤسي الوحيد. لكنني وقد تحققت هذا الضعف الفجائي في نفسي، أمام ذلك العمل المستطاع، دهشت، بادئ الأمر، فأغمضت جفني لأتملك حواسي، مضطراً لمناجاة نفسي بأني "خائف". ومم؟ من كلمة، كلمة الانتقام الذي ضحيت في سبيله بكل شيء حتى فرض احترام رغبة الموتى، إذ نكثت عهدي لعمتي وهي في نزاع الموت. إلا أنني ما لبثت أن وجدت أن منشأ فزعي الفجائي مخالفة وسيلة إنفاذ الانتقام لخزعبلات طبقتي وزمني فلم أتردد في الحكم على نفسي بالجبن لخوفي أن أقتل... هل كنت أتردد في تسميم قاتل أبي أو في قتله بطلق نارى، لو كنت ولدت بإيطاليا في القرن الخامس عشر أو ربيت في كورسيكا، منذ خمسين عاماً، أو بصقلية الحالية؟ أو لست إلا رجلاً متمدناً، تعساً، ضعيف التفكير، شغوفاً بالعمل ولكنه لا يجرواً أن يُلطخ به يده؟ ثم استعرضت حالتي بوضاحتها المطلقة وربما فيها مما لا مفر منه فوجدت أنى بين أمرين: إما أن أثار لأبى بتقديم قاتله للعدالة، بما أن الحكيم "ماسول" هدته بصيرته فجدد مدة العقوبة، أو أثار له بنفسى. وهناك فكرة ثالثة: ترك الشرير يمرح واحتمال اشغله مكان ضحيته بمنزل والدتى، بمنزلى أنا وقد طردنى منه! وعند هذه الفكرة هجت لشدة الغضب. وإذا كان روح فيَّ قد تردد أمام الخزعبلات، فهذا التردد لن يمنع روح

الوحشية الثاوي فينا عن الافتتان بشهوة الثأر التي تثور ثوران الجوع والحب، ثوران طبيعة الإنسان الحيوانية، ثوران لحمه ودمه. فقلت في نفسي: "إذن، لأقتلن زوج أُمي..." وهل خاف هو أن يقتل أُمي؟ "قَتَلْ وَلْيُقْتَلْ". "عين بعين وسن بسن" بهذا قضى أصل التشريع وأما ما عداه فكذب.

هجم الليل حالكًا، وأنا بين هذه الأفكار كمن وقع في هذيان الحمى وهو ما يتعارض تعارضًا غريبًا مع ما كنت عليه من هدوء عندما كنت مرتقيًا سلم المنزل الأكبر. لكن ذلك راجع لتغير الظروف، لأني كنت إذ ذاك، مقبلًا على مقاتلة رجل لأنتصر عليه، وجهًا لوجه، دون خيانة، لذلك لم أرتعد. لكن الذي أفزعني الآن هو أن أنصب لزوج أُمي شركًا في ظلمات الخديعة لأقتله غيلة. فتملكت نفسي لأول مرة خائفًا أن يعود إليّ ارتعادي فأعاني ذلك الأرق الذي إذا نام الإنسان بعده استيقظ غير قادر على العمل بهدوء. فشعرت بملل الانتظار إذ كنت أريد العمل منذ اليوم التالي فأنفذ، في الحال الخطة التي سأبثُّ فيها خلال الأربعاء وعشرين ساعة، مهما كانت. ومن الآن، أستطيع أن أخدع اضطراب أعصابي بالبدء في ذلك. أما يجب أن أظهر أمام الناس هادئًا، ثابتًا، باسم الثغر، ليشهدوا لي بذلك عند الحاجة؟

وارتديت ملابس مصرية على تناول الطعام في مكان عرفت فيه وقضاء بقية هذه الليلة بالنادي. فلما بلغت شارع "الشانزليه"

المكتظ بجماهير المنتزهين شعرت بلذة حياتي مبددة، فالجو معتدل والسماء صافية تتماوج بلألاء الكواكب والنسيم عليل يداعب أوراق الشجر النضرة وأكاليل النور تؤذن بارتياح الحدائق فمرت بمطعم انتشرت موائده حتى حافة "الرصيف" فألقيت الشباب فرحًا بتناول الطعام ناعمًا مغتبطًا وكانت نغمات الموسيقى الشجية المنبعثة من المراقص تطرق أذنيَّ ضعيفة، لبُعد المسافة، بينما كانت العربات تسير كالسيل المنهمر، آتية من طريق الغاب تحمل أجمل القبلات وأعذب الكلمات. فأسخطني أشد السخط هذا التفاوت العظيم بين لألاء هذه البهجة، بهجة الربيع، وحالي المفجعة. فبم أكرمت حيال القدر حتى أستحق هذه العزلة وأعاني ما أنا فيه من محنة، بينما تتمتع تلك الجموع بنعمي الحياة؟ لماذا صادفت، في حياتي، رجلًا يدفعه الهيام إلى إزهاق الروح، في عالم اعتاد أن يرى الهيام عطوفًا، ضئيلاً، لا قيمة له؟ لا أظن أن في العالم اثنين تبلغ بهما الجرأة على تبرير جريمة كالتي اقترفها "جاك ترموند" أو انقياده لهواه. ثم ما لبثت أن أصابني ريح القدر، وكثيرًا ما أصابني، فانتابني اشمئزاز غامض من النظر إلى وجوه بني الإنسان فلويت عنائي فجأة عن هذا المرتع الباسم من "الشانزليه" واتجهت نحو "قوس النصر" متخذًا دون شعور طريق الغاب، متجهًا إلى اليمين، تجنبًا للعربات. ثم تغلغلت في طرق قاحلة. فهل كنت بذلك مطيعًا، دون شعور، لشيء من تلك الذكريات التي تقودنا، بحكم غريزتنا، للسبل التي سبق لنا أن

طرقناها، فقد عرفت، في ضوء القمر، المكان الذي سرت فيه في الشتاء الأخير، مع زوج أُمي. أثناء أول نزهة لنا في الغاب، وكان ذلك يوم زارني بحجة طلب المجلة حيث أكرهته على رؤية وجه فريسته. فتمثلته سائرًا في برودة الجو بنفس هذا الطريق بين الحشائش اليابسة بشعره الذي وخطه الشيب، ملتفًا بمعطفه فتذكرت تلك الشفقة الغريبة التي خامرتني عندما رأيته بادي الكآبة مسحوقًا. فتصورته بجانبني، فتذكرت، لثوران هذه الذكرى، أنه ما يزال حيًّا فأدرت تمام الإدراك معنى كلمة "القتل". القتل؟ سأقتله في بضع ساعات، أو على الأكثر، في بضعة أيام. فعاد فتملكني القلق الذي حاولت الفرار منه عندما بارحت منزلي وسرت ضالًّا هكذا. فساءلت نفسي عما كنت قد تفهقرت أمامه منذ لحظة: "سأقتله، فهل لي الحق؟" ما أشد ألمي، ألقيت بنفسي على مقعد منسحقًا بينما أوراق الأشجار تتحرك ناعمة حولي! كنت منزويًّا فسمعت أصواتًا تقترب ورأيت شبحين يسيران على مقربة مني، هما شاب وشابة وقفا يتبادلان قبلة الحب يغمرهما القمر بنوره فانهمرت دموعي لأبي وإن كنت مثلهما شابًّا عامر القلب بينابيع الحب إلا أنني منعزل في ركن مظلم أتدبر في قتل! لكن، كلا! بل أنفذ العقاب. هل يستحق زوج أُمي أن يُقتل؟ نعم. وهي يسمى الجلاذ الذي يسقط رأس المحكوم عليه، قاتلاً؟ كلا! إذن، سأكون جلاذًا فتركت هذا المكان الذي سكبت فيه آخر دموع جباتتي، تلك الدموع التي أذكرها اليوم كبرهان قاطع على أنني لم أخلق على

الإجرام، وعدت إلى "باريس" موجهًا جميع قواي العقلية إلى هذه النقطة الوحيدة: "لي الحق في إنفاذ الإعدام في قاتل أبي... فإن حق المجتمع الإنساني في تحقيق العدالة بإعدام القاتل مستمد من حقوق أعضاء هذا المجتمع المكونين لهيكله في الدفاع عن أنفسهم. فهناك تعاقد مضمّر بين المجتمع وأعضائه، ولو لم يكن للفرد حق الدفاع عن نفسه لما كان هذا الحق للمجموع. ويحصل أن هذا التعاقد يتعذر تنفيذه لحكمة عالية. ففي هذه الحالة أعود لحقي الأول... أي حق؟ حقي في الدفاع عن نفسي... أما يوجد، في الواقع، حق الدفاع الأدبي كما وجد حق الدفاع المادي؟ يقتل "جاك ترموند" أبي ويتزوج بأمي فيسلبني بذلك أعلى عاطفتين طول حياتي ولا يكون مشروعًا قتل كما شرع قتل سارق يدخل ليلاً من النافذة؟" وهكذا ضاعفت البراهين حت استطعت إخفات صوت في قلبي أقوى من شغفي بالانتقام ومن أدلني، صوت كان ينطق بكلمات عمّتي وهي: "أنا أجازي، يقول الرب" الرب... وإذا لم يوجد إله؟ أما إذا كان هناك إله. فعليه التبعة إذ ترك الظروف تجري في أعتها... لكنني عدت فناجيت نفسي: "إنما هي تخيلات الطفولة تعود إليّ لأن التأثيرات قد أتعبت رأسي، إنما هي مسيحيّتي تبدو كما تبدو للمرضى إذ يرتعدون فرحًا من جهنم وما كانوا في صحتهم بها مؤمنين..." ثم بدا لي أن هذه الخزعبلات مناقشات باردة لا قيمة لها إلا لدى الفلاسفة وكهنة الاعتراف، فإن هناك أمرًا مطلقًا، لا يقبل الجدل وهو أنني لم أكن أحتمل أكثر أن يستمر قاتل أبي

زوجًا لأمي. كما أن هناك أمرًا آخر ليس أقل من هذا وضوحًا وهو أن تسليمي هذا الرجل للعدالة ينجم عنه قتل أمي أو تسميم حياتها. إذن كان عليّ أن أثار لأبي، أن أكون الحكم والجلاد في قضيتي. وماذا تهمني تلك السفسة من إثبات ودحض؟ كان عليّ، قبل كل شيء، الرضوخ لغريزتي بصفتي ابنًا، تلك الغريزة التي كانت تصيح بي: أقتل كان عليّ أن أقتل.

سرت مسرّمًا مصرًّا على هذه الفكرة، بلذة مشنومة، لأني كنت شاعرًا، على الأقل، بانقطاع تردداتي وبأني سأعمل. لكنني ذكرت، بينما كنت مارًا تحت قوس النصر، أتي قابلت هناك لأول مرة أحد رفاقي بالنادي وأنه انتحر في اليوم التالي بغدارة. فأثارت في نفسي هذه الفكرة _بدافع خفي لا أدري ما هو_ سلسلة خواطر جديدة. فوقفت خافق القلب... إذ لمحت سبيل السلام. ما أشد جنوني وانقيادي لمخيلتي، دون تمييز! قد يموت زوج أمي، إذ حكمت عليه بذلك بمالي من حق ابن ينتقم لأبيه. ولكن أما أستطيع إكراهه على الانتحار ولديّ ما يضطره لذلك؟ لو ذهبت إليه فأقول له بصراحة: "بيدي البرهان الحاسم على أنك قاتل أبي، فانتحر وإلا أخبرت والدتي بكل شيء، فبم يجيبني وهو يحبها بعبادة تؤمّني وأشاطره فيها؟ قد يفضل أن تعلم الحقيقة فتعتبره خائنًا، جبانًا، قاتلًا! كلا، بل قد يفضل الانتحار... وعندئذ اندفع قلبي _وقد أنهكته التأثيرات_ نحو باب هذا الرجاء الذي فتح فجأة إذ قلت في نفسي: "لو انتحر،

أكون قد أديت واجبي دون أن تتلوث يداي بالدم أو يتلخ به ضميري وشعرت بتفريج كربتي من عبء وخزات الضمير التي كنت شعرت بها سلفًا وظللت أستعرض مستقبلي بعد أن نجوت من هذه الغيوم القائمة التي غشيت بالحداد سماء شبوبيتي، فسينتحر، فتبكيه أمي، لكنني سأعرف كيف أواسيها. وسنسترد معًا ساعات الهناء التي استلبها منا القاتل عندما تعفى آثاره. إذ ذاك أستطيع أن أبرهن على مبلغ حبي لها بما أسرف من مداعبتي لها وهو ما لم أكن أستطيعه في طفولتي أمام ذلك الرجل الذي كان وجوده يخمد حماستي. سنترك باريس وهذه الذكريات المؤلمة حيث نأوي إلى جهة نائية فلا يكون لها سواي ولا لي سواها فأنذر نفسي للسهر على شيخوختها. فهل أحتاج وأنا معها لحب عائلة أخرى؟ وما أن الألام ترقق النفس فإنها ستزيد في حبها إليّ. وكم نسعد! لكن الدموع عادت فانهمرت من عينيّ، إذ ساءلت نفسي "وإذا رفض اللئيم الانتحار"؟ نعم، إذا لم يصدق تهديدي بإفشاء أمره لوالديّ؟ ألم يرني منذ أشهر شريكًا له في العناية التي كان يبذلها في إنقاذها جاهلة الحقيقة؟ ألم يكن يعرف كم أحبها؟ أما كان يغار من شفقتي البنوية عليها، غيرتي من شفقتة الزوجية؟ أما يجيبني قائلًا: "اليوم شك وغدًا يقين ولن يظن أن ما بيدي من دليل قاطع يعجزني عن إثبات كل أمر... وبفرض أنه يرفض فإنني إذًا أكون قد حاولت، حتى المستحيل، تجنب القتل... وليجرِ القدر بما يشاء.

(18)

ذهبت في اليوم التالي، في الساعة الرابعة بعد الظهر إلى شارع "لاتور موبور" لأنه كان من المرجح كثيرًا أن والدتي تكون قد خرجت لزيارة صديقاتها ولعلمي بأن زوجها لا بد منحرف الصحة بسبب ذهابه صباح أمس إلى "الجران أوتل" مؤملاً أن أجده بمنزله وربما كان نائمًا. وفعلاً لم أجد والدتي لكنه، هو، كان موجوداً بمكتبه المغطاة حوائطه بجلود قرطبة الملونة باللون الذهبي وهو الذي تفاهمنا فيه معاً لأول مرة. أما زيارتي هذه فكانت لها أهمية تختلف عن تلك. ومع كلِّ فقد كنت أقل تأثراً، فإن اليقين الذي وصلت إليه أكسبني هدوءاً غريباً. فإني أذكر أنني رأيت، لأول مرة، من إحدى نوافذ السلم ماسورة معمل وراء الحديقة الصغيرة يتصاعد الدخان منها. إذن كان ذهني طليقاً من الاضطرابات. وعند دخولي تلك الغرفة الفسيحة، لمحت زوج أمي غارقاً في مقعد كبير بجانب المدفأة يقطع صفحات كتاب جديد بخنجر عريض قصير قوي كان أحضره من الأندلس ضمن أسلحة أخرى كثيرة مبعثرة بجميع حجر منزله. وقد أدركت الآن الفكرة التي كانت سائدة عليه فغرست فيه هذا الميل. كان مرتدياً ملابس كأنه متأهب للخروج، ولكن اضطراب محياه

كان يشعر بشدة وطأة تلك النوبة التي عاها وكان ما يزال يعانها. ومن المحتمل أن محياي كان يدل على عزم خارق، إذ أدركت من عينيه، منذ تقابلت أنظارنا، أنه قرأ جميع ما بنفسي. ومع ذلك قال: "هذا أنت يا أندريه؟ قد أحسنت بحضورك..." وهو ما أفتعني مرة أخرى بقوة سلطانه على نفسه. ثم مد لي يده فرفضتها. فهذا الرفض الغريب الذي أجت به على حسن مقابلته والسكون الذي لزمته خلال الدقائق الأولى وتقطب جيبني وعينا المهددتان، كل ذلك أفهمه ما كنت عليه من حالة نفسانية. فوضع بسكون كتابه وذلك الخنجر على المائدة الكبرى التي كانت وسط الغرفة ووقف فاستند بظهره إلى رخام المدفأة مكتفًا ذراعيه ناظرًا إليّ نظرة العجرفة التي كان يعرف كيف يصنعها وكثيرًا ما حقري بها فيما مضى. فكنت البادئ بالكلام إذ أجبته على كلماته العذبة بخشونة محملقًا فيه "قد مضى زمن الأكاذيب... ها أنت تدرك أي أعلم كل شيء..." فقطب حاجبيه كما كان يفعل عندما يتولاه غضب يريد إخفاه ونظر إليّ بعظمة عاتية. ثم أجابني ببساطة قائلاً: "لم أفهم ما تقصد..." فقلت له: "أنت لا تدرك قصدي؟ ليكن ولأنين مخيلتك..." وكان صوتي يضطرب عندما نطقت بهذه الكلمات لأن هدوي بدأ يزول، فبالأمس، استطعت أن أرى في أخيه، عندما كنت أكلمه، انحطاط الرجل الجبان الخليل، أما هذا العدو، وهو أكبر منه إجمالًا، فكان يجد الوسيلة التي تمكنه من الاحتفاظ بنوع من التفوق الأدبي حتى في هذه اللحظة الرهيبة

التي كان موفقًا فيها بان جريمته على وشك الافتضاح. نعم، كان هذا الرجل مجرمًا ولكنه يخفي الدناءة وكان الصلف يذكي شغفه الجريء في ذلك الجبين الذي وإن عرته أفضح الأفكار لا يرتسم عليه الفزع ولا وخزات الضمير. كان يقر في عينيه، وهما عظيمتا الشبه بعيني أخيه، عزم وحشي، لذلك شعرت أنه قد يبذل آخر جهد في الدفاع عن نفسه فلا يسلم إلا عند برهان قاطع لكن تملكه هذه القوة النفسانية في مثل تلك اللحظة قد أهاجني، فصعد الدم في رأسي واشتدت ضربات قلبي. بينما كنت أقول له مستتبًا: "اسمح لي أن أعود إلى تاريخ الوقائع... كان في باريس، عام 1864، رجل هامّ بامرأة أخلص أصدقائه، وبالرغم من أن صديقه كان مستأمنًا، شريف الطوية، سهل الاغترار فإنه شعر بهذا الحب وبدأ يتألم منه فتولته الغيرة وإن لم يرتب قط في طهارة زوجته... تولته تلك الغيرة التي تصيب الهائم. فشعر بغيرته، ذلك الرجل الذي أصابه بالأمها. وأدرك أن المنزل سيغلق في وجهه. ولوثوقه أن المرأة التي كلف بها لن تسقط قط إلى حضيض اتخاذ عشيق سّولت له نفسه هذا التدبير الجريء: إن له أخًا سافلًا لصًا مزورًا هاربًا من الجنديّة في جهة سحيقة مجهولة عُرف عنه أنه ميت. فرأى في هذا الشقيق أسلس أداة يتخلص بها من الصديق الذي يعترض غرامه... فأحضر هذا الشقي خفية فحدد له موعدًا في الليل بأقصى مكان قاحل بباريس، على رصيف شارع ملاصق لحديقة "النباتات"... ها أنت ترى أنني عليم... كيف اتخذ لإقناع ذلك اللص

القديم بالقيام بمهمة القاتل المأجور؟ وهو ما لا يصعب تصوره... وبعد ذلك بعدة أشهر، قُتل الزوج في كمين بيد ذلك الشقيق الذي فر من العدالة وتزوج الصديق الخائن، في الحال تقريبًا، تلك التي كان يحبها... وهو اليوم من علية القوم، غني، محترم تغدق عليه زوجه التقيّة جمَّ عطفها واحترامها... أبدأت تدرك الآن؟ فأجابني بمحياء الهادئ:

– "لم أدرك شيئًا" وكان محققًا في ثباته. فإن ما قلت له قد لا يكون إلا محاولة أنتزع بها سره متظاهرًا بأي أعلم كل شيء. ولأني رأيت أن ذكرى مكان مقابلته لأخيه قد أحدثت فيه انزعاجًا، وجدت أنه يجب مهاجمته من هذه الناحية، فاستتبعت مسرعًا:

– فالقاتل الجبان، نعم الجبان، ولم يجرؤ على تنفيذ جرمته بنفسه، كان قد قدر جميع ظروفها أو حسب حسابًا، فيما خلا طوارئ بسيطة، إلى أن أخاه قد يحتفظ بالثلاثة خطابات التي استلمها منه، الأولان في نيويورك، والأخير في ليفربول، وهي التي تحوي التعليمات الخاصة بمراحل هذه الرحلة الخفية. لكنه لم يكن يتوقع أن ابن فريسته سيصبح رجلًا وأنه سيضمّر في نفسه شكوكًا عن الأسباب الحقيقية الدافعة لموت أبيه وأنه سيصل إلى الأدلة الحاسمة على تلك الجريمة الخفية... ثم أضفت بوحشية: "كفى خداعًا يا سيد "جاك ترموند" فأنت قاتل أبي بيد أخيك "إدوارد"... وبين يديّ الخطابات التي كتبتها

في يناير عام 1864 تستدعيه بها إلى "أوروبا" أولاً باسم "روشستر" ثم باسم "روشدال" ولن يجديك التظاهر بالحنق أو الدهش، فقد وضع الأمر... فعراه شحوب مريع. لكنه ظل مع ذلك مكتئباً ذراعيه ولم يضعف نظره الجريء. فحاول المحاولة الأخيرة ليدفع الضربة التي أصبته بها وتشجع فقال لي:

– "كم طلب إليك هذا الشقي" إدوارد" لبيبعك هذه الخطابات التي زورها

انتقاماً مني لرفضى إمداده بالمال"؟

فأجبت به بأشد وحشية: "صه! أنتستطيع التغيرير بي، بي أنا، أيها الشقي؟ وهل كنت في حاجة لهذه الخطابات لأعلم بكل شيء؟ أما كان كل منا منذ أشهر عالماً بنجوى الآخر، فكنت أعلم أنك قاتل أبي وكنت تعلم أنني أدركت ذلك؟ لم يكن ينقصني إلا الدليل الكتابي الذي لا يفند والذي يمكن تقديمه للعدالة... رفضت إمداده بالمال؟ لكنك كنت ستمده به، لولا أنك احترست، إذ انتظرت حلول يوم سفره... ولم تكن تتوقع أنني سأقتفي أثره... أتريد أن أقول متى رأيتَه آخر مرة؟ قد خرجت بالأمس، حوالي الساعة العاشرة صباحاً فغيرت العربة أول مرة بميدان الكونكوردي، وثاني مرة عند القصر الملكي حتى وصلت إلى الجران أوتيل فسألت عما إذا كان السيد ستانبوري في حجرته. وبعد بضع ساعات كنتُ أنا في هذه الحجرة عينها. تسألني: كم طلب إليَّ" إدوارد ترموند" ثمناً للخطابات؟ إني انتزعتها منه وغدارتي بيدي

بعد معركة كدت أقتل فيها... ها أنت ترى جيداً أنك لن تستطيع أن تخدعني،
وأنه لا فائدة من الإنكار...".

ظننت أنه سيقع صريعاً. فقد كان وجهه يزداد تغيراً كلما تقدمت في سرد
الأدلة الحاسمة أطارده بها في كذبه كما تطارد البهيمة الطريدة مؤيداً له أن أخاه
قد دافع عن نفسه كما يدافع هو الآخر عن نفسه. فأمسك رأسه بيديه ليتغلب
على الأفكار المربعة التي تولته بينما كنت أتهم كلامي. ثم عاد فنظر إليّ ولكن
بيأس لا حدّ له وقال لي نفس الجملة التي كان قد خاطبني بها أخوه ولكن بمزيد
الأم والاضطراب:

– كانت هذه الساعة لا بد آتية... ماذا تريد مني الآن... فأجبتّه: أن تقتص
من نفسك. ولديك أربع وعشرون ساعة... فإذا لم أجد غداً، في مثل هذه اللحظة،
أنت انتحرت، سلمت الخطابات لوالدي...

فارتسمت جميع صنوف المشاعر على هذا الوجه الشاحب عندما رميته بهذا
القرار القطعي المفجع بصوت المصّر الذي لا يقبل مناقشة. كنت واقفاً مستنداً إلى
المنضدة الكبيرة فتقدم نحوي وعيناه ملؤهما الجنون تبحثن عن عيني. وصاح قائلاً:
– كلا، كلا يا أندريه لم يحن الوقت! شفقةً، يا أندريه، شفقةً!
رحمة فإني مقضي عليّ، لن تطول حياتي ستة أشهر... فلست في حاجة
لنتنقم... وإذا كنت اقترفت جرماً هائلاً، فهل تظن أنني لم أعاقب
عليه؟ انظر إليّ، إني لأموت من هذا السر المفزع... قضي الأمر.

أيامي معدودة فدع لي هذا القليل الباقي من حياتي! افهم جيداً، لست لأرهب الموت. ولكن انتحاري، ذهابي تاركاً هذا الألم إلى تلك التي تحبها كما أحبها... جرؤت حقاً في سبيل اكتسابها، على إثيان جريمة فظيعة... فهل قصّرت ساعة أو دقيقة في سبيل إسعادها؟ وتريدني على تركها هكذا فأسومها عذاب الشك بأني وفي استطاعتي البقاء بجانبها، فضلت تركها قبل الأوان؟ أي أندريه، كلا! ولتدع لي، لنا، هذه السنة الأخيرة! فإني كما قلت ضائع، وإني بذلك لموقن ولم يخفه عني الأطباء. حدد موعداً في خلال بضعة أشهر... فإذا لم يختطفني المرض فعد إليّ... لكني لا بد ميت... وستبكييني دون أن يخالج عبراتها ذلك الشك البشع، الشك بأني استقدمت ساعتني وهي تلك التقية! وستكون أنت إذ ذاك بجانبها لمواساتها وستحبها وحدك... شفقة بها إن لم يكن بي! ها أنت تراني خاضعاً متوسلاً إليك باسمها وبقلبها ينبوع الشفقة... إني واثق بحبك لها وتنبأت بأنك تخفي عنها وساوسك لتحول دونها والألم... وأكرر لك مرة أخرى أن حياتي جحيم وقد أقدمها إليك بلذة استغفاراً عن جريمتي ولكن هي، أي أندريه، والدتك ولم يخالجها إلا خاطرات النبل والطهارة، لا تعذبها، كلا لا تعذبها بهذا...

فأجيبته متأثراً بالرغم مني لانفجاره الألم الذي اضطرني للاعتراف بإخلاصه

فيه:

– كذب وملق... لن أقبل أن تظل والدي زوجًا لقاتل بعد الآن. فانتحر وإلا أعلمتها بكل شيء...

فأجابني وقد عاد فجأة إلى كبرياته الفطري بدافع وحشية إجابتي:

– أتجروؤ؟ نعم، هي زوجي. نعم، هي تحبني فاذهب إذا كنت تجروؤ فاقتلها بما تحمل إليها! ها أنت قد شحبت لونك لهذه الفكرة. أنظني لا أمقتك كما تمقتني؟ إنما من أجلها هي تركتك تعيش وما احترمتك إلا لأنك عزيز لديها فمن واجبك أن تقابل صنيعي بمثله، أسمع؟ إنه لفرض عليك...

لقد أصبح هو الأمر بل المههدد، فكم قرأ في نفسي من حنو لوالدي حتى استطاع أن يقف هذه الوقفة أمامي! فثار في نفسي هائجًا شغف الانتقام إذ لمحت حقيقة موقفي وأن هذا الرجل كان قد كلف بوالدي جنون فاشتراها بقتل أخلص أصدقائه وأنه ما يزال يحبها من أعماق قلبه مع انقضاء عدة سنين حتى أنه رفض فقدان يوم واحد من تلك الأيام التي كان يستطيع قضاءها بجانبها وأنه كان واثقًا بعجزني عن إفشاء هذا السر الغامض المريع لتلك المسكينة، فهاجت في نفسي تائرة الغضب فجأة هيجانًا أفقدني كل سلطان على عواطفي فصحت به:

– آه! بما أنك لا تريد أن تقاص نفسك فمت إذًا حالًا! ومددت يدي فأمسكت الخنجر الذي كان قد وضعه على المنضدة فنظر إليَّ

دون وجل ولا تقهقر فاتحًا إليَّ صدره متحديًا هياجي الصبباني... كنت إلي يساره متحفرًا للوثوب فرأيته يبتسم سخرية مني واحتقارًا فأغمدت، بأقصى قوتي، الخنجر حتى قبضته جهة القلب... ولم أكد أفعل هذا حتى تقهقرت بحالة جنون لشدة فزعي مما جرؤت على إتيانه. فصاح صيحة واحدة وارتسم على وجهه قلق مريع ووضع يده اليمنى على جرحه كأنما يريد اقتلاع الخنجر ونظر إليَّ وقد أشله ألم عتيد، فتحركت شفتاه يريد الكلام، لكنه لم يفه بكلمة وقرأت في عينيه جهدًا خارقًا، فانحنى على المنضدة فأمسك قلمًا وجد من نفسه القوة على غمسه في المحبرة فسطر سطرين على ورقة صادفها ثم نظر إليَّ مرة أخرى فتحركت شفتاه من جديد ثم وقع كتلة هامدة.

إني لمتذكر... رأيت جسمه ممدودًا على البساط بين المنضدة والمدفأة على قيد خطوتين مني... فسرت نحوه فانحنيت على وجهه فتخيلت عينيه تتبعاني، حتى بعد موته... نعم، قد مات وقد عزا دهشًا الطبيب الذي حقق الوفاة قوة الضربة إلى بلوغ آلام مرض الكبد به أقصى شدة جنونية حتى أن الخنجر اخترق سمك عضلة القلب دون أن يدخل تمامًا في تجويفه الأيسر وأما كون الوفاة لم تحصل فجأة فلأن الدم لم يتدفق دفعة واحدة. أما أنا فلا أستطيع أن أقول كم دقيقة استمرت النوبة المريعة التي عرنتني ولا كم من الزمن بقيت مسحوفًا فزعًا أقول في نفسي: "سيحضرون، قد ضعت" وما كان فزعي خوفًا على شخصي، وهل من تثريب على ابن ينتقم من قاتل أبيه؟ إنما كان

فزعي بالنسبة لوالدي، فإني بالرغم من إصراري منذ أسابيع عديدة على جعلها بمأمن من الآلام مهما كلفني ذلك، واهتمامي الدائم بهنائها، ودموعي التي طالما أخفيتها وصمتي إشفافاً بها، قد ذهب كل ذلك هباءً. فإنه قد وجب إما أن أشرح لها ما اضطرني إلى قتله أو أن أدعها تعتقد أنني قاتل سافل. ولأي غرض قتلت؟ حقاً، قد وضعت... ولكن، إذا استغثت، إذا صحت قائلاً إن زوج أُمِّي قد انتحر أمامي، فهل أصدّق؟ ومع كل ألم يكتب هو نفسه على هذه الورقة التي بقيت على المنضدة ما يثبت أنني قاتله؟ فهل أعدمها كما يعدم الشرير كل أثر لوجوده في مكان جريمته قبل أن يبارحه؟ أمسكت تلك الورقة وهي واسعة فوجدتها تغشاهها كتابة بحروف أكبر من الحروف المعتادة. وكم كانت تضرب في يدي بينما كنت أقرأ فيها هذه الكلمات: "عفوًا، ماري، تألمت طويلاً، أردت الخلاص..." ثم إنه استطاع التوقيع عليها! إذن كانت موضع تفكيره حتى آخر لحظة حتى في هذه اللحظة السريعة التي مرت بين طعنتي وموته، فقد ملح هذا الأمر المريع، أنني سأعتقل، وأني سأقضي بأسباب جرمي فتعلم أُمِّي بجريمته فنجاني ولكنه أرغمني على الإخفاء... فهل استغل سبيل النجاة، هذه؟ وهل أقبل من هذا الرجل، وطالما مقتُّه، هذه المكرمة المريعة التي بها وُقِّي لي بدينه إلى الأبد؟ يجب أن أعترف عدلاً تشريعاً لي بأن أول حركة بدت مني كانت شروعي في تمزيق هذه الورقة فأعدم معه بتمزيقها ذكرى مكرمة يدينني بها مقابل حقدي، مكرمة وإن عُدَّت إخلاصاً

ساميًا، إلا أنها مُهينة ممن هو قاتل أبي. لكنني رأيت أمامي على المنضدة صورة أمي شابة بلباس السهرة مكللة الشعر بالجواهر سعيدة مغتبطة يُقرأ في محياها الحنو والعدوبة فقلت في نفسي: "أبضحى زوجها بكل شيء في سبيل حمايتها من اليأس الي يعتريها لو عرفت الحقيقة وتصيبها مني، أنا، الطعنة القاتلة فتعرف أن الرجل الذي كانت تحبه قتل زوجها الأول ثم قُتل بيد ابنها؟ لذلك ضننت بهذا المحيا أن تصيبه الآلام واحترامًا لنفسي أعدت الورقة مكانها وابتعدت عن الجثة دون أن ألقى عليها نظرة، فإن فراري بالأمس من الجران أوتيل قد شجعني ويجب أن أحاول الفرار مرة أخرى دون وجل. وعليه، أخذت قبعتي وانصرفت مغلقًا باب الحجرة كأني غير مهتم فاجتزت البهو ونزلت السلم ومررت أمام الخادم والبواب اللذين وقفا تحية واحترامًا ولم يُعنيا كلاهما بوجودي حتى ولم يتفرسا في وجهي. فعدت لمنزلي كما فعلت بالأمس ولكنني كنت أشد قلقًا.. فهل نجوت؟ أو ضعت؟ إن البت في أمري مؤجل للحظة اكتشاف الجثة، كأن تعود والدتي بعد خروجي ببضع دقائق أو يقصد المنزل زائر آخر أو يصعد الخادم حاملًا بضع رسائل. وهكذا كنت أحس أي موضع الريبة بالرغم من الإقرار الذي كتبه السيد "ترموند" وكنت أظن قوتي قد خمدت بحيث أي لو اتهمت لما وجدت من القوة العقلية ما أَدافع به عن نفسي بعد أن عراني شديد التعب فلم يبق لي إلا القدرة على متابعة حركات عقارب ساعة الحائط...

مرّت ساعة ونصف على خروجي من الحجرة المشؤومة وإذا بجرس الباب
يدق وخادم يحمل لي تذكرة موجزة من والدتي مكتوبة بالرصاص بيد فزعة تخبرني
بأن زوجها قد انتحر بدافع نوبة من آلام مرضه واستحلفتني المسكينة بأن أذهب
إليها في الحال. إنها، على الأقل، لن تعرف الحقيقة!

(19)

هأنذا قد سطرت ذلك الاعتراف الذي كنت أريد تدوينه، فما الفائدة إذن، من أن أضيف إليه الآن أمورًا جديدة؟ كنت أريد التفريغ عن قلبي فإذا بي، باستعراضي أمام مخيلتي هذا الحادث المشئوم لم أفعل إلا أن أيقظت ذكريات المشاهد التي كنت فيها عاملاً منذ أول مشهد رأيته فيه أبي صريعاً لا حراك به على سريريه وعند قدميه أمي تبكي، حتى آخر مشهد، ذلك الذي فيه تخطيت عتبة حجرة كانت فيها تلك المسكينة جاثية تبكي كذلك، وعلى السرير كانت ما تزال سطيحة جثة الآخر. فوقفتُ عند دخولي كما وَقَفْتُ أول مرة صارخة صرخة اليأس عينها: "ولدي أندريه، ولدي!" فاضطرت إلى الإجابة على أسئلتها باختلاق محادثة زعمتُ، كاذبًا، أنها جرت بين وبين زوجها، وبأنه كان كئيبيًا، عندما تركته" إلا أن محياه لم يكن ينذر بإصراره على أمر مشئوم. كذلك اضطرت للسعي ليبقى هذا الانتحار المزعوم مجهولاً ثم لمقابلة مأمور الشرطة وطبيب الصحة وتولي أمر تشييع الجنازة وتقبل التعازي.

إني لأراه دائماً واقفاً أمامي والخنجر مغمد في صدره، يكتب تلك الكلمات التي أنقذتني ناظرًا إليّ، محررًا شفتيه...

أيها الشبح الممقوت، اذهب عني! اغرب عني، أيها الشبح الممقوت! حقًا إني أتيت ما أتيت! حقًا، إني قتلته! وكان هذا عدلاً، وأنت تعلم أنه كان عدلاً. فلم لا تزال منتصبًا أمامي؟ أريد أن أعيش، أن أنسى! ليتني أستطيع أن أنساك ولو يومًا، يومًا واحدًا، وأن أنتفس وأن أكون طليقًا وأن أرى السماء، دون أن تعود صورتك المشثومة فتتردد على رأسي المسكين الذي اضطرب من فعل ما تولاه من شكوك أضنته.

إلهي، رحمة بي! لم أخطر لنفسي هذا المقدور، فأنت الذي قضيت به علي! فلم تعاقبني إذن؟ رباه، رحمة وحنانًا!

يا له من قدر جائر، قاسٍ، أحمق ينوء بوطأته على البشرية مقسمًا، عرضًا، الترح والفرح! أله يقول لابن قُتل أبوه: "لا تقتل"؟ كلا! وقد أجييه ولو كانت جهنم مفتحة أمامي: "إني حسنًا فعلت" وقد لا أندم، بل لن أندم، وما ندمي لأني طعنته بل لأني مدين له بتلك المكرمة المهينة التي أصابني بها فأصبحت في هذه الساعة عاجزًا عن اقتلاعها من نفسي. فلو أني أبيتُ تلك الورقة وتقدمت إلى القضاء معترفًا بفعلتي، لما عراني خزي ولرفعت رأسي عاليًا. ما كان أعظمها لذة لو أستطيع أن أصبح على الملأ بأني وهو كاذبان وأني أنا الذي أمسكت الخنجر وطعنته! على أنه لا ضير في قبولي _لا بل في احتمالي_ تلك المكرمة المرذولة. وهل قبلتها جنبًا؟ وماذا أخافني؟ لم أخش

إلا أن تتعذب والدتي، فلماذا أعاني إذن هذا القلق المرهق؟ إنما هي والدتي التي تحيي، من غير قصد، في مخيلتي ذكرى هذا الميت فأراه في حالة يأسه. فهي التي تتأثر له إذ تعاقبني ببقائها أمينة على عهده، فإنها وقد احتبست في هذا النزل الذي عاشته فيه ثلاثة عشر عامًا، لم تمس شيئًا من أثاره بل تحيط هذا التذكار الممقوت بنفس الإخلاص التقي الذي كانت تحيط به عمتي آثار والدي المسكين. إنما هو هذا الميت الذي ما زلت أرى سلطانه النافذ عليها من شحوبها وتجاعيد جفניה وما وخط شعرها من المشيب. إنه ما يزال ينازعني عطفها حتى وهو في أعماق لحده. إنه ليستلبها مني رويدًا رويدًا ولا حول لي ضد حبهما. قد أريد مكاشفتها بكل خفية، من الجريمة التي اقترفها حتى ما أنفذت من قصاص، لكنها قد تمقتني، لأني قاتله. إذن ستهرم حزينه وسأراها دائمًا تبكيه! فما الفائدة إذن مما فعلت، بما أني أطعنه في صميم قلبه؟

تمت بعون الله